تاريخ الجمعيات السرية
والحركات الهدامة

متضمناً سيرها ، ونظمها ، وتعاليمها ، ووثباتها

محلى بالصور التاريخية

ألفه

محمد عبد الله عنان

المحامي

محرر بجريدتي السياسة والسياسة الاسبوعية

« مؤلف تاريخ العرب في اسبانيا » و « قضايا التاريخ الكبرى » ... الخ

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٦

كلمة للمؤلف

في سير المجتمعات نواح مظلمة قد لا يكون من اليسير أن يتعرض باحث لكشف خفاياها . ولا ريب ان تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة من أدق واعمق هذه النواحي . ولما كنا اليوم في فاتحة نهضة فكرية جديدة ، فقد حق علينا ان نعنى بامثال هذه المباحث المحدثة

ولم اقصد بكتابة هذه الفصول ان اثير طلعة القارىء بما تضمنت من حقائق وبيانات مدهشة ، ولكني اردت – كما أردت باخراج كتابي « قضايا التاريخ الكبرى » – ان اقدم الى الآداب العربية صنفاً محدثاً من المباحث التاريخية ، يقف منه شبابنا المفكر على ناحية من نواحي التاريخ الاجتماعي والتفكير البشري ، لم يعن بها حتى اليوم احد من كتاب العربية

وقد عنيت خاصة بالافاضة في تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ، اولا لان المشرق كما سيرى القارىء هو مهد هذه الجمعيات والحركات ، ومنه اشتقت الجمعيات والحركات الاوربية معظم مبادئها وتعاليمها ، وثانياً لان الوقت قد حان لنسبغ على كل ما يتعلق بالمشرق وسيره صبغة قومية من حيث الشرح والافاضة . كذلك رأيت الفرصة سانحة لان أتناول بالبحث والتحليل سير الحركات الهدامة الحديثة كالاشتراكية والشيوعية والبلشفية التي قلما قدمت عنها الى قراء العربية صور صحيحة

هذا وان ما يتفضل به النقدة وأهل الرأي من العطف على مباحثي التاريخية يحملني على الامل بان هذه الفصول التي عانيت في كتابتها من مشقة في البحث والتنقيب ما يرى ماثلا في سطورها ، ستنال عطفهم وحسن لقيائهم . كذلك انتهز الفرصة لاقدم خالص شكري لصاحب « الهلال » الذي ما فتىء يعنى باخراج امثال هذه المباحث ونشرها في أثواب بهية شائقة

القاهرة في ٢٨ يونيه سنة ٩٢٦ — محمد عبد الله عنان

مقدمة

ان آثار الاهواء والقوى الخفية ، التي تعمل منذ القرون الغابرة فيما وراء العالم الظاهر في تكوين المجتمع وسيره وتطوره ، قوية عميقة . وقد وجدت الجمعيات السرية منذ أقدم العصور ، ولما كانت أقدم المدنيات قد نشأت وأزهرت في المشرق فان الشرق كان أول مهد لهذه الجمعيات والقوى الخفية ، بل سنرى أن الشرق هو الذي قدم الى الغرب أرقى المثل والنظم السرية ،وان أديان الشرق وفلسفته وأساطيره كانت مستقى خصيباً لاحدث الجمعيات السرية الغربيـة في صوغ تعاليمها وتقاليدها ورموزها . واذاً ففي مصر وبابل وفارس أقدم أمم الشرق ، ومبعث أقدم المدنيات ، نستطيع أن نرجع الى أصول هذه الجمعيات والقوى الخفية التي نفذت فيما بعد الى أعمق جنبات المجتمع ، وأثرت في عقله وروحه ، واستطاعت أن تسير أهواء الجماعات طوع ارادتها تحقيقاً لمثلها العليا

هذه الجمعيات التي آثرت الظلام على الضياء كانت تعمل لاحدى غايتين جوهريتين ، الاولى روحية ، كمحاولة الوقوف على أسرار الكون الخفية واستقصاء أسرار الروح والحياة والموت ، والاتصال بعالم الغيب ، والثانية هدامة سياسية يراد بها ابدال مجتمع بمجتمع أو سلطان بسلطان

فأما الغاية الاولى فكانت قبلة معظم الجمعيات السرية القديمة التي قامت في الامم الغابرة ، وكانت ايضاً غاية لبعض الطوائف الخفية التي ظهرت في العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب ، وسنرى أن هذا الشغف بالخفاء الروحي قد يرفع صاحبه الى أرفع وأنقى المثل أو يهوي به الى أسفل دركات الاثم . على أن النزعة الغالبة في الجمعيات القديمة كانت دائماً محاولة الاتصال بالآلهة ، وتوثيق الروابط معهم ، في الغالب لغايات انسانية خالصة ، ولمثل هذه الغاية تعمل بعض الجماعات الدينية في القبائل الهمجية ، فتحاول أن تنال عطف الآلهة أو تنفذ الى أسرار الروح ، وتمزج نظمها ورسومها بكثير من التعاليم الدينية والاخلاقية

وقد كانت معظم هذه الجمعيات السرية الدينية رغم استتارها وتمسكها بأذيال الخفاء والتحجب جماعات سلمية تعمل في دائرة الشرائع والنظم ، بل كانت منها جماعات تعمل في الخفاء لتأييد القانون والنظام ، وتستخدم في ذلك هيبتها ونفوذها الذي كان يستند في الغالب الى ما يحوطها من أسباب الخفاء والتحجب . وكانت تلجأ الى استخدام الاقنعة والرموز والرسوم والمواد المقدسة لتتصل بالآلهة أو الارواح أو تستنزلها من عالم الغيب لتحل بين صفوفها وتسبغ عليها المعارف والحكمة

ويلحق بهذه الجماعات الدينية ، جماعات المتنورة والحكماء وقد وجدت ايضاً منذ اقدم العصور وفي جميع المدنيات القديمة . وملخص دعواها ان هنالك تعاليم خفية سامية ليس الكافة اهلا لتلقيها ، فلا تكشف إلا للخاصة ، وقد كانت هذه التعاليم تدور في جميع العصور حول أصل الانسان وآخرته ، والحياة والروح ، وأصل الخليقة ، وطبيعة الخالق وهي نفس المسائل التي عنيت بالخوض فيها معظم الاديان ، بيد أنه يجب أن نلاحظ أن دعاة الدين كانوا يحملون تعاليمهم وحلولهم الروحية الى الكافة في حين أن الحكماء والمتنورة كانوا يقصرونها على أنفسهم ويحرصون على كتمانها غاية الحرص . وقد كانت هذه الخفايا المقدسة واحدة تقريباً في معظم الامم والمدنيات القديمة ، إذ يظهر أن القول بوجود آله قوي قادر خلق كل الاحياء والاشياء فكرة اشتركت فيها كل الامم القديمة التي بلغت غاية رفيعة من الحضارة كمصر وأشور وكالديا ، والصين والهند وبيرو . والتاريخ واضح في هذه النقطة ، على الاقل فيما يختص بمصر ، فقد كان للكهنة المصريين تعاليم روحية خفية يتناقلونها مدى الاجيال شفاهاً ولا يكشفون للناس منها الا المظاهر الخارجية ، وكان لاديان اليونان ورومة أسرارها ايضاً . على أن اليونان كانت مهداً لضرب آخر من الخفاء هو الفلسفة ، فكان للفلاسفة اليونانيين جمعياتهم السرية لا يلتحق بها سوى تلاميذهم القلائل ممن آنسوا فيهم الحزم والحكمة . وكانت تعاليمهم نوعين احدهما للكافة وهو الظاهر والعرض ، والآخر قاصر على أنفسهم وعلى تلاميذهم وهو الجوهر العميق . وقد يحدث أحياناً أن تعنى هذه الجماعات الفلسفية بالشؤون العامة فتطعن في النظم القائمة من سياسية ودينية وحينئذ تتخذ صبغة الجمعيات السرية السياسية

والظاهر أن فيثاغورس كان أول من أسس الجمعيات السرية في اليونان على هذا النحو ، وقد ولد في صاموس في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وتجول في مصر حيناً وتلقى خفايا ايزيس ، فلما عاد الى اليونان حاول أن ينشىء جمعية سرية في صاموس ، ولكنه أخفق وسافر الى كروتونا في ايطاليا ، وجمع حوله نفراً من التلاميذ وأسس طائفته المعروفة ، وقسمها الى قسمين : الاول عام لا يتلقى أعضاؤه تعاليم الاستاذ الخفية ولا يتمتعون بالاتصال به والمناقشة معه الا بعد تجربة تطول الى خمسة أعوام ، والثاني خاص يتكون من التلاميذ الحقيقيين الذين تكشف لهم كل تعاليم الاستاذ الخفية . وقد بدأ فيثاغورس دعوته بواسطة الصور والرموز والتعاليم الهندسية التي تلقاها في مصر ، ثم انتهى الى البحث في أصل الروح وطبيعة الاله الذي يمثل في تعاليمه بفكرة عقل كوني ينتشر في جميع الاشياء . وعلى مثل فيثاغورس وطائفته أنشئت بعض النظم السرية الغربية مثل جمعيات «البناء الحر» الاولى إذ يقال ان نظريات فيثاغورس الهندسية كانت تمتزج بأصولها وتعاليمها

وأما الغاية الثانية أعني غاية الهدم وتحقيق أهواء السياسة فكانت النزعة الغالبة في الجمعيات السرية في القرون الوسطى والعصر الحديث، ولتحقيقها قامت اعظم واقوى الجمعيات السرية ، واحتشدت جيوش الدعاة ، واضطرمت أروع المعارك الخفية . ولما كان هذا النوع من الجمعيات السرية هو الذي يؤثر حقاً في سير الحوادث ومصائر المجتمعات والامم فقد آثرناه بالعناية والبحث . وسنرى فيما يلي من صحف هذا الكتاب مدى الادوار والثورات السياسية والاجتماعية التي قامت بها الجمعيات السرية المحدثة ، وهي أدوار وثورات كثيراً ما تقصر عن أدائها وإحداثها الجيوش الجرارة والدول الشامخة

الكتاب الاول



الثورة على الاسلام

والحركات الثورية ، والجمعيات السرية التي قامت لهدمه

تمهيد

عانى الاسلام عسف المبادىء والحركات الثورية منذ نشأته الاولى ، وتسربت هذه النزعة الثورية الى المجتمع الاسلامي منذ طفولته ، فما كاد يبلغ أشده حتى دهمته ريح عاتية من الفورات والاهواء المتباينة مزقت وحدته باسم تأويلات جديدة ، ومبادىء مستحدثة ، وتشعبت المذاهب والتعاليم الروحية تبعاً لتشعب الاطماع والغايات السياسية ودعاوي الفرق والاسر المختلفة

وقد كان لهذه الريح الثورية أثر عميق في مصائر الاسلام ومصائر الدول الاسلامية معاً ، ذلك لان النظم الروحية والسلطة الزمنية نشأتا في المجتمع الاسلامي ممتزجتين مجتمعتين فكان من أثر ذلك ان الخروج على احداهما كان دائماً يستلزم الخروج على الاخرى ، وهدم احداهما يسفر بطبيعته عن هدم الاخرى ، بل ان معظم الدول الاسلامية لم يقم الا وراء دعوة دينية يدعو اليها المتغلب بادىء بدء ، أو مزاعم يسند اليها دعواه ، ترجع في معظمها الى حجج دينية ، ثم يوطد أسس دولته السياسية على أسس الحجج والمزاعم الروحية . وعلى هذا النحو قامت الدولتان الاموية والعباسية في المشرق ، وقامت دول الشيعة في أفريقية ومصر ، ودول الادارسة والموحدين في المغرب

ولعل التاريخ الاسلامي لا يعرف مذهباً ثورياً لا يستند الى مذهب روحي ، أو حركة ثورية عامة لا ترجع الى الدين . كانت المذاهب والحركات الثورية تحارب السلطة السياسية وما تستند اليه من التعاليم والمبادىء الروحية معاً ، وكان لمعظمها خطط للبناء تضعها الى جانب خطط الهدم ، بيد ان منها ، كما سنرى ، حركات لم تعن الا بهدم المجتمع الاسلامي وتعاليمه الدينية والاخلاقية الاولى ، واستبدالها بتعاليم اباحية في الغالب ، وهذه الحركات الثورية الهادمة التي بلغت ذروتها بانفجار القرامطة في القرن العاشر الميلادي هي التي هزت أسس المجتمع الاسلامي الى الاعماق ، وصدعت من سلطانه السياسي ، وأصابته في عقليته وخلاله ، وعجلت في النهاية بتفككه واضمحلاله

كذلك قلما نجد في المجتمع الاسلامي مذهباً أو دعوة الى تغيير النظم ، دينية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، الا استندت الى القوة والعنف وقامت بحد السيف ، فمذاهب الهدم الاسلامية كلها ثورية محضة كالاشتراكية الثورية والشيوعية واللاحكومية وغيرها من مذاهب الهدم الحديثة التي لا ترى الوصول الى غاياتها الهدامة بالتطور ولا تعرف سوى العنف وسيلة لذلك

وترجع معظم الحركات الثورية الاسلامية الى أصل تاريخي واحد ، وتجتمع حول مبدأ سياسي واحد ، هو ديني في نفس الوقت . فأما وحدة الاصل التاريخي فهو انها نشأت في معترك الخلاف الذي اضطرم بين زعماء الاسلام الاولين حول مسألة السلطان والحكم ، وترعرعت في مهاد الحوادث الدموية التي أثارها النزاع بين علي بن ابي طالب الخليفة الرابع ، ومنافسه القوي معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الاموية بالمشرق . وقد ظهرت بوادر هذا الخلاف أثناء حياة النبي العربي ذاته ، ولم يحل دون انفجارها وقتئذ الا بأس قريش ومنعتها . فلما توفي النبي انفجر بركان الخلاف من كل ناحية ، واضطر ابو بكر الخليفة الاول أن يقضي شطراً من عهد خلافته القصير في محاربة الخارجين والمرتدين . واستطاع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بحزمه وعزمه أن يتقي انفجار العاصفة حيناً ، بيد أنه ذهب ضحية الاهواء والاطماع التي تضطرم من حوله . كذلك قتل خلفه عثمان ، ولعله كان أشد الخلفاء الراشدين استئثاراً بالحكم ، وأحرصهم على توزيع السيادة بين عصبته وأنصاره ، وأقلهم عناية باتقاء عوامل الشقاق والغيرة . فلما كانت خلافة علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين تمخضت عناصر الخلاف والتنافس التي لبثت منذ وفاة النبي تجيش في صدور الناقمين والطامعين عن أول حركة ثورية في الاسلام ، فكانت منشأ كل الحركات الثورية التي اجتاحت المجتمع الاسلامي في مختلف العصور والاقطار

وأما وحدة المبدأ الذي تجتمع حوله هذه الحركات الثورية فترجع الى أن معظمها قام حول مسألة الامامة او الخلافة ، أو بعبارة أخرى حول المبدأ الذي يستند اليه السلطان أو الحاكم السياسي في تولي الرياسة والملك والاستئثار بالسلطتين الروحية والزمنية . وقد كانت الوجهة الدينية لهذا المبدأ مصدر الجدل المستفيض والتأويلات الجمة التي كانت تنتحلها وترجع اليها الطوائف الثورية الاسلامية في مختلف العصور ، تأييداً لخروجها على السلطة او الاسرة القائمة وعلى ما تستند اليه من تعاليم ومبادىء

وقد عرف المجتمع الاسلامي حركتين ثوريتين عظيمتين في دعوة الخوارج ودعوة الشيعة ، وكان انفجار هاتين الدعوتين فاتحة لسلسلة طويلة من الحركات الثورية ، ومهداً لطائفة كبيرة من الفرق السرية التي قامت بأدوار هامة في التاريخ الاسلامي

بيد أننا لن نعنى هنا بتاريخ هذه الحركات والفرق وتحليل مبادئها الا من حيث أنها ثورية أو سرية

الفصل الاول

ثورة الخوارج

(١) اصل الخوارج . مقتل عثمان حجة الخصومة . خروج معاوية بن أبي سفيان . خدعة صفين والاتفاق على التحكيم . غدر ابن العاص . الخوارج على علي (٢) اعلان الخوارج للثورة . موقعة النهراوان وهزيمة الخوارج (٣) فورات الخوارج . تقريرهم مقتل الزعماء . مقتل علي ونجاة معاوية وعمرو . نزول الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية (٤) محاربة الخوارج لقوات معاوية . مطاردة عمال معاوية لهم . الخوارج وابن الزبير . انقسامهم الى عدة فرق (٥) الحرب بين الازارقة وابن الزبير . مطاردة المهلب للخوارج . الخوارج النجدية. عودة المهلب الى حرب الخوارج . ثورة الخوارج في الموصل وأذربيجان . مسير الحجاج الى قتالهم . هزيمتهم في الانبار . شبيب زعيم الخوارج (٦) ثورات الخوارج في عهد بني العباس . الخوارج في المغرب (٧) مبادىء الخوارج الدينية والسياسية . بسالة الخوارج . اثر ثورتهم في مصائر الاسلام

١ ـ قلما يعرض تاريخ الحركات الثورية طائفة تضارع في الغيرة على الدعوة ، والاخلاص للمبدأ ، والتفاني في تحقيق الغاية ، كطائفة الخوارج الاسلامية . لم يكن الخوارج فرقة سرية بل نشأوا في وضح النهار وعملوا في الضياء ، ودعوا الى تعاليمهم في علانية . وقد نشأت حركتهم منذ مقتل عثمان ثالث الخلفاء ، وهو حادث ما زال يحوطه كثير من الغموض والريب . والظاهر ان الخوارج وان لم يجاهروا وقتئذ بمبدئهم السياسي قد اشتركوا في تدبير هـذه الجريمة ، أو على الاقل حرضوا على ارتكابها ، ثم كانوا بعد ذلك عوناً لعلي بن أبي طالب في تولي الخلافة . وهذا ما يفسره وقوفهم منذ البداية الى جانب علي في محاربة انصار الخليفة المقتول والمطالبين بثأره ، ثم خروجهم عليه بعد ذلك حينما رضي بمهادنة خصومه ، وقبل فكرة التحكيم حسما للخلاف بينه وبينهم . وهنا اتخذت حركة الخوارج صبغتها الثورية

وأصل هذا الخلاف يرجع الى أنه لما قتل عثمان وتولى علي الخلافة ثار عليه فريق من خصومه وعلى رأسهم بعض الزعماء المشهورين مثل طلحة ابن عبيد الله والزبير ابن العوام ومعهم السيدة عائشة زوج النبي ، وقد نهضوا في الحقيقة لاسقاط علي ولـكنهم انتحلوا لخروجهم مسألة المطالبة بدم عثمان ومعاقبة قاتليه . وقد كان هذا إحراجاً لعلي وتحدياً له في الواقع لانه نال الخلافة بمؤازرة الجناة وأنصارهم ، بيد أنه حاول ان يهدىء الخارجين بالتبرىء من دم عثمان ولعن قاتليه في خطبه وأحاديثه ،

فلم يقنع الثوار منه بذلك واستعدوا لمحاربته ، والتقى الفريقان بجوار البصرة، ونشبت بينهما موقعة تعرف بموقعة الجمل (سنة ٣٦ هـ) هزم فيها الثوار وقتل طلحة والزبير

وكان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام منذ خلافة ابن عمه عثمان . وكان علي حينما ولي الخلافة قد أراد ان ينزع كل ولاة عثمان من الحكم وأن يولي مكانهم نفراً من صحبه ، فبعث الى الشام عامله سهل بن حنيف فرده أهلها ، وأظهر معاوية الخلاف ، ووجد في المطالبة بدم عثمان حجة يستر بها مطامعه في الخلافة والملك ، فاستأنف دعوة طلحة والزبير ، وحاول علي أن يحسم الخلاف بينه وبين خصمه القوي بالمفاوضة والمكاتبة ، فلم يجبه معاوية الى السلم ، بل تجهز للحرب ، وتلاقيا بصفين ، ونشبت بينهما معركة هائلة كادت تسحق فيها جيوش الشام لولا ان لجأ حليف معاوية عمرو بن العاص الى حيلته المشهورة في الاشارة على أهل الشام برفع المصاحف فوق الرماح ، ودعوة اهل العراق الى حقن الدماء وتحكيم القرآن في حسم الخلاف . وكانت هذه حيلة صائبة أوقعت التفرق بين انصار علي إذ رأى بعضهم قبول الدعوة وعارض البعض الآخر . وكان علي يؤثر رفضها لانه أدرك أنها خدعة دبرها خصومه لاجتناب الهزيمة واغتنام الوقت ، ولكنه اضطر الى قبولها خشية التمرد ، ولان القبول كان رأي الاغلبية . وكان أشد الخارجين عليه عندئذ وأكثرهم إلحافاً في قبول التحكيم جماعة من الزعماء منهم الاشعث بن قيس ، ومسعود بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي (١) حين قالوا : القوم يدعوننا الى كتاب الله وأنت تدعونا الى السيف ، وأولئك هم الفريق الاول من الخوارج

ثم اختار أهل العراق أبا موسى الاشعري حكماً لهم ، واختار أهل الشام عمرو ابن العاص ، وكتب الفريقان وثيقة بالتحكيم نص فيها على تفويض الحكمين بتطبيق نصوص القرآن والسنة وعلى وقف الحرب والقتال حتى يتم التحكيم في ظرف أشهر من عقد الهدنة . وكان ذلك في صفر سنة ٣٧ هـ

وفي رمضان سنة ٣٧ هـ اجتمع الحكمان بحصن دومة الجندل باحدى قرى الشام ومع كل منهما اربعمائة رجل من الفريق الذي يمثله . وهنا لجأ عمرو الى الدهاء والخديعة مرة أخرى ، فاتفق مع أبي موسى على أن يخلعا علياً ومعاوية وأن يكون الامر بعد خلعهما للمسلمين فيختاروا للخلافة من شاءوا ، ودفع أبا موسى الى البدء

(١) هكذا وردت اسماؤهم في الملل والنحل للشهرستاني ، ولكن ابن خلدون يسميهم هكذا : — يزيد بن الحصين وأحياناً زيد بن الحصين ، ومسعر بن فدك

باعلان هـذا القرار ، ثم نهض في اثره ووافقه على خلع علي ولـكنه نادى بولاية معاوية « لانه ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه » فبويع معاوية بالخلافة على أثر ذلك واشتد الاضطراب والتفرق بين أنصار علي

وكان نفر من اهل العراق ممن غضبوا لفكرة التحكيم قد طلبوا الى علي أن يرجع عن خطئه وأن يمضي في الحرب ، وأوفدوا اليه من زعمائهم رجلين هما زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي فهدداه بالخروج والحرب اذا أصر على قبول التحكيم فاحتج علي بالعهد الذي أبرمه وعندئذ أعلن المعارضون خروجهم عليه ، واولئك هم الفريق الثاني من الخوارج

٢ ـ ثم اجتمع الخوارج سواء من قبل التحكيم منهم بادىء بدء ومن لم يقبله واختاروا لزعامتهم عبد الله بن وهب الراسي فكان اول رؤسائهم . واستقر امرهم على مغادرة الكوفة واعلان الثورة في بعض الانحاء انكاراً لهذه « البدعة المضلة والاحكام الجائرة » . وكتبوا الى انصارهم في البصرة يستحثونهم على اللحاق بهم . ثم اتجهوا نحو الشمال اجتناباً لقتال عامل عليّ على المدائن واستقروا بظاهر قرية على دجلة تعرف « بالنهراوان » وتبعهم خوارج البصرة بقيادة مسعود بن فدكي بعد ان نشبت بينهم وبين قوة من اصحاب علي موقعة صغيرة . وخشي علي عواقب ذلك الانقسام الجديد في صفوفه فحاول ان يلاطف الخارجين وان يقنعهم بخطئهم وارسل ابن عمه عبد الله بن عباس الى مفاوضتهم ومناظرتهم ثم ذهب الى لقائهم بنفسه في حروراء قبل ان يسيروا نحو الشمال واستطاع ان يقنع نفراً منهم بالعدول عن ثورتهم . وسار الباقون الى النهراوان كما ذكرنا واخذوا في تنظيم جموعهم والاستعداد للحرب . فعاد علي الى الكوفة معتزماً قتال الخوارج منكراً شأن الحكمين وخطب الناس : « ألا ان هذين الحكمين نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد » . غير انه رأى ان ينتهي من قتال منافسه بادىء بدء وبذل لدى الخوارج مجهوداً اخيراً واستحثهم على ان يعودوا الى صفوفه لمقاتلة اهل الشأم ولـكنهم أصروا على الخلاف والثورة . فاخذ عندئذ في الاهبة لمحاربة معاوية وحشد كل قواته فبلغت نحو سبعين الف مقاتل . وبينما هو يعتزم السير الى الشأم اذ بلغه ان خوارج البصرة قتلوا واحداً من صحابة النبي هو عبد الله بن جناب وزوجه ، وانهم يعيثون فساداً في تلك الانحاء ويقتلون النساء والاطفال فبعث اليهم رسولا ينهاهم وينذرهم فقتلوه ، فعندئذ استقر رأيه ورأي اصحابه على مقاتلة الخوارج اولا فسار نحو الشمال ولقيهم وانذرهم بسوء العاقبة في

خطاب لخص فيه أوجه الخلاف بينه وبين خصومه في قوله : « ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن واني اعرف بهم منكم ، قد عرفتهم أطفالا وعرفتهم رجالا فهم شر رجال وشر أطفال وهم اهل المكر والغدر وانكم ان فارقتموني ورأيي جانبتم الخير والحزم فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكمت ، فلما ان فعلت شرطت واستوثقت وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن منه فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة وعملا بالهوى فنفذنا أمرهما » فلم يصغ الثائرون الى نصحه . واشتبك القتال بين الفريقين ونادت الخوارج « لا حكم الا الله . الرواح الرواح الى الجنة » وكانت قواتهم لا تتجاوز اربعة آلاف ، انشق منها بدء القتال نحو النصف ، واقتتل الباقون قتالا رائعاً فمزقوا في الحال شر ممزق وقتل من زعمائهم عبد الله بن وهب وزيد بن حصن وحرقوص بن زهير ، ولم يبق منهم إلا أفراد قلائل فروا الى مختلف الانحاء (سنة ٣٨ هـ)

وعاد علي الى الكوفة ليتم اهبته لقتال معاوية ، ولكنه لقي من جنده إعراضاً ونفوراً وانفض عنه وجوه اصحابه وقواده فسكت على مضض ولبث يرقب الحوادث

٣ — لم تكن موقعة النهراوان قبراً للخوارج ، فان أعراض الثورة ما لبثت أن شملت معظم النواحي ، وخرج كثير من الزعماء الذين اعتنقوا دعوة الخوارج في جموع صغيرة ونشبت بينهم وبين قوات علي عدة معارك . وكان من أخطر هذه الثورات المحلية قيام زعيم من تميم يدعى ابو مريم السعدي خرج في قوة صغيرة من اصحابه وزحف بها على الكوفة ذاتها ودعا علياً الى بيعته فبعث اليه علي بالجند فهزم ابو مريم ومزق أصحابه بعد قتال رائع ، وقيام زعيم يدعى الخريت بن راشد سار من الكوفة معلناً الثورة وأخذ يعيث في الانحاء المجاورة لها فساداً فأرسل اليه علي جنده ونشبت بينهما موقعة ارتحل خريت على اثرها الى الاهواز وأعلن دعوته هنالك

وفي ذلك الحين دبر الخوارج أول مؤامرة منظمة لقتل الرؤساء المخالفين لهم في الرأي . فاجتمع بعضهم سراً في مكة أثناء الحج ، وقرروا قتل امير المؤمنين علي ابن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص . وتعهد عبد الرحمن ابن ملجم المرادي بقتل علي ، والحجاج بن عبد الله الصريمي بقتل معاوية ، وعمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو على ان يكون التنفيذ في وقت واحد هو يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ. فسار ابن ملجم الى الكوفة خفية وتأهب هنالك لتنفيذ الجريمة بمعاونة حسناء من الخوارج هام بها وتزوج منها ، واثنين من شيعته يدعيان شبيب ووردان . وفي

ليلة التنفيذ سار مع صاحبيه الى المسجد ، فلما خرج علي ونادى للصلاة انقضوا عليه وضربه شبيب بسيفه فأخطأه ، وضربه ابن ملجم بسيفه على مقدمة رأسه صائحاً « الحكم لله لا لك يا علي ولا لاصحابك » فجرحه جرحاً بالغاً توفي بعده بيومين . وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه ، وفقد الاسلام بمقتل علي زعيماً من أكبر زعمائه ، وطويت صفحة من أمجد صحف الفروسية

. أما الحجاج بن الصريمي وعمرو بن بكر فسار أولهما الى الشام وكمن لمعاوية في الليلة المتفق عليها وطعنه بسيفه فأصابه في أعلى الساق بجرح يسير برىء منه . وسار ثانيهما الى مصر وكان عمرو قد دخلها منذ بيعة معاوية ، وكمن له ليلة التنفيذ ، ولكن عمراً لم يخرج الى الصلاة في تلك الليلة لمرض أصابه فقتل ابن بكر رسوله خارجة الذي أنابه للصلاة عنه معتقداً أنه عمرو ، ولما مثل أمام عمرو قال : « أردت عمراً وأراد الله خارجة »

ولما قتل أمير المؤمنين علي بن ابي طالب بايع أصحابه ابنه الحسن بالخلافة وبويع بها في نفس الوقت معاوية بن ابي سفيان ولقب بأمير المؤمنين وكان قد بويع بها كما قدمنا منذ اجتماع الحكمين . ثم زحف في اهل الشام لقتال الحسن . وسار الحسن الى لقائه في اهل العراق غير أنه ما كاد يبلغ المدائن حتى ثار عليه الجند وانفض معظمهم عنه فاضطر الى مفاوضة معاوية في الصلح ونزل اليه عن الخلافة على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغاً آخر وخراج دارابجرد من فارس وشروط أخرى . ثم ارتحل الى المدينـة واستتب الامر لمعاوية واتفق الجماعة على بيعته ماعدا الخوارج ، ثم الشيعة الذين اجتمعوا في مكة حول الحسين بن علي . وسنعنى بأخبار الشيعة وتحليل مبادئهم بعد أن ننتهي من اخبار الخوارج ودرس تعاليمهم

٤ ــ خرج معاوية ظافراً من المعركة ، وتبوأ عرش الخلافة في دمشق ، فوضع أسس تلك الدولة الزاهرة التي حملت لواء الاسلام الى معظم أمم المشرق ، وسواد أقطار الدولة الرومانية ، وافتتحت مملكة القوط (اسبانيا) وتوغلت في فرنسا حتى نهر اللوار

بيد ان الثورة الداخلية لبثت تضطرم في العراق واعتزم الخوارج حرب معاوية بعد علي ، ففي سنة ٤١ خرج زعيمهم فروة بن نوفل الاشجعي في شهرزور وزحف على الكوفة ودخلها بعد قتال رائع ، واستمرت الحرب بين الخوارج وأهل الكوفة أشهراً حتى قدم عامل معاوية على الكوفة وهو المغيرة بن شعبة ، وكان صارماً شديد

الوطأة فطارد الخوارج حتى شهرزور وقتل زعيمهم فروة ، وكان كلما انتهى من أمر جماعة منهم خرجت عليه أخرى بقيادة زعيم آخر ، غير انه جد في مطاردتهم واستعمل الغدر والدس في قتالهم والقبض على زعمائهم . ثم خلفه زياد في حكومة العراق فاشتد أيضاً في مطاردة الخوارج وبث جنده لقتالهم في كل ناحية ، وشدد على القبائل بمطاردتهم وتوعد بالويل والدمار كل من يعاونهم أو يأويهم . وفي عهد خلفه عبد الرحمن ابن عبد الله خرج جماعة من الزعماء الذين كان المغيرة قد قبض عليهم وسجنهم وساروا الى أنقيا فبعث اليهم بالجند وقاتلهم حتى هزموا . ثم جاء عبد الله بن زياد فنشط الى مطاردتهم وتشريدهم ، وألقى معظم زعمائهم في غيابة السجن ، وخرج عليه مرداس ابن أدية ، وهو من عظماء الخوارج وثقات فقهائهم في الاهواز ، فبعث لقتاله ألفي رجل فهزمهم الخوارج ، فارسل اليهم قوة كبيرة لحقت بهم بتوج ودهمتهم أثناء الصلاة ، فيقال ان الخوارج لبثوا على حالهم من الركوع والسجود حتى قتلهم جندالعراق أجمعين

واستمرت ثورة الخوارج في أنحاء البصرة والكوفة حيناً حتى خرج عبد الله ابن الزبير في مكة على يزيد بن معاوية ثاني خلفاء بني أمية ، فاعتزم الخوارج السير الى مكة لنصرة ابن الزبير وقاتلوا معه جند يزيد حيناً ، فلما توفي يزيد اختلف الخوارج مع ابن الزبير على بعض الاصول الكلامية ، وجاهر ابن الزبير بأنه ولي عثمان وعلي فانفض الخوارج عنه ، ثم افترقوا هم فيما بين أنفسهم الى عدة فرق ، الازارقة أصحاب نافع بن الازرق ، والنجدية أصحاب نجدة بن عامر ، والاباضية أصحاب عبد الله بن أباض المري ، والصفرية أصحاب عبد الله بن صفار السعدي . ووثبت من هذه شعب أخرى أفاض في ذكرها علماء الكلام ، بيد أنها لم تكن ذات شأن يذكر . وسنعنى بمبادىء هذه الفرق عند كلامنا على مبادىء الخوارج

٥ — وكان الازارقة أمنع الفرق الجديدة وأشدها بأساً ، وكان أنصارهم في اقليم البصرة فساروا الى الاهواز عقب خلافهم مع ابن الزبير ، وكان ابن الزبير قد تغلب على العراق وبعث اليه بعماله ، فنشبت الحرب بين عمال ابن الزبير والازارقة (سنة ٦٥ هـ) ونشبت بين الفريقين عدة معارك قتل فيها ابن الازرق زعيم الخوارج ، وقائد العراقيين ، فاختار الخوارج عبد الله ابن الماخور فقاتل حتى قتل أيضاً ، فولوا امارتهم ابنه عبيد الله فقاتل حتى هزم العراقيين ثم زحف في قواته على البصرة ، فعهد ابن الزبير عندئذ الى المهلب بن أبي صفرة ، بقتال الخوارج وكان في طريقه الى خراسان التي عينه ابن الزبير لولايتها ، فوقف بالبصرة وحشد الجند ، وكان حازماً صارماً

فاشتبك مع الخوارج في عدة معارك طاحنة وهزمت جموعه في المبدأ ولـكنه ثابر على القتال حتى عاوده النصر ، فارتد الخوارج بفلولهم الى كرمان واصفهان وتغلبوا على هاتيك الانحاء ، ولبثوا حيناً يقاتلون عمال فارس ويغيرون على شمال العراق ويعيثون فساداً في مدنه

فلما كانت امارة زعيمهم قطري بن الفجاءة عادوا الى الاهواز ، وعاد المهلب الى قتالهم ، ونشبت بينهما في سولاف معارك شديدة مدى ثمانية أشهر أبدى الفريقان فيها كثيراً من ضروب الشجاعة والجلد (سنة ٦٨ هـ .) ، وكان عبد الملك بن مروان قد استعاد العراق وبعث عامله عليها جيشاً لقتال الخوارج فهزموه على حدود فارس ، فبعث المهلب بن أبي صفرة ــ وكان قد دخل في خدمته ــ مع عامله الى قتالهم فانهزم الخوارج في الاهواز شر هزيمة وطاردهم جنود عبد الملك قتلا وأسراً فتفرقت فلولهم فيما وراء العراق (سنة ٧٢ هـ)

وأما الخوارج النجدية فساروا الى اليمامة واتخذوها قاعدة للاغارة على احياء اليمن والحجاز والبحرين ، ثم فاوض عبد الملك زعيمهم نجدة بن عامر في الطاعة على أن يوليه حكم اليمامة وجرت بينهما مكاتبات اتهمه انصاره على أثرها بالمروق والخيانة فوثب عليه أحدهم وهو أبو فديك فقتله وولاه الخوارج الامارة مكانه ، ثم سار الى البحرين فامتلكها ، فارسل اليهم عبد الملك جيشاً كثيفاً لقتالهم فانهزم الخوارج وقتل زعيمهم وتفرقوا في كل ناحية

ولما ولي الحجاج العراق بعث المهلب لمطاردة الخوارج في فارس فحاربهم في عدة معارك كانت سجالا بينهما ، ولبث الحجاج طول ولايته يبعث البعوث الى قتال الخوارج الذين لم تنقطع فوراتهم لحظة عن فارس والعراق ، وكانت اخطر حركاتهم في ذلك الحين خروج زعيمين منهما هما صالح بن مسرح ، وشبيب بن يزيد ، خرجا بالموصل واستوليا على كثير من نواحيها وهزما عدة حملات جردها الحجاج عليهما قتل ابن مسرح في احداها ، وسار شبيب الى اذربيجان وتحصن بالجبال حيناً ، ثم عاد الى الجنوب فسارت اليه جنود الحجاج بعثة بعد أخرى وهو يهزمها تباعاً حتى اضطر الحجاج أن يسير اليه بنفسه في جنود الشام واقتتل الفريقان في الانبار فهزم الخوارج وارتدوا الى كرمان وغرق أميرهم شبيب وهم يعبرون أحد الانهر فدب الخلاف الى صفوفهم وتفرقوا في مختلف الانحاء

وكان شبيب بن يزيد من أعظم قواد الخوارج وأوفرهم اقداماً وجرأة وأشدهم

فروسية ونجدة ، وكان يدعو الى دعوته أولا بالحسنى ويمتنع في كثير من الاحيان عن مطاردة خصومه عقب الهزيمة ، ويتعفف عن دمائهم وهو الذي قال فيه الشاعر :

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريح عاصفة والموج يلتطم

٦ ـ وكانت هذه آخر حركة ثورية كبيرة قام بها الخوارج في القرن الاول . ثم ركدت ريحهم حتى سقطت الدولة الاموية وقامت دولة بني العباس ، فقاموا في عهد هذه الدولة بعدة ثورات صغيرة متقطعة ، أهمها خروجهم في عمان في زمن المنصور بقيادة أميرهم شيبان بن عبد العزيز وقد وجه المنصور اليهم جيشاً هزمهم وفرقهم . ثم خروجهم في منتصف القرن الثالث الهجري في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبد الله وكان زعيماً شديد البأس كثير الاطماع اجتمع اليه جمع كثيف من الاكراد والاعراب فرفع لواء الثورة وعاث في ولاية الموصل فساداً ثم دخل مدينة الموصل سنة ٢٥٥ هـ واستولى على كثير من أنحاء العراق واشتدت شوكته واستفحل امره ، ثم زحف على مدينة بغداد ذاتها فسير اليـه الخليفة العباسي المعتمد جيشاً ضخماً ونشبت بين الفريقين عدة معارك هائلة ارتد على أثرها مساور نحو الشمال ، بيد انه ظل قابضاً على اعمال الموصل حتى اغتاله احد خصومه في سنة ٢٥٨ هـ فتفرق الخوارج وخمدت ثورتهم ، ولم يظهروا بعد ذلك الا في سنة ٢٧٠ هـ حيث قاموا بعدة مناوشات محلية في ولاية الموصل وطاردهم حكامها فشردوهم ومزقوهم شر ممزق

ولا يذكر التاريخ الاسلامي بعد ذلك أية حركة ثورية خطيرة قام بها الخوارج في المشرق . بيد أن الدعوة الخارجية انتشرت في قبائل البربر بالمغرب في أوائل القرن الثاني وفشت فيها دعوة الاباضية والصفرية ، وقامت منهم دولة صغيرة في تاهرت وخرج زعيم منهم على العبيديين أمراء القيروان وكانت بينهما حروب ثم اضمحلت جماعاتهم في المغرب أيضاً . غير أن الدعوة الخارجية لم تنقطع من جميع الاقطار الاسلامية وان اتخذت من بعد ذلك صبغة كلامية لا تجد من القوة أو العنف ما تستند اليه ، ولا يعتنقها مجتمع سياسي منظم

مذهب الخوارج

٧ ـ مذهب الخوارج سياسي في الاصل نشأ كما رأينـا من الخلاف على مسألة الامامة والخلافة غير أنه لما كانت السلطتان الزمنية والروحية ممتزجتين في الاسلام وهما معاً عنصرا الامامة فان لمذهب الخوارج وجهته الدينية ايضاً

وخلاصة هذا المذهب قبل أن يفترق الخوارج الى أزارقة وغيرهم هو ان الامامة قد تكون في غير قريش ، ويجب ألا ينظر في اختيار الامام إلا لتوافر الكفاية والعدل واجتناب الجور ، فكل من آنس فيه المسلمون هذه الخلال فلهم أن يولوه الامامة ، ومن خرج عليه وجب اعتباره عاصياً ووجب قتاله . وان غير الامام السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله ، كما أنه يجوز ان يكون الامام عبداً أو حراً ، قرشياً أو غيره بل يجوز ألا يكون في العالم امام أصلا اذا لم يدع الامر الى اختياره . وقد خطأ الخوارج علياً في التحكيم كما رأينا وقالوا : لا حكم الا لله ، ولعنوا علياً لانه ترك حكم الله وحكم الرجال،ولانه «قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين وما اغتنم أموالهم ولا سبي ذراريهم ونساءهم » ولعنوا عثمان للاحداث التي أخذوها عليه وأشدها أنه أتلف نسخ القرآن المختلفة.ولما انقسم الخوارج كما قدمنا توسعت الفرق المختلفة في تفسير المذهب فرأى نافع بن الازرق مؤسس فرقة الازارقة البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم وتخليدهم في النار ، وقتل أطفال المخالفين والنساء ، واسقاط الرجم عن الزاني ، واسقاط حق القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع اثباته على قاذف المحصنات من النساء ، وتكفير من يرتكب احدى الكبائر . وقال النجدية : ليس على الناس أن يتخذوا اماماً انما عليهم ان يتعاطوا الحق بينهم،ومن زنى وشرب وسرق غير مصر فهو غير مشرك . وقال غيرهم من الفرق الخارجة بأحكام وقياسات أخرى وهي كلامية محضة لا تدخل في موضوعنا

هذه هي أهم مبادىء الخوارج السياسية والدينية بل الاجتماعية . وانا لندهش في الواقع لطرافة الناحية السياسية لهذه المبادىء وعراقتها في الحريةوالديموقراطية ، يبحث الخوارج عن امام له من الخلال ما يستطيع معه أن يدير شؤون المسلمين بانصاف ونزاهة ، ويخولون للمسلمين أن يبحثوا عنه في أية قبيلة أو بيئة ، ولا يقصرون هذا الاختيار على أسرة أو بيت معين مهما سما اصله وحسبه . والخوارج أشد الفرق الاسلامية الثورية معارضة لقيام الاسر والحكم الموروث ، وأشدها مقاومة للملك الجائر ، وهذا هو عماد النظرية الخارجية وفيه تجتمع كل فرق المذهب . وقد لاقت الشعوب الاسلامية في جميع أدوار تاريخها من بطش الاسر وعسف الحكم الموروث ما يدل على ان الخوارج كانوا في صوغ مذهبهم السياسي ابعد الفرق الاسلامية نظراً في ادراك مطامع الاسر والمتغلبين من أصحاب العهد الموروث ، وأحسنها تقديراً للنزعات والاهواء البشرية ، وأوفرها احتراماً لرغبات الافراد

وحرياتهم . بل انا لندهش حقاً متى تأملنا رأي الخوارج النجدية في قولهم بان ليس على الناس أن يتخذوا اماماً انما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، أليست هـذه هي احدث النظريات الثورية المتطرفة في شكل الحكومة السياسية ؟ انها « اللاحكومية » (الفوضوية) بذاتها ، التي يرفعها دعاتها المعاصرون فوق النظم البرلمانية والاشتراكية والشيوعيـة ، أفليس من الطرافة الحقة والابتكار المدهش أن يدعو الخوارج المسلمون منذ ثلاثة عشر قرناً الى نظام هو أحدث ما يدعى اليه اليوم من أساليب تنظيم المجتمع ؟

كان الخوارج دعاة هذه المثل السياسية ، يخلصون لها أشد الاخلاص ، ويذهبون في تأييدها الى أقصى حدود التطرف ، ويشهرون الحرب على كل حكومة لا تحقق مثلهم العليا في الحكم والزهد والورع ، وقلما يذكر التاريخ حركة ثورية استطال عنفها وجهادها في سبيل دعوتها كما استطالت حركة الخوارج ، فقد لبث الخوارج يحاربون الحكومات الاسلامية القائمة زهاء قرنين ، وكانوا في كل حروبهم مثل الاقدام والجرأة والمخاطرة ، ولسنا نبالغ اذا قلنا ان الخوارج أشجع جند عرفهم تاريخ الاسلام ، وأشدهم جلداً وبسالة ، وهذا ما شهد به أعداء الخوارج أنفسهم في مواطن كثيرة . من ذلك قول أحدهم لعلي بن أبي طالب حينما جرد عليهم حملته الاولى : «انما كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء القوم (الخوارج) مكان كل رجل منهم عشرة » ، وقول أحدهم للمهلب « ما رأيت قط اصبر ولا أيأس من القوم الذين يقاتلونك . . . رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم الا الله » وقد وصفهم المهلب نفسه بأنهم « سباع العرب » وقال في بعض أحاديثه عنهم « كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم » وكان الخوارج دائماً على قلة جيوشهم وأهبتهم رعب جيوش العراق والشأم ، وكثيراً ما لاقوا أعداء يفوقونهم اضعافاً في العدد . مثال ذلك ما يروى من أن شبيب ابن يزيد لاقى في ثلاثين رجلا فقط حبيب بن عبد الرحمن احد قواد الحجاج وهو في ثلاثة آلاف فقال أحد أصحاب حبيب : « لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة لاهلكونا ! » بيد ان الخوارج قد دفعوا غلوهم الى حدود ممقوتة ، وارتكبوا باسم مبادئهم شنيع السفك مثل قتل النساء والاطفال والشيوخ وقتل المسالمين والعزل من خصومهم واستباحة أموالهم ، وهـذه وصمات تشوه حركتهم ، وتثير ظلاماً فوق مثلهم العليا ، وان كان التطرف الممقوت والسفك الاثيم دائماً من ظواهر الحركات الثورية الكبرى

ونلاحظ أخيراً ما كان لثورة الخوارج من أثر عميق في مصائر الاسلام والدول الاسلامية ، فقد استغرقت حروب الخوارج نشاط علي بن أبي طالب ، ومكنت منافسه معاوية بن أبي سفيان من الامتناع والتأهب ، ثم كان قتل ابن ملجم لعلي فصل الخطاب في تنافس الزعيمين وفي قيام الدولة الاموية ، وكان من جهة أخرى عاملا حاسما في انفجار الثورة الشيعية

الفصل الثاني

ثورة الشيعة

(١) أصل الشيعة . معنى الاصطلاح . مذهب الشيعة في الامامة . فرقهم (٢) اختلافهم في مساق الخلافة . الزيدية والاسماعيلية والاثنى عشرية (٣) تنازل الحسن ومقتل الحسين . خروج المختار بن أبي عبيد . خروج بعض أئمة الشيعة ومقتلهم (٤) ظهور دعوة بني العباس . غدر بني العباس بالشيعة

١ ـ لما توفي النبي العربي ثار الخلاف واختلفت كلمة القبائل على مسألة الحكم ، وهدأت ثورة هذا الخلاف حيناً في عهد أبي بكر أول الخلفاء وخلفه عمر ، ولكنها تفاقمت في عهد عثمان ثالث الخلفاء وانتهت بمقتله وخلافة علي بن أبي طالب . وكان لعلي حزب ينادي بخلافته عقب النبي مباشرة ويرى أنه هو وبنوه أحق الناس بها ، بيد أنه لم يكن في المبدأ من القوة بحيث يحول دون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، فلما اشتد ساعده تحققت غايته بتولية علي ثم نهض معاوية يسعى الى نيل الخلافة مستتراً بالثأر لعثمان فاجتمع حول علي كل انصار الشورى ليقاوموا أطماع معاوية وأخذوا يتلمسون من النصوص والوثائق الدينية ما يؤيدون به حق علي وأسرته

هذا الحزب الذي التف حول علي منذ وفاة النبي وساعده على نيل الخلافة وأيده ضد معاوية الى النهاية ثم التف حول بنيه من بعد مقتله هو حزب الشيعة أي الاتباع والصحب . والشيعة في عرف علماء الكلام هم اتباع علي وبنيه . ويقال لهم شيعة اهل البيت . ومن الخطأ ان يقال ان الشيعة انما ظهروا لاول مرة عند انشقاق الخوارج وأنهم سموا كذلك لبقائهم الى جانب علي ، فشيعة علي ظهروا منذ وفاة النبي كما قدمنا ولبثوا يرقبون الحوادث والفرص حتى ولي الخلافة علي ، ومذهبهم جميعاً هو ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ويختار القائم بها بتعيينهم بل هي ركن من أركان الدين لا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، وأن يكون هذا الامام معصوماً من الكبائر والصغائر ، و ان علياً هو الذي عينه النبي للخلافة من بعده . ويؤيدون ذلك بآيات من القرآن يفسرونها طبقاً لرأيهم وأحاديث ينسبونها الى النبي ، ليس من موضوعنا أن نتعرض لبحثها ومناقشتها

والشيعة فرق عدة أهمها الامامية وهم الذين يتبرأون من أبي بكر وعمر ويطعنون في امامتهما لانهما لم يقدما علياً ويبايعاه طبقاً للنصوص التي يقولون بها. ويسمون كذلك لقولهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه في الايمان. والزيدية وهم لا يتبرأون من أبي بكر وعمر ولا يطعنون في حقهما مع قولهم بأن علياً أفضل منهما لكنهم يجيزون امامة المفضول مع وجود الافضل وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين

ومن الشيعة طوائف يسمون الغلاة قالوا بألوهية هؤلاء الائمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الالوهية أو أن الاله حل في ذواتهم البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى. ومنهم من قال ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ. ومن هؤلاء من يقف عند واحد من الائمة لا يتجاوزه الى غيره ويقول انه حي لم يمت الا أنه غائب عن الاعين. ومن ذلك قول الاثنى عشرية ـ نسبة الى الثاني عشر من أئمة الامامية وهو محمد بن الحسن العسكري ـ أنه لم يمت بل اختفى وانه يخرج آخر الزمان فيملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً ويلقبونه المهدي المنتظر الى غير ذلك من النظريات والمزاعم

٢ ـ وقد اختلف الشيعة فيما بينهم في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة (بنت النبي وزوج علي) بالنص عليهم واحداً بعد واحد وهم الامامية. ومنهم من ساقها في ولد فاطمة بالاختيار واشترطوا أن يكون الامام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً وأن يخرج داعياً الى امامته وهم الزيدية، ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه الحسن والحسين (ابنا فاطمة) الى أخيهما محمد بن الحنفية وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاه

فأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه هاشم ثم افترقوا فساقها بعضهم الى اخيه علي ثم الى ابنه الحسن وزعم آخرون ان أبا هاشم أوصى بالامامة الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس واوصى محمد بها الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام، وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله الملقب بالسفاح، وهو اول خلفاء بني العباس، وأوصى السفاح الى أخيه أبي جعفر المنصور ثم انتقلت في ولده بالنص والعهد. وأما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها باعتبار أنها تقوم باختيار الامة لا بالنص فقالوا بامامة علي فابنه الحسن فأخيه الحسين فابنه علي زين العابدين فابنه زيد وهو امام المذهب. وقد خرج زيد بالكوفة داعياً الى الامامة فقتل فقال الزيدية بامامة ابنه يحيى، وسار يحيى الى خراسان داعياً فقتل ايضا بعد ان أوصى بالامامة

الى محمد بن عبد الله من ولد الحسن وهو المعروف بالنفس الزكية الذي خرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وحاربته عساكر المنصور فقتل ، فقال بعض الزيدية ان الامام من بعده هو أخوه ادريس الذي فر الى المغرب الاقصى واختط مدينة فاس وأسس دولة الادارسة وخالفهم آخرون منهم وتشعبت آراؤهم في ذلك . وأما الامامية فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن بالوصية ثم اخيه الحسين فابنه زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق ومن هنا اختلفوا الى فرقتين قالت الاولى بامامة ابنه اسماعيل وهم الاسماعيلية ولقبوه بالامام ، وقالت الاخرى بامامة ابنه موسى الكاظم فابنه علي الرضا فابنه ابو جعفر محمد فابنه علي فابنه محمد الحسن العسكري فابنه محمد المهدي وهو الثاني عشر من هؤلاء الائمة. ولذا سميت هذه الفرقة بالاثنى عشرية . والى هنا تقف بأئمتها وتقول ان خاتمهم وهو محمد المهدي لم يمت وانما اختفى وتغيب حين اعتقل مع أمه ولا يزال مختفياً الى آخر الزمان ثم يخرج فيملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً ويسمونه بالمهدي المنتظر

وأما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسماعيل الامام . ثم ابنه محمد المكتوم وهو أول الائمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون ذا شوكة فيستتر ، فاذا كانت له شوكة ظهر واظهر دعوته ، ثم من بعده الى ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين ثم ابنه عبد الله المهدي الذي فر الى افريقية وقام بدعوته هنالك وملك القيروان وأسس دولة العبيديين ، وأسس بنوه دولة الفاطميين في مصر ، ويسمى هؤلاء الاسماعيلية أيضاً بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام المستور أي الباطن

وقد عنينا بذكر ما تقدم من فرق الشيعة ، وترتيب أئمتهم ، وأنسابهم تمهيداً لما سنذكره من تاريخ هذه الفرق ، بيد انا لن نعنى كما قدمنا بهذا التاريخ الا من حيث ان الفرق ثورية أو سرية

٣ ـ لما قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بايع الشيعة ابنه الحسن بوصية منه ، غير ان بيعة الحسن لم تكن الا صورة وكان مقتل علي نذير الانحلال في صفوف العراقيين فانفض الجند عن الحسن واضطر ان ينزل عن الخلافة لمعاوية كما رأينا فنقم الشيعة منه ذلك والتفوا حول أخيه الحسين الذي لحق بمكة أولا ثم سار الى الكوفة بتحريض أشرافها في نفر قليل من شيعته فلاقاه جند ابن زياد عامل الامويين في كربلاء واقتتل الفريقان فقتل الحسين ومثل بجثته وحمل رأسه الى يزيد بن معاوية وكان ذلك في المحرم سنة ٦١ هـ

ومن ذلك الحين الى الطامعون من الزعماء في ثورة الشيعة سلاحاً يشهرونه وقت الحاجة ، وفي نظرياتهم وتعاليمهم وسيلة لاستهواء الناقمين والبسطاء ، وكان أول من اشتهر بالدعوة الشيعية المختار بن ابي عبيد الثقفي كان خارجياً ثم صار شيعياً ، وقد خرج بالكوفة سنة ٦٦ هـ مطالباً بثأر الحسين وقتال الظلمة واستولى عليها وطارد قتلة الحسين وقتلهم ونادى بامامة محمد بن الحنفية وحرف تعاليم الشيعة الى ما يوافق خططه ومشاريعه وزعم انه يعرف الخفي من العلوم والاسرار وكان يحمل في حروبه كرسياً قديماً غشاه بالديباج وزينه بانواع الزينة وزعم انه من ذخائر علي ابن أبي طالب وانه كالتابوت عند بني اسرائيل . وقويت شوكته بالكوفة حتى سار اليه مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ فقتله ومزق جموعه

ثم تشعبت مبادىء الشيعة ، واختلفت طوائفهم فيمن هو أحق بالامر من أهل البيت وبايعت كل طائفة لصاحبها سراً ، واجتاح سلطان بني أمية كل الاقطار الاسلامية فلاذ الشيعة بالاختفاء ولبثوا يرقبون الفرص للخروج وتأييد دعوتهم بالسيف. فلما أن اعتور الوهن سلطان بني أمية وبدت عليه علائم الانحلال وضعف أمر الولاة في الاقطار البعيدة عن الحكومة المركزية عاد الشيعة الى التحرك فخرج زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ هـ وهو امام فرقة الزيدية كما قدمنا والتف حوله الشيعة فقاتله والي العراق وقتله وفر ابنه يحيى الى خراسان فرفع بها لواء الثورة سنة ١٢٥ هـ فبعث اليه حاكم الولاية بالجند فقتلوه أيضا وانقرض شأن الزيدية . وكانت شيعة محمد بن الحنفية اكثر شيعة اهل البيت وكانوا يرون كما قدمنا ان الامامة من بعده لابنه أبي هشام عبد الله وان أبا هشام أوصى بها الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان من أكبر علماء الشيعة بالعراق وخراسان ، ثم من بعده الى ابنه ابراهيم الملقب بالامام الذي ظهر في خراسان فقبض عليه مروان الثاني وسجنه حتى مات

٤ ـ في ذلك الحين أي حوالي سنة ١٢٩ هـ ظهرت دعوة بني العباس بخراسان وبنو العباس هم أبناء عمومة النبي وقد لبثوا زمنا يتطلعون الى الملك ولما لم تكن لهم عصبية كافية اندمجوا في الحركة الشيعية ووجدوا في التذرع بها وسيلة ناجعة لاستهواء الجموع ، وكانت أول بادرة خطيرة لحركتهم قيام أبي مسلم الخراساني في خراسان بالدعوة الى ابراهيم الامام . فلما توفي ابراهيم زعم بنو العباس انه أوصى بالامامة الى أخيه عبد الله ابي العباس المعروف بالسفاح. واشتدت دعوة أبي مسلم في خراسان وقوي أمره وحارب عمال بني أمية في تلك الانحاء واستولى عليها ، وفي نفس الوقت سار أبو العباس

السفاح الى الكوفة داعياً الى نفسه بعهد من أخيه ابراهيم ، ودخلها وبايعه انصاره بالخلافة ، ثم انبث بنو العباس في نواحي العراق ونزعوها من أيدي عمال بني أمية ، ثم كانت واقعة الزاب المشهورة التي هزمت فيها جيوش السفاح مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية في سنة ١٣٢ هـ وكانت قبراً لملك بني أمية في المشرق

وهكذا استعمل بنو العباس حركة الشيعة في شق طريقهم الى الملك ، وقامت الدولة العباسية أزهر دول الاسلام في المشرق

والواقع أن الشيعية لم تكن في نظر بني العباس الا وسيلة ، فلما ظفروا بغايتهم قلبوا للشيعة ظهر المجن ، وأخذوا في مطاردتهم فزج المنصور الى السجن جماعة من أسرة الحسن بن علي ، وفي سنة ١٤٥ هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بالنفس الزكية في المدينة واستولى عليها فأرسل اليه المنصور جنده فقتلوه وشتتوا انصاره ، وخرج ابراهيم أخو النفس الزكية في البصرة واستولى عليها ، ودعا بالبيعة الى أخيه قبل أن يصل اليه خبر مقتله وبث انصاره في تلك النواحي ، فلما قتل أخوه بالمدينة سار الى الكوفة وسير المنصور جيوشه اليه فهزم اصحابه وقتل . وفي عهد موسى الهادي ظهر في المدينة الحسين بن علي من ولد علي بن أبي طالب ودعا بالامامة لنفسه ، فقاتله جند الهادي وقتلوه ايضاً

وفي عهد الرشيد خرج يحيى بن عبد الله من ولد علي كذلك فسير اليه الرشيد جيشاً كثيفاً ثم قبض عليه وسجنه حتى مات

ونحن نقف عند هذا الحد من ذكر أخبار الخارجين من آل البيت أبناء علي بن أبي طالب على دولة بني العباس ، وان استمر دعاتهم من بعد ذلك في الخروج من وقت لآخر ومقاتلة عمال بني العباس بالنواحي . وقد أوردنا هذه الامثلة لنرى كيف أن بني العباس لم يروا في الدعوة الشيعية الا سلماً لارتقاء الملك . كذلك سوف نوضح كيف أسفر نضال الشيعة الخفي لقلب الدولة العباسية عن انفجار ثوري هائل هز تعاليم الاسلام الى الاعماق ، ودفع الى قبضة الشيعة بمعظم أقطار الدولة العباسية

الفصل الثالث

الحركات الهدامة التي قامت لهدم الاسلام

(١) الاسماعيلية مهد الحركات الهدامة . ميمون بن ديصان وولده عبد الله . برنامج ابن ميمون وجمعيته السرية (٢) انتشار دعوة ابن ميمون . دعوة ذكرويه في العراق . بدء القرامطة . كتابهم ومبادئهم (٣) ثورة القرامطة . الحرب بينهم وبين عامل الكوفة . زحفهم على دمشق وحصارهم اياها . غزوهم لمدن الشام . هزيمتهم وانصرافهم الى اليمن . عودتهم الى الحرب . مقتل ذكرويه (٤) دولة القرامطة في البحرين . زحف الجنابي على البصرة . ابنه ابو طاهر . غزوه البصرة وبناؤه الاحساء . غزوه مكة واقتحامه البيت الحرام ونقله الحجر الاسود . اشتداد بأس القرامطة (٥) خلاف القرامطة مع المعز لدين الله الفاطمي . استيلاؤهم على دمشق . غزوهم مصر وهزيمتهم على يد جوهر . عودهم الى مصر وهزيمتهم ثانية . الحرب الاهلية بين القرامطة . انحلالهم وذهاب دولتهم (٦) تحليل وتأملات

١ ـ كانت مبادىء الغلاة من الشيعة مهداً لدعوة ثورية تمعن في الهدم وترمي الى سحق تعاليم الاسلام كلها سعياً الى تحطيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم. وكان الاسماعيلية أنشط طوائف الشيعة في بث مبادىء الخروج والهدم، واليهم ينتمي أعظم الدعاة الثوريين والمتآمرين . وقد كانت الحركة الشيعية حتى منتصف القرن الثالث تميل الى الاصطباغ بالصبغة الدينية ، ولا تقصد بالهدم من المبادىء الا ما ترى انه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية ، غير أنها تحولت بعد ذلك الى أداة رائعة لهدم جميع المعتقدات الدينية والنظم السياسية وسحق جميع المبادىء الاجتماعية والاخلاقية اسلامية او غيرها

وكان أول من أشهر معول الهدم على هذا النحو الشامل رجل لعله أعظم هدام وأذكى متآمر عرفه التاريخ . ذلك الرجل هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس هو ميمون بن ديصان . وكان ابن ديصان امام جماعة من الملاحدة يزيفون الاحاديث وينشرون في العامة مبادىء الانكار والهدم والاباحة ، ويظهرون في نفس الوقت تشيعاً لآل البيت حجباً لحقيقة مقاصدهم ، وتعلم دعاتهم الشعوذة والكيمياء ، وتفرقوا في الانحاء يدعون كل طائفة بما يناسب ميولها وعقليتها ويظهرون للعامة في ثوب الورع والزهد . ونشأ ابنه عبد الله منذ حداثته في جو

المبادىء الحرة ، والتعاليم الفلسفية والمادية ، وتفقه في جميع الاديان ، وكان شديد الالحاد والانكار ، غير انه ادعى اعتناق مبادىء الشيعة الاسماعيلية وزعم أنه وقف على الاسرار الروحية والعلوم الخفية التي يقول الاسماعيلية ان امامهم اسماعيل علمها لابنه محمد المكتوم . فذاعت دعوته في جنوب فارس حوالي سنة ٢٦٠ هـ (أواخر القرن التاسع من الميلاد) والتف حوله الاسماعيلية ولم يلبث أن قبض على ناصية الحركة الشيعية . ولم تكن دعوته الى امامة اسماعيل وبنيه إلا قناعاً يستتر وراءه ، وقد كانت غايته الحقيقية بث التعاليم المادية فنشط الى إدماجها في مذهب خاص ، ونظم طائفة الباطنية[1] الى جمعية سرية هائلة ذات مراتب سبع . وقد وصف المؤرخ دوزي برنامجه المدهش في هذه النبذة البليغة :

« أن يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة ، وأن يجمع في حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين ـ الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب ، وبين الغلاة من جميع الطوائف وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء عند المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها ، وأن ينشىء حزباً كبيراً مؤتلفاً منظماً يرفع في الوقت المناسب ـ ان لم يكن هو ـ فعلى الاقل أبناءه الى العرش ... هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون ، وهي فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بأسرار القلب البشري . وكانت الوسائل التي اختطها غاية في الخبث والدهاء

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ولكن بين الثنوية[2] والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الاخيرة ، واليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وخفي عقيدته وهي أن الائمة والاديان والاخلاق ليست الاضلالا وسخرية ، وان باقي البشر ـ أو الحمر كما يسميهم ـ ليسوا أهلا لفهم هذه التعاليم . غير أنه تحقيقاً لغايته لم يكن يمقت مؤازرتهم بل كان يلتمسها ويحذر في نفس الوقت من أن يضم الانفس المخلصة الخاشعة الا الى المرتبة الاولى من طائفته . وكان دعاته الذين علموا أن أول ما يجب عليهم هو اخفاء حقيقة

---

(١) قدمنا ان الاسماعيلية يسمون ايضاً بالباطنية لقولهم بالامام المستور والباطن وقيل سموا كذلك لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره اذ يزعمون أن للقرآن ظاهراً هو الالفاظ وباطناً هو المعاني الخفية ، وقيل لانهم كانوا يلقون تعاليمهم سراً ويكتمونها عن العامة (٢) أصحاب مذهب فلسفي ديني يقول بأن كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر أو النور والظلام

عواطفهم واعتناق آراء سامعيهم يظهرون في أثواب مختلفة ويحادثون كل طبقة باللغة التي تروق لها ، يغنمون العامة والبسطاء بأعمال الشعوذة فيعتبرونها معجزات ، او يثيرون طلعتهم بالالغاز والاحاديث الخفية ، ويتحجبون أمام المخلصين بقناع الزهد والفضيلة ، ويتظاهرون أمام الصوفية بأنهم صوفية ويكشفون عما خفي من معاني الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها . . .

« أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة هي أن جمهوراً عظيما من رجال يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم » (١)

وسنرى أن هذا البرنامج الفذ الذي ابتدعه ذكاء ابن ميمون كان مستقى لكثير من الجمعيات السرية الحديثة في صوغ مبادئها وتنظيم صفوفها ، وان فكرته الجوهرية وهي حشد جمهور كبير من الانصار ودفعهم الى العمل لغاية يجهلونها كانت نواة لبرامج هذه الجمعيات وجهودها سواء كانت ترمي الى غايات دينية او اجتماعية او سياسية ، بل سوف نرى أنه نفس البرنامج الذي اتبعه فيسهاوبت في تأنيف « الشعلة البافارية » في القرن الثامن عشر

٢ ــ وماكاد ابن ميمون ينظم جمعيته السرية الهائلة في جنوب فارس حتى بعث بدعاته الى جميع الاقطار يبثون مبادىء التقويض والهدم باسم الدعوة الاسماعيلية والتبشير بالمهدي المنتظر . وكان داعيته في العراق رجلا يسمى الفرج بن عثمان القاشاني ويعرف بذكرويه . فلبث حيناً يبث الدعوة سراً . ثم نهض في سنة ٢٧٨ هـ زجل من صحبه داهية في الاستهواء والدس بمكان يعرف بالنهرين على مقربة من الكوفة يبث الدعوة جهراً ، وكان يدعو الى امام من آل البيت هو المهدي الذي يملأ الارض بعدله ، ويمعن في الزهد والتقشف والعبادة ، ويزعم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون في اليوم فاستجاب له جمع كثير ولقب قرمط (٢) وكان يأخذ من كل واحد من أتباعه ديناراً للامام ، وجعل عليهم اثني عشر نقيباً سماهم الحواريين . ولما علم عامل الناحية بأمره قبض عليه وحبسه ففر من سجنه في ظلام الليل بمساعدة جارية للحاكم واختفى

---

(١) Reinhart Dozy-Essai sur l'Histoire de l'Islamisme P· 260-62

(٢) ان رواية ابن خلدون عن شخص قرمط مضطربة جداً ، ففي مبدأ كلامه عن القرامطة يقرر بوضوح ان قرمطاً والفرج بن عثمان أو ذكرويه شخصين مختلفين (ج ٤ ص ٨٥) بيد أنه بعد ذلك بقليل (ص ٨٦) في روايته عن محاربة عامل الكوفة للقرامطة يشعر بأن ذكرويه هو قرمط . غير أن ابن الاثير واضح في التفريق بين الرجلين (ج ٧ ص ١٤٧)

حيناً فازداد أنصاره فتنة به وقالوا رفع الى السماء . ثم ظهر في ناحية أخرى من الكوفة وعكف على بث دعوته . ثم فر الى الشام ولم يقف له على خبر بعد ذلك . وفشا هذا المذهب الجديد في أنحاء الكوفة ، وأطلق على أنصاره قرامطة نسبة الى لقب داعيتهم قرمط ، وأذاع بعض هؤلاء القرامطة كتاباً نسبوه الى الفرج ابن عثمان داعية المهدي تثبت بعض ما جاء فيه متضمناً لمزاعمهم ومبادئهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدي ، وهو احمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصور له في جسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك زكريا وانك روح القدس ... والقبلة الى بيت المقدس ، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء ، والسورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه ، المتخذ لاوليائه بأوليائه ، قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام ، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي ، اتقوني يا أولي الالباب ، وأنا الذي لا اسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي ، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي وأخلدته في نعمتي ، ومن زل عن أمري ، وكذب رسلي أخلدته مهاناً في عذابي ، وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي ، فأنا الذي لا يتكبر عليَّ جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذللته ... والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز ، والنبيذ حرام ، والخمر حلال ... ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب . ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية » .

وقيل ان قرمطاً كان يرى رأي الازارقة من الخوارج . بيد أنه لا ريب في أن مجتمع القرامطة قام على الشيوع والاباحة ، فقد بدأ قرمط يجمع من أنصاره الضريبة العامة بنسب صغيرة ، ثم بنسب كبيرة وانتهى بأن أقنع سوادهم بمزايا الغاء الملكية الفردية ونظم لهم في كل مكان وجدت فيه طائفة منهم مجتمعاً شيوعياً . بل ذهب الى أشنع حد في هذا الشيوع فقرر شيوع المرأة وغيره من صنوف الاباحة القائمة على استغلال أخس الشهوات والاهواء البشرية وقد وصف دي ساسي دعوته معتمداً على بعض المراجع العربية فيما يأتي :

« لما فاز قرمط بتنفيذ كل ذلك ووافقه عليه كل صحبه أمر الدعاة أن يجمعوا النساء في ليلة معينة بحيث يمكن للرجال أن يستمتعوا بهن في اختلاط وشيوع . وكان يقول ان ذلك هو الكمال وأقصى درجات الصداقة والاخاء . وأحياناً كان

الزوج يقدم زوجه بنفسه الى رفاقه متى سرهم ذلك [١] . ولما رأى قرمط انه صار السيد المتسلط على عقولهم ، ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق أخرى ، فنشر فيهم مذهب التنوية ، واعتنقوا كل تعاليمه بسهولة ، ولم يلبث أن نزع منهم كل دين وأحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، وأباح لهم النهب ، وكل ضروب الرذيلة ، وأمرهم أن يتركوا الصلاة والصوم وغيرها ، وعلمهم أن لا فريضة عليهم ، وان لهم أن ينهبوا أموال خصومهم وأن يسفكوا دماءهم بلا وازع ولا عقاب ، وان معرفة رب الحقيقة الذي دعاهم اليه بملأ لديهم فراغ كل شيء آخر ، وان هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وكل عقاب » [٢]

٣ ــ وسرعان ما تحول القرامطة الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء تقتل خصومها وتستحل أموالهم وأعراضهم ، وتنشر الدمار والرعب فيما حولها من الانحاء . فحشد عامل الكوفة الجند لقتالهم ، وتوالت حملاته عليهم ، وجد في مطاردتهم حتى مزقهم، فهرب ذكرويه الى حي من الاحياء النائية واختفى في القفر في مغار بناه لذلك، وبعث أولاده للدعوة في قبائل الصحراء فتفرقوا مدعين أنهم من ولد اسماعيل الامام. وكانوا ثلاثة : يحيى وحسين وعلي ، فلم ينجح منهم سوى يحيى حيث بايعه بعض القبائل على انه يحيى بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل الامام ولقبوه الشيخ ، والتفوا حوله فزحف اليهم سبك مولى المعتضد في العساكر فهزم وقتل . فسار اليهم عامل الكوفة في قوة كبيرة وهزمهم وأسر جماعة منهم،غير انهم جمعوا فلولهم ونظموا جموعهم وانضم اليهم كثير من الاشقياء ممن رأوا في الاباحة والسفك فرصة لاشباع شهواتهم. وقصد يحيى بجموعه مدينة دمشق (سنة ٢٩٠ هـ) فخرج لقتاله واليها طغج مولى ابن طولون في عساكر مصر والشام ونشبت بينهما عدة معارك دموية قتل فيها يحيى فاجتمع عسكره حول أخيه حسين الذي تلقب بأمير المؤمنين أبي العباس المهدي. ثم كثر جمعه واشتد بأسه بمن انضم اليه من أهل البادية فعاد الى تهديد دمشق وحاصرها ولم ينصرف عنها الا مقابل فدية كبيرة ، ثم عاث في مدن الشأم فغزا حمص وحماه والمعرة وغيرها واستباحها . وسار اليه الخليفة المكتفي بنفسه في جيش كبير فهزمه وارتد في فلوله الى حلب . وارتاع أمراء الشأم ومصر لهذا الخطر الجديد ، فحشدوا

---

(١) اشار ابن الاثير الى واقعة من هذا النوع حيث نسب الى ابي سعيد الجنابي زعيم القرامطة في البحرين انه قدم زوجته الى يحيى بن ذكرويه ليستمتع بها (ج ٧ ص ١٦٣)

(٢) Silvestre de Sacy : Exposé de la Religion des Druses

الجند ، وسار بدر مولى ابن طولون لقتال القرامطة ، فلقيهم وهزمهم مراراً وأثخن فيهم ، ثم لقيهم جند المكتفي ثانية فهزموهم كذلك وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وقبضوا على المهدي وعلى بعض أصحابه وبعثوهم الى المكتفي فأمر بصلبهم وتقطيع أجسادهم. أما علي بن ذكرويه ففر بعد مقتل أخيه يحيي الى اليمن واجتمع اليه القرامطة هنالك ، وتغلب على كثير من مدنه ولبث يعيث بجنده فيها حتى توفي هنالك

ولبث ذكرويه مختفياً في مغاره نحو عشرين سنة ثم اجتمع اليه القرامطة فاستخلف عليهم احمد بن القاسم وأمرهم بطاعته ، ولبث يدير شؤونهم ، وهو محتجب يدعونه السيد ولا يرونه ، والقاسم ينفذ أوامره وخططه ويغير على أحياء العرب قتلا ونهباً ، ويبطش بقوافل الحجاج والتجار ، وينهب أموالهم ويعيث في مدن الشام ، حتى سير المكتفي اليه جنداً كثيفاً بقيادة ابن صوارتكين فأدركوا القرامطة بظاهر حمص ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها القرامطة وجرح ذكرويه وأسر وأرسل الى بغداد حيث توفي من جراحه بعد بضعة أيام (سنة ٢٩٤ هـ)

٤ — وفي ذلك الحين اجتاحت دعوة القرامطة أنحاء البحرين والتف القرامطة حول زعيم لهم يسمى الحسن بن بهرام ويعرف بأبي سعيد الجنابي وكان ابو سعيد داهية صارم العزم فاجتمع اليه جم غفير من القرامطة والاعراب وسار سنة ٢٨٣ يطلب البصرة ، وكان حاكمها احمد الواثقي قدأحاطها بالاسوار المنيعة فبعث قوة للقاء أبي سعد بظاهر البصرة فهزمها ومزقها شر ممزق واحتوى على معسكرها وأحرق الاسرى . وقام بالامر بعده ابنه سليمان ويعرف بأبي الطاهر فقوي أمره وبايعته قبائل كثيرة ، واشتبك مع جيوش الخليفة المقتدر وهزمها مراراً . ثم غزا البصرة سنة سبع وثلاثمائة فاستباحها وخربها . وتجرد بعد ذلك للبطش بقوافل الحجاج والتجار فأوقع بهم مراراً ، وعاث في أحياء العرب ، وبسط سلطانه على الصحراء الوسطى . ثم بنى مدينة الاحساء وجعلها قاعدة ملكه وسار منها الى عمان فاستولى عليها ، ثم زحف نحو الشمال وهزم جيوش المقتدر مراراً وغزا كثيراً من بلاد الجزيرة وفرض عليها الاتاوة

وفي سنة سبع عشرة سار ابو طاهر الى مكة وفتك بالحجاج فتكا ذريعاً ، ونهب اموالهم ، واقتحم البيت الحرام ونزع كسوته وقسمها في أصحابه ، واقتلع الحجر الاسود وانصرف به الى الاحساء وأراد أن يجعل فيها الكعبة بدلا من مكة . فارتاع العالم الاسلامي لذلك الاجتراء وسخط الخليفة الفاطمي في القيروان على القرامطة وأمرهم

برد الحجر الاسود وبذلت لهم حكومة بغداد خمسين الفاً من الذهب لرده فأبوا وزعموا انهم حملوه بوحي من امامهم وانما يردونه بأمره وأمر خليفته : ولم يردوه الا في سنة تسع وثلاثين . ولبث ابو طاهر في البحرين يتردد بالاغارة والنهب على مدن العراق والشأم حتى فرض الاتاوة على معظمها واضطرت حكومة بغداد ذاتها أن تدفع اليه الاتاوة لتنجو من عدوانه . واشتهر أمر القرامطة في أنحاء العالم الاسلامي ، واضطربت شؤون الخلافة العباسية من جراء فتكهم بجيوشها وعيثهم بأقطارها . واستطال ملك ابي طاهر زهاء ثلاثين سنة .فلما توفي ثارت الحرب الاهلية حيناً بين أخيه وولده الاكبر من اجل الملك ، وثارت من بعد ذلك بين أبنائه حتى استقرت الامور لاخيه الحسن الملقب بالاعصم ، فاستطالت دولته وقوي امره وعاد القرامطة في عهده الى غزو أنحاء العراق والعيث فيها ومحاربة عمال الخليفة العباسي في تلك الانحاء حتى كان خلاف الحسن مع امامه الخليفة الفاطمي فعاد القرامطة الى الدعوة لبني العباس

٥ ـ وذلك ان المعز لدين الله الفاطمي استولى على مصر واستولى قائده ابن فلاح على دمشق من يد أميرها السابق ابن طغج . وكانت للقرامطة اتاوة مفروضة على دمشق فطالب الحسن بها كالعادة فامتنع الامير الجديد عن دفعها ، وسخط المعز على الحسن وهدده وحرض شيعة أبي طاهر على الثورة ورد الامر لبنيه ، وعلم الحسن بذلك فقطع الدعوة الفاطمية وكان القرامطة يدعون للفاطميين مذ قامت دولتهم بافريقية ، ويقرون زعامتهم الروحية باعتبارهم أئمة الشيعة القائمين بالامر ، ثم دعا للمطيع العباسي ولبس السواد (شعار بني العباس) وزحف على دمشق وهزم جندها واستولى عليها ، وبعد أن عاث أبو الحسن بجيوشه حيناً في جنوب الشام تأهب لغزو مصر فسار اليها في جيش كثيف من القرامطة ، واجتمع اليه أثناء مسيره جم غفير من البدو والاشقياء وفلول بني الاخشيد ، واقتحم الولايات الشرقية ثم عسكر بجموعه بالقرب من عين شمس فحشد جوهر الصقلي فاتح مصر كل قواته لقتالهم واشتبك الفريقان في عدة معارك مالت كفة الظفر فيها نحو القرامطة بادىء بدء واشتدت الحال على جيوش جوهر ولكن التفرق دب الى معسكر أبي الحسن وغدر به البدو فاستطاع جوهر أن يثخن في القرامطة وأن يردهم نحو الشأم ولولا ذلك لانتزع القرامطة مصر من يد الفاطميين منذ البداية ولقامت لهم فيها دولة ، وكان ذلك سنة ثلاثمائة وستين وللحسن الاعصم في تلك الموقعة شعر منه :

زعمت رجال الغرب اني هبتها   فدمي اذاً ما بينهم مطلول

يا مصر ان لم اسق ارضك من دم   يروي ثراك فلا سقاني النيل

وانتقم المعز من جانبه بعزل الحسن وتولية واحد من ولد أبي طاهر على القرامطة، فنشبت الثورة في البحرين بسبب ذلك واقتحم الثوار الاحساء في غيبة الحسن ، ولكن الخليفة العباسي تدخل في الامر وأصلح بين الفريقين ، ثم حرض البدو على الحسن ورشاهم بالمال والوعود فانفضوا عنه ووثبت جنود الشأم بالقرامطة وهزموهم، ثم جاء المعز الى القاهرة سنة ثلاث وستين وبعث جيوشه الى الشأم فافتتحته ، ولكن الحسن استطاع ان ينظم فلوله أثناء ذلك وأن يجمع حوله جيشاً كثيفاً من القرامطة والبدو والاشقياء وزحف على الشأم ثانية وهزم جيوش المعز ثم سار لغزو مصر مرة أخرى فلقيته جيوش المعز بقيادة ابنه عبد الله بالقرب من بابيس فانهزم القرامطة بعد معركة طاحنة وامعن فيهم جند المعز قتلا وأسراً ، وارتد الحسن الى الاحساء

ولما توفي المعز لدين الله سنة خمس وستين وقع خلاف بين ابنه العزيز وبين افتكين امير دمشق فبعث اليه العزيز جوهر في الجند واستغاث افتكين بالاعصم فوافاه على رأس القرامطة وهزم جند العزيز بادىء بدء ولكن العزيز سار الى القرامطة بنفسه وهزمهم وقبض على افتكين ، وارتد الحسن منهزماً الى الاحساء

بعدئذ أنكر القرامطة على الحسن ما كان من بيعته لبني العباس فخلعوه وقرروا نزع الامر من بني الجنابي جملة ، وقدموا عليهم رجلين من الزعماء هما جعفر واسحق ، فرحل بنو أبي سعيد الى جزيرة أوال ، وقام جعفر واسحق بالامر حيناً ، وقطعا الدعوة العباسية ، ورجعا الى دعوة العلوية ، ثم سارا الى الكوفة فملكاها ، وكانت الجزيرة عندئذ في يد آل بويه فبعث اليهما صمصام الدولة بن بويه الجند من بغداد فانتصر القرامطة بادىء بدء ولكنهم هزموا بعدئذ وطاردهم جند آل بويه حتى القادسية وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً . وضعف أمر القرامطة من ذلك الحين وانفض عنهم الاعراب والبدو

ثم دب الخلاف بين جعفر واسحق وأراد كلاهما الاستئثار بالملك فثارت بين القرامطة حرب داخلية مزقت شملهم ، وانتهز الفرصة متغلب من تلك النواحي يسمى الاصفر التغلبي فوثب بالبحرين وقاتل القرامطة قتالا شديداً وانتزع الاحساء من ايديهم، وقطع دعوتهم ودعا للطائع العباسي ، واستقر الامر له ولبنيه هنالك

٦ ـ وهكذا انحل مجتمع القرامطة بعد أن لبث زهاء قرن ينشر ألوية الدمار والموت فيما حوله من الاقطار الاسلامية ، ويتهدد بالانحلال والفناء كل مجتمع مسلم منظم ، ويعيث بالافساد والهدم في كل تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية التي قامت

عليها السلطة الروحية والزمنية وقام عليها النظام والامن . أن تهدم تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية من أساسها ، بل ان يهدم الايمان الديني عامة ، هي الغاية التي عمل لتحقيقها عبدالله بن ميمون. وقد كان القرامطة أول هيأة ثورية منظمة نشطت لتحقيق مبادىء ابن ميمون بالعنف والسفك ، ولكن القرامطة انحرفوا عن الطريق الاصلية التي رسمها ابن ميمون

كانت فكرة ابن ميمون لا ترتكز على العنف الظاهر ولكن على تعاليم سرية تقصد بالتدريج الى هدم كل المعتقدات الدينية من الاساس ، والى خلق حالة من الفوضى العقلية لا الفوضى المادية ، لان العنف دائماً يستثير العنف، ولكن القرامطة عجلوا الانفجار قبل أوانه وحولوا الطائفة السرية الهائلة قبل أن ينضج تنظيمها وقبل أن تجتاح تعاليمها مجتمعاً هائلا، الى جماعة صغيرة من الخوارج ممن دفعتهم خيبة الامل أو استهوائهم أمل النهوض والكسب الى اعتناق المبادىء الجديدة ، وجعلوا منها حركة محلية قبل أن تصبح حركة شاملة ، واسبغوا عليها من ضروب السفك والعنف مالم تجرؤ على اقراره النفوس الوديعة التي قد تميل الى المبادىء ولا تميل الى السفك فخسروا بذلك كثيراً من الانصار والتلاميذ ، وقنعوا من الغاية الكبيرة الشاملة التي كان يتحراها ابن ميمون بالاناءة والصبر ، ويرمقها عن بعد ، بالملك الصغير ، والثروة العاجلة ، ولم يحسنوا بذلك اخفاء مقاصدهم ، بل تغلبت عليهم الشهوات والاهواء بسرعة ، فكانت ثورتهم لذلك محلية ، وكانت دولتهم صغيرة . صحيح ان القرامطة استطاعوا أن يخوضوا غمار سلسلة من الحروب والوقائع الكبيرة ، وأن يقوموا بكثير من الغزوات والفتوحات ، وأن يفرضوا الاتاوة على معظم مدن العراق والشام بل على بغداد ذاتها : ولكن ذلك يرجع الى حالة الانحلال والفوضى التي آلت اليها الدولة العباسية يومئذ والى استقلال الحكام المحليين واعتمادهم في الدفاع عن ولاياتهم على انفسهم ، كذلك يرجع الى ان القرامطة كانوا بحكم مبادئهم وأطماعهم جنداً مغامرين مستقتلين ، وكان عمادهم في الحروب عصابات جريئة من بدو شجعان مخاطرين يصبرون في تقشفهم وقناعتهم على مكاره الحروب أكثر مما يطيقه جند المدن الذين ذاقوا لذة الدعة والرخاء . لذلك كانت ثورة القرامطة خطراً عظيما على الدولة العباسية ، استغرق الجم من جهودها وأموالها ، في وقت اشتد فيه ساعد الدولة البيزنطية وارهقتها بالغزو والحملات الناهبة ، بل ليس من المبالغة أن نقول ان انفجار القرامطة كان من أهم الاسباب التي مهدت الى سقوط الدولة العباسية

الفصل الرابع

الجمعيات السرية التي أنشئت لهدم الاسلام

(١) انتشار دعوة عبد الله بن ميمون في اليمن وافريقية . عبيد الله المهدي ونسبه . فراره الى افريقية . قيام دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية (٢) انتقال الفاطميين الى مصر . الحاكم بامر الله . غرابة اطواره ونزعاته . استئنافه الدعوة السرية الاسماعيلية . انشاؤه لدار الحكمة . مراتبها السرية . أقوال فون هامار (٣) الدروز وتعاليمهم (٤) الاسماعيلية او الباطنيــة . ظهورهم في فارس . استيلاؤهم على قلعة شاه در . الحسن ابن الصباح ونشأته (٥) فلسفة ابن الصباح ومذهبــه . استتاره وراء الدعوة الشيعية . جمعيته السرية ومراتبها السبع (٦) خطط الاسماعيلية . استيلاء ابن الصباح على قلعة الموت . تدبيره مقتــل نظام الملك . استيلاء الاسماعيلية على قلاع اخرى . الحرب بينهم وبين بركيارق . الحرب الاهلية في فارس . تحالف بركيارق مع الاسماعيلية . الفدائية او القتلة . (٧) انقلاب بركيارق على الاسماعيلية ومطاردته لهم . محاربة السلطان محمد لابن عطاش . بسالة الاسماعيلية ومقتل ابن عطاش (٨) دولة ابن الصباح . عيث الاسماعيلية في الشمال . نشاط السلطان محمد الى محاربتهم . استيلاء انوشتكين على بعض قلاعهم . محاصرته لقلعة ألموت . جلد الاسماعيليــة ورفع الحصار . وفاة ابن الصباح . مواهبه وصفاته (٩) الاسماعيلية في الشأم . حصولهم على قلعة بانياس . الاسماعيلية وفرسان المعبد . مسير صــلاح الدين لمحاربة الاسماعيلية وعفوه عنهم . محاربة التتار للاسماعيلية في فارس والشأم . اشــتداد هولاكو في مطاردتهم وسحقه لدولتهم في فارس . غزو الملك الظاهر لقلاعهم في الشأم . انحلال الاسماعيلية وذهاب دولتهم (١٠) الاغتيال المنظم سلاح الاسماعيلية . الفداوية ونشأتهم . حدائق الاسماعيلية . شــيخ الجبل وطريقته الروائيــة . اقوال فون هامار (١١) تحليل وتأملات

١ ــ بينما كان القرامطة يسيرون بأنفسهم الى الفناء في غمار من المعارك الطاحنة والسفك المستمر كانت دعوة عبد الله بن ميمون السرية تجتاح مجتمعاً آخر ، وتسير في طريقها بخطوات ثابتة ، غير أنه توفي قبل أن يشهد نتائجها المادية ، فقام بها بنوه من بعده،وأرسلوا الى اليمن داعية يبث الدعوة ويبشر بقرب ظهور المهدي فانتشرت الدعوة هنالك بين القبائل الشيعية بسرعة ، وأغاروا على من حولهم من القبائل بالسبي والنهب وأرسلوا أموالا كثيرة الى ولد ابن القداح ، وأنفذ الدعاة في نفس الوقت رجلين منهما الى افريقية التي آنسوا في قبائلها المتوحشة مهداً خصيباً لبث بذور الدعوة فذهبا الى ارض كتامة والتف حولهما كثير من القبائل . وكان ممن اعتنق الدعوة في اليمن رجل يدعى ابو عبد الله الشيعي، وكان ذا ذكاء وعزم ، فلما انتشرت

الدعوة في قبائل المغرب سار الى افريقية وبشر بظهور المهدي واستمال البربر بحيله وشعوذته وزهده وورعه ، وقاتل في انصاره جند بني الاغلب أمراء افريقية وهزمهم في عدة مواقع

وكان ولد ابن القداح يدعون أنهم من سلالة آل البيت . وكان حفيده الحسين قد سار الى سلمية من ارض حمص واستولى على ما أودعه جده عبد الله هنالك من مال ووكلاء وغلمان ، وكان هو الذي يدير الدعوة ويرسل الدعاة ، ويكاتبه شيعة اليمن والمغرب ، وكانت زوجه يهودية رائعة الحسن تزوجها بعد أن مات عنها زوجها الاول وهو يهودي ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف ، فتبناه الحسن وعلمه وادبه وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل ، وتقدم الى أصحابه بطاعته وخدمته وانه هو الامام والوصي ، وانتحل له نسباً هو عبيد الله بن الحسن من ولد الحسين بن علي وهذه رواية في نسب عبيد الله بن المهدي[1] وهناك من يقول انه من ولد اسماعيل الامام كما قدمنا ، ومن يقول انه ولد الحسين بن القداح من زوجه اليهودية ، والاختلاف كثير في نسبته . غير أن سواد المؤرخين المسلمين لا يميل الى تصديق نسب عبيد الله اليهودي سواء من جهة أمه أو أبيه ، إذ تأبى غيرتهم الدينية على ما يظهر أن يكون المنتحل دعوة المهدي والمؤسس لدولة كبيرة من دول الاسلام من غير المسلمين. ويعتقد معظمهم صحة انتسابه الى آل البيت . أما نحن فنرجح انه من ولد عبد الله ابن ميمون لان دعوة ابن القداح الى امامة آل البيت لم تكن كما قدمنا الا قناعاً يستتر به ، ووسيلة لاستهواء العامة ، وبعيد ان يستنفد بنو القداح وهم من اقطاب الانكار والالحاد نشاطهم وذكاءهم في سبيل تأييد دعوة يسخرون منها في اعماق قلوبهم ، ويقيمون للدين دعامة وما قاموا بدعوتهم الا لسحقه وسحق جميع التعاليم الدينية والاخلاقية

وعلى أية حال فقد قام عبيد الله بالدعوة بعد وفاة الحسين وبذل الاموال وبث الدعاة ، وارسل اليه ابو عبد الله الشيعي رسلا من كتامة يخبرونه بما تم له هنالك من الظفر وانهم ينتظرون قدومه الى المغرب ، وكانت عين الخليفة المكتفي فوق ذلك ساهرة ترقب حركاته فاعتزم الفرار الى افريقية ، وبعد خطوب كثيرة ومطاردات جمة استطاع ان يصل الى المغرب هو وولده ابو القاسم ، غير انه وقع في يد أمير

(١) هذا ما رواه ابن الاثير نقلا عن بعض العلوية غير أنه يأبى تصديق هذه الرواية ويحاول نقضها (ج ٨ ص ١٢)

سجلماسة فسجنه باشارة زيادة الله الاغلب قبل ان يتوفق الى لقاء أبي عبد الله

غير ان أبي عبد الله نشط الى محاربة زيادة الله ، وبعد حروب طاحنة هزمت جيوش بني الاغلب ودخل ابو عبد الله مدينة القيروان ، وزال ملك الاغالبة من افريقية (تونس) (سنة ٢٩٦ هـ)

ثم سار ابو عبدالله الى سجلماسة وقاتل اميرها وهزمه واخرج عبيدالله وولده من السجن ، ودعا الى امامته ، فدخل عبيد الله مدينـة القيروان سنة سبع وتسعين ، وقبض على زمام الحكم ، وتلقب بالمهدي ، واستعمل انصاره في حكم الثغور والنواحي وقامت بذلك دولة العبيديين

٢ ـ وفي سـنة ثمان وخمسين وثلاثمائة افتتح مصر جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله خليفة العبيديين [1] وأسس مدينة القاهرة . ثم قدم المعز الى مصر بعد ذلك بضعة اعوام ، ونقل قاعدة ملكه الى القاهرة فكانت منزله ومنزل ابنائه من بعده . وكان العبيديون قد اشتغلوا حيناً بالغزو عن المضي في بث دعوتهم، فلما هدأت ثورة الفتح وثبتت دعائم ملكهم ، استأنفوا دعوة التقويض والهدم ، وكان أنشطهم الى بثها وأحرصهم على تأييدها الحاكم بامر الله ابن المعز الذي تبوأ عرش مصر عقب وفاة ابيه في سنة ست وثمانين . وكان الحاكم عنيف الاهواء خطر النزعات فذ الاطوار، جم الصرامة والقسوة « مضطرباً في الجور والعدل والاخافة والامن والنسك والبدعة» [2] فمال على المصريين وأذلهم وعاث في أموالهم وأرواحهم واعراضهم ، وأضناهم بغريب نزعاته ومتناقض أحكامه ، وقلب نظم الحياة الاجتماعية ، فأمر حيناً أن يستبدل النهار بالليل لاجراء المعاملات ، ومنع النساء من الخروج والتعامل ، وأطلق يد الاجانب والسفلة في شؤون الدولة ، فانهارت صروح النظام والامن ، وانحلت الاخلاق ، وانحطت عقلية المجتمع المصري . بيد ان الذي يهم أن نسجله من سيرة الحاكم هو استئنافه للدعوة السرية الاسماعيلية ونشاطه في إذاعتها بطريقة فعالة منظمة بانشاء دار في القاهرة لبث تعاليم هـذا المذهب . وكان هذا المعهد الفذ الذي سمي « دار الحكمة » مدرسة عامة يفتح بابها لكل طالب ، والتعليم فيها على نفقة الدولة . وكانت تعاليمها الدينية التي اشتقت من مبادىء عبد الله بن ميمون تسع

(١) وهم الفاطميون ايضاً ، يسميهم بذلك من يسلم بأنهم من آل البيت وان نسبتهم تنتهي الى فاطمة بنت النبي وزوج علي ابن ابي طالب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

مراتب أي زيادة مرتبتين على جمعية ابن ميمون السرية وينقسم الطلاب فيها الى قسمين كبيرين ، العالم والجاهل ، ويعتبر الدعاة من تلاميذ القدم الاول . ويبدأ الدعاة بمناقشة الطالب في المسائل الدينية وتفاسير القرآن ، ويعلمونه ان مسائل الدين امور شديدة التعقيد تنبو عن الذهن العادي ولا يستطيع فهمها إلا رجال كالدعاة تبحروا في درسها ، ويأخذون عليه العهود بألا يذيع شيئاً مما يعلمونه من النظريات والشروح وهذه هي المرتبة الاولى . وفي المرتبة الثانية يعلم الطالب أن كل التفاسير والاحكام التي قال بها المجتهدون السابقون خاطئة باطلة وان الاحكام الصحيحة هي التي يقول بها الائمة الذين تلقوها من الله. وفي الثالثة أنهؤلاء هم أئمة الاسماعيلية وهم سبعة آخرهم محمد بن اسماعيل . وفي الرابعة ان الانبياء الذين تقدموا آل البيت سبعة ايضاً هم آدم ونوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد (النبي العربي) ثم محمد بن اسماعيل. وفي الخامسة يبدأ الدعاة بتنفيذ مهمتهم الحقيقية وهي هدم العقيدة الدينية فيعلمون الطالب ألا يؤمن بالسنة وأن يرفض تعاليم محمد . وفي السادسة ان كل الاديان وما أمرت به من الفروض كالصوم والصلاة وغيرها إن هي إلا أكاذيب وحيل ابتكرت لاخضاع المجتمعات البشرية وان جميع الشرائع لابد أن تخضع لشريعة العقل والعلم ويدللون على أقوالهم بنظريات ارسطو وافلاطون وفيثاغورس وأمثالهم . وفي السابعة يلقن تعاليم الثنوية وبذلك تهدم وحدة الاله وهي فكرة الاسلام الجوهرية . وفي الثامنة تنقض كل صفات الالوهية والنبوة ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية كالنظم السياسية وانشاء الحكومات المثلى . وفي التاسعة والاخيرة يدخل الى حظيرة الاسرار ويعلم أن كل التعاليم الدينية أوهام محضة وانه يجب ألا يتبع منها الا ما هو لازم لحفظ النظام بين الدهماء والعامة ولكن الرجل المستنير له أن يرفضها جميعاً ، وان ابراهيم وموسى والمسيح وغيرهم من الانبياء ليسوا إلا رجالا مستنيرين تفقهوا في المسائل الفلسفية ، وهكذا يهدم كل اعتقاد في الاديان المنزلة . فكانت المراتب الاخيرة تستعمل لنقض المراتب الاولى . وقد كان الخداع في الواقع عماد الدراسة في دار الحكمة ، وكان الدعاة يتحدثون امام كل طائفة بما يرضيها ويتفق مع عقليتها وتعاليمها

هكذا كان نظام الجمعية السرية الهائلة التي نظمها الشيعة لهدم الدولة العباسية وما تستند اليه من التعاليم الدينية ، وهدم كل المعتقدات الدينية من الاساس ، وهو النظام الذي اتخذ نموذجاً لانشاء « الشعلة البافارية » في القرن الثامن عشر ، والذي يحمل

عليه فون هامار في كتابه عن الاسماعيلية (١) في هذه العبارة القوية :

« ألا يعتقد في شيء وأن يقدم على كل شيء هما خلاصة هذا النظام الذي هدم كل مبدأ للدين والاخلاق ، ولم يك يرمي الا الى تنفيذ المآرب والاطماع على يد وزراء هم خير آلات لسياسة جهنمية ، يقدمون على كل شيء ولا يعرفون شيئاً ، يعتبرون كل شيء خدعة . وكل شيء مباح ، نظام لا يعمل الا لاطفاء شهوة للتغلب لا يخمد أوارها بدلا من أن يعمل على تحقيق أمثل الغايات البشرية ، وينحدر الى الهاوية ، فيقبر بين أطلال العروش والهياكل ، وانتقاص السعادة القومية ، ولعنات الانسانية باسرها »

٣ ــ وقد أسفرت تعاليم دار الحكمة عن ظهور طائفة سرية جديدة هي طائفة الدروز أتباع اسماعيل الدرزي، وهو تركي دعا سنة ١٠١٦م. في أحد مساجد القاهرة بألوهية الحاكم وعبادته ، وزعم الحاكم نفسه في آخر عهده أن الروح القدس ماثلة في شخصه وادعى الالوهية ، ونظم وزيره الفارسي حمزة بن علي رسوم هذا الدين الجديد . ثم قتل الحاكم بعد ذلك في كمين دبرته له أخته ــ على ما يقال ــ وأخفيت جثته ، فازداد أتباعه فتنة وزعموا أنه لم يمت ولكنه رفع الى السماء ثم يعود ليعاقب الكفرة . وصار ذلك مذهب دروز الشام الذين حملهم اسماعيل الدرزي على اتباع تعاليمه . وقد خرج الدروز في صوغ مذهبهم عن تعاليم عبد الله بن ميمون الاصلية ، فهم دهرية يقولون بالحلول وان الله « حكمة عامة » تمثل في آلهة عدة وان الحاكم بأمر الله آخر هؤلاء الآلهة وانه يعود الى الظهور حينما يصل الظلم في العالم غايته فيفتتح العالم ويقضي على جميع الاديان الاخرى . ومراتب الطائفة الدرزية ثلاثة هي الجاهل، والجويد، والعاقل ، ولهؤلاء تكشف أسرار المذهب تدريجاً ويلتجيء الدعاة في ذلك الى الرموز والاشارات الخفية حرصاً على كتمان الاسرار والتعاليم ، ويتبعون خطة الاسماعيلية في نشر دعوتهم بين أبناء الاديان الاخرى فيتظاهرون أمام المسلمين بأنهم يؤمنون بمحمد ، وأمام النصارى بأنهم يؤمنون بالمسيح، ويبررون هذا المسلك بأنه واجب ألا تكشف أسرار مذهبهم الى « أسود » أو كافر . ومن عاداتهم أنهم يجتمعون نساءً ورجالا ليتحدثوا في الشؤون الدينية والسياسية ، بيد أنه لا يجوز « لعاقل » أن يشترك في تقرير الامور ، وتشبه رموزهم واشاراتهم في التعارف رموز البناء الحر

---

(١) Von Hammer : Geschichte der Assassinen

والدروز طائفة صغيرة لم تلعب دوراً كبيراً في الثورة على الاسلام كباقي الشعب الاسماعيلية

٤ ـ ننتقل الآن الى طائفة اسلامية ، ثورية سرية في نفس الوقت ، وهي أعظم جمعية سرية ثورية عرفها الاسلام

هذه الجمعية السرية هي طائفة الاسماعيلية او الباطنية التي لبثت زهاء قرن ونصف رعب الدول الاسلامية من فارس الى الشام ، وحشدت جموع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق اغراض السياسة ، واعتمدت في محاربة خصومها على الاغتيال الخفي المنظم باكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية

وهؤلاء الاسماعيلية ، او الباطنية كما رأيناهم شعبة من غلاة الشيعة استخرجت مبادئها من تعاليم ميمون بن ديصان وولده عبد الله ، والقرامطة ، ودار الحكمة الفاطمية ، فهي بذلك طور من أطوار الدعوة الثورية الهادمة التي نظمها ابن ميمون وتممة لها . وقد أخذت في الظهور بشكلها الجديد حينما اضمحل أمر الدولة الفاطمية في مصر وتضاءل نفوذ دار الحكمة والتعاليم الشيعية ، وتحرك دعاتها بادىء بدء في فارس اذ يجب ألا ننسى أن فارس كانت منذ البداية معقل الشيعة وملاذ التعاليم الشيعية لان الحركة القومية الفارسية كانت تعتمد على الدعوة الثورية الشيعية وفوراتها المتعاقبة في تحطيم نير الدولة العباسية واسترجاع حرياتها . وكانت فارس في أواخر القرن الحادي عشر فريسة للحرب الاهلية والثورات الداخلية . ولم تكن وحدة قومية بل كان يقتسم الملك فيها عدد من صغار الامراء والمتغلبين . ففي ذلك الحين بدرت من الاسماعيلية اول حركة عنيفة قام بها داع من دعاتهم يسمى احمد بن عطاش ، وكان ابوه من كبار الزعماء الباطنيين ، وكان الاسماعيلية قبل ذلك بأعوام قد انتشروا في أنحاء همذان وعاثوا فيها يقتلون الناس ويخطفونهم وينهبون أموالهم ، وتجرد جنود السلطان ملكشاه لمحاربتهم ، فاجتمعوا حول ابن عطاش هذا ولم يلبث أن استولى على قلعة شاه در بالقرب من أصفهان ، وامتنع بها الاسماعيلية واتخذوها قاعدة للهجوم والاغارة

بيد ان الذي نظم حركة الاسماعيلية في طورها الجديد ، ووضع برنامجها الفذ ، وأنشأ منها جمعية سرية هائلة ذات فروع وشعب منبثة في جميع انحاء فارس والعراق والشأم هو الحسن بن علي المعروف بالصباح ، وهو فارسي من خراسان نشأ حر الفكر ، وتعلم مع الشاعر الفيلسوف عمر الخيام ونظام الملك وزير السلطان ملك

شاه ، وانقطع حيناً لدرس الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء التي كانت في عصره سلاحاً رائعاً يشهره الاذكياء والادعياء على البسطاء والعامة ، ثم اتصل بصديقه نظام الملك فألحقه بخدمة السلطان ملك شاه ، وسما شأنه وكثر ماله ، غير انه حاول بالدس والسعاية أن يوقع بصديقه الحسن اليه فسخط عليه نظام الملك ، واتهمه بالالحاد وبث الدعوة الاسماعيلية، ففر ناجياً بنفسه وتجول في الاقطار ونزل بمصر فأحسن خليفتها المستنصر الفاطمي وفادته وأمره بدعاء الناس الى امامته ، واتصل بأساتذة دار الحكمة وتفقه في تعاليمهم . ثم عاد الى الشام واستقر حيناً بحلب ينظم طائفته الجديدة ، وطاف بالجزيرة وبغداد وجنوب فارس يبث تعاليمه ويدعو بامامة اسماعيل وبنيه من آل البيت

٥ ـ ويحسن قبل أن نقص تاريخ الجمعية السرية الغريبة التي أنشأها الحسن الصباح ان نلم بملخص مذهبه الفلسفي . يقول الحسن بوجوب الدعوة الى تعين امام صادق قائم في كل زمان وتميز الفرقة الناجية من سائر الفرق بأن لها اماماً وليس لغيرهم امام ، ويقول في معرفة الله بضرورة استعمال العقل والنظر الى جانب تعاليم المعلم الصادق ، وان الناس فرقتان في ذلك . قالت الاولى بوجوب الاستعانة في معرفة الله بالمعلم الصادق ووجوب تعينه وتشخيصه ثم التعلم منه . وقالت الثانية بالاخذ في كل علم من معلم وغير معلم ، وان الحق مع الفرقة الاولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين ، قال وبالاحتياج عرفنا الامام ، وبالامام عرفنا مقادير الاحتياج كما بالجواز عرفنا الوجوب أي واجب الوجود ، وبه عرفنا مقادير الجواز في الجائز

ثم يقول الحسن الصباح : ان في العالم حقاً وباطلا وان علامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل هي الكثرة وان الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الامام ، والرأي مع الفرق المختلفة ، وهذه مع رؤسائها . وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه ، والتمايز بينهما من وجه ، التضاد في الطرفين ، والترتب في احد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه . ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات ، وطريقته أن يرجع في كل مقالة وكلمة الى اثبات المعلم وان التوحيد هو التوحيد والنبوة معاً حتى يكون توحيداً ، وان النبوة هي النبوة والامامة معاً حتى تكون نبوة . ولم يتعد في مسألة الالوهة قوله ان آلهنا إله محمد . وقد منع الحسن العامة عن الخوض في العلوم وكذلك الخاصة عن مطالعة الكتب المتقدمة الا من استطاع منهم فهمها وتحليلها

هذا هو ملخص آراء الحسن الصباح في المسائل التي اشتغل جميع اعداء الاديان المنزلة والنظم المفروضة في جميع العصور بتحليلها وتعليلها ، وقد اختار مثل سلفه وامامه ابن ميمون أن يستتر بالدعوة الشيعية وان يؤثر امامة الاسماعيلية لانتشار فلولهم وجموعهم في جميع الاقطار ولا سيما في فارس التي اختارها مركزاً رئيسياً لفرقته . بيد أنه التجأ في التنفيذ الى تنظيم القوة المادية على مثال هائل لم يحلم به سلفه . وقد أشار فون هامار الذي يعتبر الحسن الصباح عبقرية عظمى الى برنامجه التنفيذي في هذه العبارة القوية :

« ان الآراء ضعيفة قاصرة ما وقفت عند اجهاد المخ دون تسليح اليد . ولم يظفر التشكك والتفكير الحر بسحق عرش من العروش ما وقفا عند الاضطرام في عقول الكسالى والفلاسفة ، بيد ان التعصب الديني والتعصب السياسي هما انفذ اسلحة في يد الامم لسحق العروش . ان ذا الاطماع لا يعنى بما يعتقد الناس ذرة ، ولكنه يعنى كل العناية بمعرفة الوسيلة التي يستطيع بها أن يستعملهم في تنفيذ مآربه » (١)

وقد اتبع الحسن الصباح مثل دار الحكمة في مراتب جمعيته غير أنه جعلها سبعاً بدلاً من تسع : الاولى مرتبة الرئيس أو السيد أو شيخ الجبل وهو رئيس الطائفة الاعلى ، والثانية مرتبة كبار الدعاة أو المقدمين ومقامهم في ثلاث ولايات توجد فيها أمنع قلاع الطائفة وهي بلاد الجبل وقهستان والشام وهؤلاء يتلقون أوامرهم من الرئيس مباشرة ويخضعون له خضوعاً تاماً ، ثم يأتي بعدهم الدعاة والرسل الدينيون والوكلاء السياسيون ، ثم الرفاق وهم يتدرجون في المراتب والتعاليم السرية ، ثم الفدائيون الذين يتولون الاغتيال الفردي ويلحق بهم حراس الطريق والمحاربون والقتلة ، ثم المبتدئون أو اللاحقون الذين يحشدون للتجنيد في الطائفة وتلقي مبادئها ، ثم العامة وهؤلاء لا يتلقون شيئاً من التعاليم وانما يستعملون آلات صماء فقط ، ويشبه فون هامار مراتب الدعاة والرفاق والفدائيين في جمعية الاسماعيلية بثلاث مراتب في البناء الحر هي كبار البنائين ، ورفاق المهنة ، والصبية المبتدئون

ولم تكن الطائفة الجديدة تجيز الخروج على الدين ، بل كان شعارها بالنسبة للمراتب الصغرى الايمان الصحيح بكل تعاليم الاسلام واتباع الفرائض غير ان كبار الدعاة ومن يلحق بهم من المتقدمين في المراتب كانوا يلمون بشيء من اسرار

(١) Von Hammer , Geschichte der Assassinen

الطائفة ويعلمون ان الدين لم يكن إلا وسيلة وانه باطل وخبية ، ولا يؤمنون بشيء من تعاليمه ، ويعتقدون ان كل الوسائل مشروعة لبلوغ المآرب الدنيوية التي يعنون بها دون سواها . كان شعارهم : « لا حقيقة في هذا الوجود ، وكل أمر مباح » وكان هذا أساس نظريتهم السرية التي لا يتلقاها الا أفراد معدودون منهم يخفونها بمنتهى الحذر تحت حجاب الايمان العميق والورع الفياض ، تأكيداً لاستعباد الاذهان المؤمنة الساذجة ، وتوجيهها طوع اهوائهم واستخدامها في تحقيق الغاية الاخيرة ، وهي تغلب بضعة أفراد تضطرم جوانبهم بشهوة السلطان والملك

هكذا كان البرنامج العملي — وليست النظريات المحضة — او بالحري كان حشد البسطاء واستعمالهم آلات صماء في يد الزعماء ، قوام « الارهاب » الهائل الذي بسط الاسماعيلية ظله على أنحاء فارس والعراق والشأم مدى قرن ونصف ، والذي يرى فون هامار شبيهاً له في « ارهاب » الثورة الفرنسية ، وقد كان زعماؤه ايضاً زعماء في بعض الجمعيات السرية أو آلات في يدها

٦ — كانت الوسيلة العملية التي اختارها الاسماعيلية لتحقيق غايتهم ومحاربة خصومهم هي الاغتيال المنظم والامتناع بسلسلة من القلاع الحصينة الشاهقة تمتد من فارس الى الشأم . وكانت اول قلعة استولوا عليها هي قلعة شاه در التي امتلكها ابن عطاش . فلما فرغ الحسن الصباح من طوافه بالشام والجزيرة ووضع أسس الجمعية الجديدة عاد الى خراسان وتجول انحاء كاشغر وما وراء النهر يدعو الناس سراً الى طائفته ويتظاهر بالورع والزهد، واتصل بصاحب قلعة ألَموت وهي من أمنع القلاع في شمال فارس وقويت بينهما أواصر الصداقة . فوثب الحسن ذات يوم بصاحب القلعة في شرذمة من أنصاره فأخرجه منها وامتلكها (سنة ٤٨٣ هـ .) فسير اليه نظام الملك الجند فلما أرهقته عسكر السلطان وخشي الهلاك دس على نظام الملك من قتله غيلة فكان أول كبير قتله الاسماعيلية طبقاً لخطتهم الجديدة . ورحلت على أثر ذلك عساكر السلطان عن قلعة ألموت ، فنشط الحسن الى تحصينها وتجهيزها بالرجال والاقوات والذخائر ، واتخذها قاعدة للاغارة على ما يجاورها من الانحاء وتسمى بالرئيس أو شيخ الجبل لامتناعه بحصونه في رءوس الجبال

واستولى الاسماعيلية في نفس الوقت على عدة قلاع اخرى في فارس منها قلاع قوهستان استدعاهم اميرها لامتلاكها لخلاف ثار بينه وبين حاكمها من قبل السلطان فاشتد بأسهم في تلك الانحاء ومنها قلعة وسمكوه بقرب أبهر وقد عاثوا هنالك قتلا

وسلباً ونهباً فاستغاث الناس بالسلطان بركيارق فسير جنده الى الاسماعيلية فقاتلوهم واستعادوا القلعة منهم بعد أن لبثت في حوزتهم بضعة اعوام وقتلوهم عن آخرهم . ومنها قلعة خالنجان بالقرب من اصفهان كانت لمؤيد الملك بن نظام الملك فملكها الاسماعيلية بالخديعة وضمها ابن عطاش الى حصونه . ومنها ازدهر ملكها أبو الفتوح ابن أخت الحسن الصباح . واستولوا على كثير غيرها من قلاع فارس . فاستفحل أمرهم ، وازداد عيثهم ، واختل النظام والامن ، واشتد بالناس الذعر والخوف ، وهبوا لقتالهم والدفاع عن أنفسهم ولا سيما في اصفهان حيث ثار العامة بهم وتكاثروا عليهم وأمعنوا فيهم قتلا وتحريقاً ، فامتنعوا بحصونهم هنالك ولزموا السكينة حيناً

بيد أن الاسماعيلية غدوا في ذلك الحين قوة هائلة في فارس . فلما ثارت الحرب بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان محمود المتغلب على أصفهان وما يجاورها رأى بركيارق أن يستعين بالاسماعيلية على أخيه وحرضهم على قتل أمرائه ومحالفيه ، فنشط الاسماعيلية الى مطاردة الامراء السلجوقيين حلفاء السلطان محمود بالغدر والاغتيال المنظم فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، منهم سرمز وارغش وكمش وغيرهم من الامراء والولاة . وحارب بركيارق أخاه في نفس الوقت وهزمه وقتل وزيره مؤيد الملك . غير أن الاسماعيلية انتهزوا تلك الفرصة واندسوا في عسكر بركيارق وفشت دعوتهم بين الضباط والجند ، وخشيتهم بطانة السلطان والخاصة ، ونسبت اليهم كل الجرائم الخفية ، واضطر خصومهم من الامراء والخاصة أن يلبسوا الدروع تحت ثيابهم بالليل والنهار . وكان القتلة والفدائيون يرتكبون جرائمهم بتصميم وعزم وثبات لا مثيل لها في تاريخ الجريمة فكان أحدهم يتربص للامير وقد استبطن خنجراً ثم يطعنه طعنة قاتلة في الغالب وقلما يفكر في الفرار بعد ذلك بل يهلك لوقته بيد أعوان القتيل وحشمه ويستقبل العذاب والموت باسما

٧ — ولما ضجت بطانة بركيارق وضج الناس عامة من عيث الاسماعيلية ، واتهم بركيارق بمالأتهم والميل الى مذهبهم ، وخشي الفتنة في عسكره وشعبه ، أذن بمحاربتهم ومطاردتهم . وسار بنفسه الى معسكراتهم وقلاعهم الواقعة في مملكته ففتك بجموعهم وقتل عدداً كبيراً من كبار دعاتهم ومقدميهم ومنهم الامير محمد بن دشمنزيار صاحب يزد ، وقبض في بغداد على أبي ابراهيم الاسداباذي أحد زعمائهم ، وكان بركيارق قد اوفد رسولا الى الخليفة العباسي ليأخذ مال مؤيد الملك . وطارد الخليفة ايضاً بعض دعاتهم في نواحي بغداد . وسار الامير برغش كبير أمراء السلطان سنجر لقتالهم

فحاصرهم في طبس وخربَ قلاعهم وقتل كثيراً منهم

وكان ابن عطاش قد انتهز فرصة الحرب بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان محمد فأثخن في انحاء اصفهان واستفحل أمره ، وبث أصحابه لقطع الطرق وقتل السابلة ونهب الاموال فقتلوا خلقاً كثيراً وفرضوا الضرائب على بلاد السلطان وأرهقوا سكانها . فلما عقد السلم بين الاخوين تأهب السلطان محمد لقتال الاسماعيلية وسار الى قلاعهم في شاه در سنة خمسمائة وضيق الحصار عليها ، وحاول الاسماعيلية مهادنة السلطان بالمفاوضة فلم يقبل واستفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوا بقتلهم . ولما طال الحصار ورأى الاسماعيلية عزم السلطان وتمسكه فاوضوه في التسليم على أن يسيروا الى قلاعهم في ارجان وطبس ، وأن تبقى جماعة منهم لحماية شاه در حتى يصل اخوانهم الى القلاع ثم تسلم الحاميـة القلعة وتسير الى الحسن الصباح في ألموت فرضي السلطان بذلك ، وارتحل معظم الاسماعيلية الى ارجان وطبس ، ولكن ابن عطاش امتنع بشاه در وأبى التسليم ، وأبدى الاسماعيلية في تحمل اهوال الحصار جلداً عظيماً وشجاعة نادرة ، ورفعوا الاخشاب والاسلحة فوق الاسوار وألبسوها الثياب إيهاماً للمحاصرين بكثرتهم ، وكاد السلطان ييأس من التغلب عليهم لولا أن دله خائن منهم على مدخل خفي للقلعة فدخلتها جنود السلطان وملكوها ولم يجدوا فيها من الاسماعيلية سوى ثمانين رجلا قتلوا معظمهم ، وأسر ابن عطاش ، وأمر السلطان به فشهر في اصفهان وسلخ جلده فتجلد حتى مات ، وقتل ابنه ، وألقت زوجه نفسها من القلعة فماتت على الاثر

٨ ـ اما الحسن الصباح فلبث في ألموت متحصناً برءوس الجبال وتسمى كما قلنا بشيخ الجبل ولم يتلقب بأمير أو سلطان . وبنى الاسماعيلية حوله عدة قلاع منيعة ، فقوي أمر الحسن وبسط سلطته على أنحاء خراسان وفرض الضرائب على الناس والقرى ، وأثخن الاسماعيلية في تلك الانحاء ، وقطعوا طريق القوافل ، وأسرفوا في قتل السابلة ونهب اموالهم ومتاعهم . واستفحل امرهم أيام الفتنة بين السلطان محمد واخيه . وكادت سلطة الحسن الصباح تغشى كل سلطة أخرى حتى روى ان السلطان لما ارسل يدعوه الى طاعته دعا أمام رسوله باثنين من رجاله وأمر احدهما ان يغمد خنجره في فؤاده والثاني ان يلقي بنفسه من أعلى الحصن ففعلا وهلكا على الاثر ، ثم قال للرسول قل لمولاك يطيعني هكذا سبعون ألفاً من الرعايا الامناء

وكان الحسن قد انفق في ألموت الى ذلك الحين نحو ست وعشرين سنة وقد طال

عهد الارهاب الذي بسطه في تلك الانحاء وكثرت غزواته ، واستغاث الناس من فعال الاسماعيلية وجرائمهم . فاعتزم السلطان محمد بعد ان مزق الاسماعيلية في اصفهان وخرب قلاعهم أن يقاتل الحسن الصباح . فسير اليه في المبدأ عدة حملات صغيرة كان يفتك بها الاسماعيلية ثم تعود بلا جدوى ، فسير اليهم في سنة خمس وخمسمائة الامير انوشتكين شيركير صاحب آبة وساوة فملك منهم عدة قلاع منها قلعة كلام وقلعة بيرة وكان الاسماعيلية كلما سلموا اليه قلعــة استأمنوه وساروا الى ألموت حتى غصت بهم حصونها ، ثم سار انوشتكين الى ألموت وامده السلطان بعسكر جديد فضرب الحصار حولها ، وقطع كل علائقها من الخارج ، وابتنى المساكن للجند توقعاً لطول الحصار . وكان السلطان يمده تباعاً بالاقوات والذخائر . فلبث الحصار زهاء خمسة اعوام وكان صارماً مرهقاً ، ولجأ الاسماعيليــة في جلب المؤن الى أروع الوسائل والحيل حتى ضاقوا ذرعاً واشتدت بهم الحال ، وكان الحسن يجري لكل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات . وأبى عليهم انوشتكين كل شروط للصلح والمهادنة ، وفتك الجوع بهم ، وكاد اليأس يحملهم على التسليم لولا ان توفي السلطان محمد اثناء ذلك ، فاضطر انوشتكين أن يرفع الحصار وأن يرحل ، فنزل الاسماعيلية من قلاعهم وطاردوا عسكره ومزقوا مؤخرته واستولوا على ما خلفه من الاسلاب ، وزال بذلك عنهم كل خطر واستعادوا سلطانهم في تلك الانحاء

ولبث الحسن في ألموت يحكم في دولته الصغيرة وينظم شؤون الاسماعيلية بضعة اعوام أخرى حتى توفي ســنة ١١٢٤ م (٥٢٠ هـ) في سن التسعين بعد ان حكم الاسماعيلية خمساً وثلاثين سنة . وكان الحسن داهية وافر الذكاء والعزم ، عالماً بالهندسة والرياضة والفلك ، خبيراً بشؤون الحرب ، بارعاً في تدبير المكائد والدسائس ، مقداماً لا يدخر وسيلة لتحقيق غاياته مهما كانت من الهول والروعة ، شديد القسوة الى حد التوحش حتى انه قتل اثنين من أولاده لشبهة قامت بنفسه في انهما يأتمران به وقد رأيت ان فون هامار يعتبر الحسن الصباح عبقرية عظمى

٩ ـ ولما اشتدت مطاردة السلاجقة للاسماعيلية في فارس ، فر بعض دعاتهم الى الشام ، وكان كبير دعاتهم هنالك بهرام الاسترابادي ابن أخي أبي ابراهيم الذي تقدم ذكره ، فلبث حيناً يبث الدعوة في الخفاء وينظم جموع الاسماعيلية هنالك . وكان امراء الشام مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يستعملون الاسماعيلية في تنفيذ مآربهم السياسية واغتيال أعدائهم فظهروا عندئذ وطلب بهرام من أتابك دمشق (ابن

طغتكين) حصناً يأوي اليه مع أنصاره اتقاء لاذى العامة فأعطاه قلعة بانياس سنة عشرين وخمسمائة ، فتحصن بها الاسماعيلية وغلبوا على عدة حصون أخرى هددوا بواسطتها كل امارات الشام . ولبثوا زهاء قرن يترددون في انحائها بالاغارة والغزو والقتل والنهب يحاربون المسلمين تارة والفرنج (الصليبيين) أخرى . وممن قتلوا من أمراء الفرنج ريمون كونت طرابلس قتلوه في سنة ١١٥٢ م . ونشبت الحرب حيناً بينهم وبين « فرسان المعبد » وهم طائفة سرية من الفرنج الصليبيين سنأتي على سيرتها . ثم تفاهما بعد ذلك ولعبا أدواراً في الحروب الصليبية وتقلبا في محالفة المسلمين والفرنج . فلما استرد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٧٢ هـ . سار لقتال الاسماعيلية وحاصر مصيات أمنع قلاعهم في الشام ، فلما اشتدت عليهم الحال ، بعث مقدمهم سنان (شيخ الجبل) الى شهاب الدين صاحب حماه وهو خال صلاح الدين ليشفع فيهم عند صلاح الدين ويهدده ان لم يفعل ، فخشي شهاب الدين غدر الاسماعيلية وتوسط بالصلح بينهم وبين صلاح الدين ، فعفا صلاح الدين عنهم ورفع الحصار عن قلاعهم

ثم توالت غزوات الامراء السلاجقة والتتار لقلاع الاسماعيلية في فارس والشام . فسار اليهم الامير ايتغمش صاحب همذان سنة ثلاث وستمائة وحاصر قلاعهم الواقعة في شمال فارس وافتتح عدة منها . ثم زحف اليهم جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه لقتلهم بعض أمرائه غيلة ، فحاصر ألموت ، وخرب قلاعهم في خراسان ، وأمعن فيهم قتلا ونهباً وسبياً وذلك سنة عشرين وستمائة ولما استفحل أمر التتار ، واكتسحوا فارس ، وافتتحوا بغداد وقضوا على الدولة العباسية سار هولاكو سنة خمسين وستمائة من بغداد الى خراسان ، واشتد في مطاردة الاسماعيلية ومحاصرة قلاعهم فخربها ومزقها شر ممزق وسحق دولتهم في فارس . ثم سار الظاهر ملك مصر بعد ذلك الى قلاعهم التي بالشام فخرب معظمها وافتتح مصيات ، والقى الاسماعيلية سلاحهم ودخلوا في طاعته وزالت دولتهم في الشام كما زالت في فارس ، ولم تبق منهم سوى جماعات صغيرة ، تفرقت هنا وهنالك . ولبثوا حيناً بعد ذلك آلة في يد الامراء والمتنافسين يستعملونهم في قتل أعدائهم غدراً وغيلة حتى استحالوا الى شراذم صغيرة من السفاكين والقتلة ولم تبق لهم أية أهمية سياسية

١٠ — وقد رأينا أن الاغتيال المنظم كان أمضى سلاح في يد الاسماعيلية . وقد كان الرفاق والفدائيون عماد هذا السلاح الرائع ، وهذا هو الجانب الروائي حقاً في

سيرة هذه الجمعية السرية الهائلة . ذلك ان أولئك الفدائيون كان يؤتى بهم أطفالا الى منازل المقدمين والدعاة فيربون منذ الحداثة على مبادىء المخاطرة والتضحية المطلقة واحتقار الحياة البشرية ، ويعلمون ان قوام الاسلام الصحيح هو بذل النفس ، وان الحياة الدنيا انما هي تجربة خلو من النعيم الحق لا تعدل في متاعبها وآلامها ذرة من رغد الحياة الاخرى ونعيمها الباذخ ، وان السبيل الحق الى اكتساب الجنة والتقلب في نعمائها وسعادتها الخالدة هو افتداء النفس بعمل من أعمال الدنيا . وكان الزعماء يتلمسون لبث هذه العقلية الرائعة في نفوس أولئك الفتيان أغرب الوسائل ، من ذلك انهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحدائق الفيحاء وقد غرست فيها أطيب الفواكه ، وأزكى الازهار والورود ، وصنعت الفوارت والشلالات البديعة ، وأقيمت الرواشن البلورية والابهاء الفخمة وجهزت بأنفس أنواع الرياش والبسط والديباج ، وغصت بالغيد الكواعب يطفن بأقداح ذهبية من الخمر . وكان من يرى فيه النجابة والاخلاص من الفتية الفداوية يدعى الى مجلس شيخ الجبل ويسقى جرعة من المخدر ولعله الحشيش[1] ، ثم ينقل خفية الى احدى هذه الحدائق الغناء ويزج به الى احدى الابهاء الفخمة فتوقظه ألحان الموسيقى الشجية وخرير الفوارت الشعري ، ويحيطه الغيد والغلمان ، ويسقى أطيب الخمر ، ويتمتع ما شاء بهذا النعيم . ثم يسقى المخدر ثانية وينقل خفية الى مجلس شيخ الجبل وقد رتب على نظامه الاول ، فاذا انتبه أكد له الشيخ انه لم ينتقل من مكانه ، وان الذي رآه وآنسه في ذهوله انما هو الفردوس ولذاته ، وانه يفوز بهذا الفردوس الى الابد بحسن طاعته وبذل نفسه . فيلتمس الفدائي من إمامه فرصة للتضحية وبذل النفس فيدفع به الامام الى قتل واحد ممن تقرر قتلهم من خصوم الطائفة من الامراء والوزراء والفقهاء وغيرهم . وبهذه الوسيلة استطاع الاسماعيلية أن يحشدوا فرقة هائلة من فتيان مخاطرين ، لا يرهبون الموت بل يطلبونه ، ويطاردون فرائسهم بعزم لا مثيل له في تاريخ الجريمة

---

(١) سمى الفرنج الصليبيون الاسماعيلية بالقتلة (assassins) ولعل ذلك لامعانهم في الاغتيال والقتل ، أو لعله كما يرى البعض تحريفاً لكلمة حشاشين التي ربما أطلقت على الاسماعيلية في هذه العصور بسبب طريقتهم في استعمال المخدر — الذي ربما كان الحشيش — في اغواء الفدائيين على النحو الذي ذكرناه

وهكذا بسط الاسماعيلية على المشرق نظام ارهاب حق «وانبث الرفاق والفداوية شراذم في الاقطار الاسيوية فأظلم بهم وجه الارض . ونجد في تاريخ الاسماعيليه ثبتاً من مشاهير الرجال من جميع الامم سقطوا ضحايا الاسماعيلية بين غبطة القتلة وأسف العالم» ثم ارتدت هذه الوسائل الدموية الغادرة في النهاية الى صدور السفاكين انفسهم، وصوب المرهبون سهامهم بعضهم الى صدور بعض ، فقتل شيخ الجبل بيد ابنه محمد ، وقتل محمد مسموماً بيد ابنه جلال الدين بينما كان يفكر هو في قتله ، ثم قتل جلال بالسم ايضاً . وهكذا سقط شيوخ الجيل من عهد الحسن الصباح الى نهاية خلفائه صرعى بأيدي الاقربين اليهم،وهيأ لهم السم والخنجر ذلك القبر الذي حفره الاسماعيلية لكثير من الضحايا (١)

وقد انقرض الاسماعيلية كطائفة سرية ثورية ولم يبق الآن منهم سوى شراذم صغيرة في فارس وعلى سواحل الهند وفي الشأم في حماه وحلب ودمشق . وهم أهل نشاط وكرم وحسن ونساؤهم فائقات في الجمال ، وحرفتهم التجارة والزراعة وصناعة الخزف . ولم يبق لهم بالطبع أية سطوة أو أهمية سياسية . ولم ينسب اليهم شيء من أعمال الاغتيال والسفك التي عرفت عن اسلافهم . غير أنهم ما زالوا يكتمون تعاليمهم ومبادئهم ، ويحرصون على اجراء شعائرهم في الخفاء (٢)

* * *

١١ ـ هذا هو تاريخ الثورة على الاسلام ، وهي ثورة اشهرت عليه منذ نشأته تارة في الجهر وتارة في الخفاء ، غير انها كانت في جميع اطوارها ترمي الى هدم تعاليم الاسلام الاولى وتحريفها بما يلائم مطامع الخارجين والدعاة توصلا الى نيل الملك في النهاية . وقد فازت هذه الثورة بغاياتها ايما فوز ، فزقت وحدة الاسلام منذ البداية ، وشطرت جبهته الموحدة الى دول عدة ، وسحقت تعاليمه في كثير من العصور والدول وأقامت فوق أنقاض هذه التعاليم مجتمعات جديدة تستتر مع ذلك بمبادىء الاسلام ، وتشق طريقها الى السلطان باسمه وهي لا تكاد تحتفظ بشيء من أصوله وتعاليمه ، بل

---

(١) هذه رواية فون هامار ولكننا لم نجد في المراجع العربية ما يفيد أن الحسن الصباح مات قتيلا (٢) البستاني في دائرة معارفه . وذكر لي الاستاذ الجليل احمد زكي باشا أنه أثناء رحلته في الشأم سنة ١٩٢٥ قابل زعماء الاسماعيلية في دمشق وحماه وحادثهم في أحوالهم وشؤونهم

من الصعب أن تعتبر في عرف المحافظين وجهابذة السنة مسلمة فقد كانت مبادىء ابن ميمون على ما رأينا مادية محضة ، عريقة في الانكار والالحاد ، تستند الى تعاليم الوثنية واليهودية والمسيحية وبالاخص الى الفلسفة اليونانية أكثر مما تستند الى مبدأ من مبادىء الاسلام . وهذه المبادىء المادية التي ترمي كما رأينا الى سحق جميع تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية هي عماد الثورة على الاسلام ، وهي التي بعثت بمجتمع القرامطة ، وكانت مهداً لقيام دار الحكمة ثم لقيام الاسماعيلية

ونلاحظ أن هذه الثورة على الاسلام كانت أبلغ تقويضاً لتعاليمه وأشد أثراً في مصائره من الثورة على النصرانية . فان الحركات الثورية والسرية التي قامت لهدم تعاليم النصرانية وتحويرها كحركة الهووسيين وثورة الاصلاح البروتستانتية وحركة الالحاد الحديثة التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر وازدهرت في الثورة الفرنسية وبلغت ذروتها في الثورة الشيوعية ، وفي نظريات العلم الحديث ـ لم تصدع كثيراً من سلطان الكنيسة الروحي وان كانت قد أودت منذ بعيد بسلطانها السياسي . ذلك لان السلطة الزمنية لم تستند في الامم النصرانية دائماً الى التعاليم الدينية فكانت الكنيسة بعيدة عن التأثر بتقلبات السياسة والملك ، محتفظة بنفوذها الروحي في جميع العصور ، هذا الى أن النصرانية لم تقف جامدة في وجه الحركات الثورية التي قصدتها بالهدم بل حشدت لمقاومتها جيوشاً من أنصارها المخلصين ، فأنشأت مجالس التحقيق ، ومهدت لانشاء طائفة من الجمعيات السرية الرجعية مثل التياتين والبارنابيت واليسوعيين لترد عن تعاليمها ونفوذها عادية التقويض والهدم . أما السلطة الزمنية في الاسلام فكانت تستند كما رأينا الى التعاليم الدينية في معظم العصور ، ومن ثم كان الدين ضحية الاطماع السياسية دائماً وكان بطش الحركات الثورية بالاسلام شديداً رائعاً

وفي وسعنا أن نلاحظ أيضاً أن ثورة الهدم التي تشهرها الان تركيا الفتاة على جميع التعاليم والتقاليد الدينية والاجتماعية والاخلاقية ليست الا طوراً جديداً من أطوار الثورة على الاسلام ، فقد سحق الترك الخلافة ورسومها ، ومحوا أحكام الشريعة الاسلامية حتى أصولها الجوهرية كاحكام الميراث والزواج ، واستبدلوها بقوانين غربية محضة وأسبغوا عليها صبغة اجتماعية مدنية ، فنزعوا بذلك عن الاحوال الشخصية الاسلامية صبغتها الدينيـة التي احتفظت بها في جميع العصور وما زالت

تحتفظ بها في جميع المجتمعات الاسلاميـة الاخرى . غير أن ثورة التجديد التركية ثورة محلية قوميـة ولا تشبه في شيء تلك الثورات العامة الشاملة التي أتينا على ذكرها [١]

(١) نرى من الضروري أن نلفت النظر الى أننا قد رجعنا في كتابة هـذا القسم الخاص بالثورة على الاسلام الى المصادر السنية فقط واعتمدنا عليها فيما نقلنا من مبادىء الفرق الثورية الاسلامية وتعاليمها وسيرها ، اذ لا توجد لهذه الفرق آداب وسير خاصـة بها يعتمد على صدقها ومن المحتمل أن التحامل او المبالغة بل الافتراء قد تشوب هذه المصادر السنية الخصيمة ، وعلى ذلك فانا نعتقد أن شيئاً من الغموض ما زال يحيط تاريخ الثورة على الاسلام ، وان أقوال المصادر الخصيمة يجب ان تتلى مع التحفظ

الكتاب الثانى

الثورة على النصرانية

والجمعيات السرية والحركات الهدامة التي قامت لهدمها

الفصل الاول

جمعية فرسان المعبد

Les Templiers

(١) الحروب الصليبية وسيلة انتقال النظم السرية الى الغرب . فرسان المعبد ونشأة جمعيتهم . انحرافهم عن مبادئهم (٢) سوء سمعتهم . محاكمتهم في فرنسا . التهم التي نسبت اليهم . تحقيق البابا . مطاردة الفرسان في بقية الدول . حل الفرسان . اعدام الاستاذ الاعظم (٣) استداد بأس الفرسان حقيقة التهم التي نسبت اليهم . تعاليمهم السرية . التماثل بينهم وبين الاسماعيلية . خروجهم على النصرانية (٤) رواية حديثة عن الفرسان . سر الخلاف بينهم وبين البابوية . رسومهم في الالتحاق . غايتهم الحقيقية

١ ـ ننتقل الآن الى الجمعيات السرية الغربية ، والى الدور الذي قامت به في تاريخ العصور الوسطى والحديثة ، والى ما كان لها من أثر في مصائر الكنيسة والمجتمعات والدول

لم تعرف أوربا قبل الحروب الصليبية انشاء الجمعيات السرية على مثل شامل عام كالذي عرفه المشرق ، والاسلام بنوع خاص ، فكانت الحروب الصليبية وسيلة لوقوف الدعاة وأصحاب النظريات الثورية وأحرار المفكرين من أبناء الغرب، على أسرار الجمعيات السرية ونظمها ، والحركات الهادمة وخططها ، من شيوخ الاحرار والدعاة وأقطاب الهدامين والمتآمرين في المشرق . وقد رأينا ان دعوات الهدم والجمعيات السرية بلغت في الاسلام ذروتها من الاحكام والازدهار، فعن المسلمين أخذ الغربيون نظم الجمعيات السرية الدينية والسياسية ، وعلى مثل القرامطة والاسماعيلية وتعاليم دار الحكمة انشئت معظم الجمعيات السرية في الغرب وبالاخص معظم جمعيات الاغتيال المنظم مثل الكربوناري والتهليست ، والاخاء الجمهوري الارلندي وغيرها

عرف الغربيون هذه المبادىء والنظم في مهاد الحروب الصليبية كما عرفوا غيرها من نظم المشرق وشؤونه. وكانت أول جمعية سرية منظمة انشئت على أثر هذا الاحتكاك بين المشرق والمغرب هي جمعية فرسان المعبد، انشئت في سنة ١١١٨م. أي عقب انقضاء الحرب الصليبية الاولى وسقوط انطاكية وبيت المقدس في يد الصليبيين وتعيين جودفروا دي بويون ملكا على بيت المقدس بتسعة عشرة سنة . وقام بانشائها عصبة

من تسعة سادة فرنسيين برياسة هوك دي بايان وجودفروا دي سانتومار لتعنى بحماية حجاج القبر المقدس ، وكان ملك بيت المقدس حينئذ بلدوين الثاني فقدم للجمعية منزلا لتقيم فيه بالقرب من موقع معبد سليمان ، ولهذا سميت بفرسان المعبد واشتهرت بذلك الاسم.وفي سنة ١١٢٨ صادق مجلس تروي المقدس على انشاء الجمعية ، وكذلك صادق عليه البابا ، وأصدرت لفرسان المعبد وثيقة اقسموا فيها بالتزام الفاقة والعفة والطاعة شعاراً للجمعية

قام فرسان المعبد بادىء بدء بطائفة من الاعمال القيمة وامتازوا بالاخلاص والشجاعة في كثير من المعارك ، ولكن التزامهم ألا يعيشوا من غير الصدقات أدى الى أن تقاطرت عليهم الهبات الضخمة من كل صوب ، فكثرت أموالهم ونبذوا قسم الفاقة وانتشروا في الاقطار الاوربية وغدوا قبل نهاية القرن الثاني عشر جمعية غنية شديدة البأس ، وغدت المعارك الصليبية لهم مصدراً للجاه والثروة وناهض زعماؤهم الملوك في الفخامة والسلطان والبذخ فانقلبوا من حماية اخوانهم في الدين الى سلبهم ومن محالفة الصليبيين الى نبذهم بل خيانتهم ومحاربتهم في بعض المواقف ، من ذلك ما ينسب اليهم من أنهم كانوا على تفاهم مع حامية دمشق الاسلامية حينما أخفق الامبراطور كونراد الثالث في الاستيلاء على المدينة سنة ١٢١٩ ، وانهم في سنة ١١٤٥ باعوا الى المسلمين أميراً مسلماً أراد ان يتنصر بمبلغ ستين الف دينار . ثم انهم في سنة ١١٦٦ سلموا بطريق الخيانة حصناً الى الملك نور الدين فشنق اموري ملك بيت المقدس ، منهم اثنى عشر كذلك ينسب اليهم انهم كانوا على اتصال باسماعيلية الشأم ، وشركائهم في تدبير عدة من جرائم الاغتيال التي ذهب ضحيتها عدد من امراء الفرنج وكبار فرسانهم

٢ — وفي أواخر القرن الثالث عشر ساءت سمعة فرسان المعبد ، وغدوا موضعاً للريب في نظر العامة فضلاً عن رجال الدين ، ونسبت اليهم أمور وفضائح كثيرة كالادمان في شرب الخمور والتهتك والاجتراء على الكبائر ، وحامت شبه كثيرة حول مبادئهم الدينية ومعتقداتهم السرية حتى ان البابا كلمنص الخامس في سنة ١٣٠٥ أمر أستاذهم الاعظم وهو يومئذ جاك دي مولاي أن يغادر قبرص حيث كان يعنى بتنظيم القوات الصليبية ، فعاد الى فرنسا مع ستين من اعضاء الجمعية ، ومقدار كبير من المال والفضة والحلي التي جمعها الفرسان في المشرق . وأخذ البابا في تحقيق ما اتهم به الفرسان من الارتداد عن دين النصرانية واعتناق مبادىء الوثنية ، والاغراق في

صنوف الكفر والكبائر . وكان فيليب الجميل ملك فرنسا على وفاق مع الفرسان بادىء بدء ، غير أنه ارتاع بعد لما أذيع عن مبادئهم ومقاصدهم السرية من التهم الشنيعة . فسبق البابا الى مطاردتهم ومحاكمتهم وقبض على جميع فرسان المعبد الفرنسيين في أكتوبر سنة ١٣٠٧ ، ووجه اليهم المحقق العام التهم الآتية :

(١) ان رسوم الالتحاق بجمعيتهم تقترن باهانة الصليب ، وانكار المسيح ، وأعمال فجور شنيعة

(٢) أنهم يعبدون صنما يقال انه صورة للاله الحقيقي

(٣) أنهم يغفلون الفاظ التقديس حين القاء القداس .

(٤) ان زعماءهم يزاولون حق منح الغفران مع أنهم ليسوا من رجال الدين

(٥) أنهم يبيحون ارتكاب العمل الاجتماعي الشاذ

وقد اعترف بهذه التهم كثير من الفرسان ومنهم الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي نفسه ، وقرر بعضهم أنهم عند التحاقهم بالجمعية يقدم اليهم صليب نصب عليه تمثال المسيح ويسألون هل يعتقدون في ألوهيته فاذا أجابوا نعم قيل لهم أنهم على ضلال لان المسيح ليس الهاً بل هو نبي زائف . وقرر آخرون انه قدم اليهم صنم أو رأس ملتحية ليعبدوه ، وآخرون أنهم كانوا يؤمرون بالبصق على الصليب ، وكثيرون منهم أمروا بارتكاب صنوف شائنة من الفجور مثل العمل الاجتماعي الشاذ وأنذروا بالسجن والعذاب اذا رفضوا امتثال الاوامر . ثم قرر البابا كليمنضس الخامس رغم احتجاجه على تصرف فيليب الجميل أن يجري بشأن هذه التهم تحقيقاً حراً ، لان تحقيق المحقق العام الفرنسي كان مقروناً بالتعذيب ، فسمع المحقق أقوال عدد كبير من الفرسان بحضور البابا نفسه ، واستجوب الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي ودعاة الجمعية امام لجنة من الكرادلة ، فأقروا بما نسب الى الجمعية من انكار المسيح وإهانة الصليب ، وأيدوا ما قرروه أمام المحقق الفرنسي العام من ارتكابها لطائفة من الرذائل الممقوتة ، ومع ذلك لم يقتنع البابا باجرام الجمعية بصفة عامة وقرر أن يعين لجنة بابوية للتحقيق في باريس فبدأت عملها في نوفمبر سنة ١٣٠٩ ، واستدعى الاستاذ الاعظم ونيف ومائتين فارس ، وسار التحقيق ببطء على يد جماعة من كبار الاحبار والاساقفة ، فعدل بعض الفرسان ومنهم الاستاذ الاعظم عن اعترافاتهم ، وأيد البعض الآخر صحة التهم الشنيعة التي نسبت الى الجمعية ، وسارت تحقيقات أخرى مع الفرسان في عدة من المدن الايطالية وفي المانيا وانتهت بأن اصدر البابا كليمنضس الخامس قراراً اشار فيه « الى جرائم

الـكفر الشنيع » التي يرتكبها الفرسان . وفي نفس الوقت قبض ادوارد الثاني ملك انجلترا على جميع الفرسان في انجلترا وحقق معهم فاعترف بعضهم بما تقدم من التهم ، وشهد ايضاً بصحتها شهود من الخارج

ولما افتضحت أسرار فرسان المعبد على هذا النحو سخطت عليهم كل الهيئات الدينية في جميع الدول واتخذ البابا الخطوة الحاسمة ، واصدر مجلس فينا المقدس في سنة ١٣١٢ قراراً بحل الجمعية فتشرد الفرسان اينما وجدوا ، ولاقوا في فرنسا أشنع ضروب الاضطهاد والايذاء ، فاحرق منهم أربعة وخمسون احياء في سـنة ١٣١٠ ثم أحرق الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي في مارس سنة ١٣١٤

٣ ـ ومع ذلك فقد نفى بعض المؤرخين عن الفرسان هـذه التهم ونسبوا الى فيليب الجميل أنه حمل على مطاردتهم طمعاً في أموالهم وأملاكهم الشاسـعة . ومهما كانت الحقيقة فانه يوجد ثمة ما يدل على أن الفرسان وصلوا في ذلك العهد الى حد مزعج من الجاه والسلطان والغنى وبلغ من خروجهم على السلطة الملـكية أنهم كانوا يأبون دفع الضرائب . ومن المرجح أن فيليب الجميل خشي أن يتفاقم خطرهم على السلطة الملـكية ، هذا الى ان دعوة الفرسان غدت في كثير من الاحوال خطراً على النظم الاجتماعية والاقتصادية بل الاخلاقية

والواقع أنهم تغلغلوا في جميع النواحي والشئون ، ونظموا لهم فروعاً قوية في جميع البلدان وأحرزوا فيها الاملاك الضخمة ، وباشروا كثيراً من الاجراءات المالية التي تقوم بها البنوك اليوم كاصدار السندات والتحاويل ودفع الارباح عن الودائع ، وادارة الحسابات الخاصة ، وكانوا فوق ذلك عضداً قوياً للسادة والاحبار يفرضون لهم الضرائب على اقطاعاتهم ويحصلونها

والظاهر أن الفرسان كانوا بالنسبة للتهم التي وجهت اليهم مذنبين وأبرياء في نفس الوقت أعني أنهم كانوا يكشفون عن أسرارهم وتعاليمهم الدينيـة الى عدد من الدعاة المقربين وأن السواد منهم كان يجهل هـذه الاسرار او بعبـارة أخرى كان للفرسان طريقتان في تجنيد الاعضاء تقترن احداهما بالانكار وانتهاك تعاليم الدين والاخلاق ولا تستعمل الا مع المخلصين من المتنورين وأحرار المفكرين ، والاخرى عادية للدهماء والكافة . وهذه هي خطة معظم الجمعيات السرية ولا سيما الاسماعيلية . وهذا ما يراه لوازلير في كتابه عن تعاليم الفرسان حيث يقول : « اذا نحن رجعنا الى تعاليم جمعية المعبد كما وصلت الينا لم نجد قط ما يؤيد التهم الغريبة الشنيعة التي اذيعت

في التحقيق . ولكن ألم يكن للجمعية خلاف التعاليم العامة، تعاليم أخرى سواء مكتوبة أو شفوية تخول او تفرض ارتكاب هذه الافعال ، أعني تعاليم سرية لا تكشف الا الخاصة من الاعضاء ؟ »

أما تعاليم الفرسان السرية فموضوع خلاف كبير . يقول البعض ومنهم المؤرخ الالماني رانكه أن نظرية الفرسان السرية هي « نظرية الاسلام في وحدة الاله » ، ويقول آخرون أنها اشتقت من نظريات الملحدين المسلمين ، وأن فارساً يدعى جيوم دي مونبار تلقى مذهب الاسماعيلية على يد شيخ الجبل في مغار في جبل لبنان حينما كان مركز الفرسان في فلسطين . وقد أشار فون هامار الى ذلك الشبه بين تعاليم الاسماعيلية والفرسان ، وأوضحه كلافل مؤرخ البناء الحر في قوله : « يرينا المؤرخون الشرقيون في عصور مختلفة أن جمعية فرسان المعبد كانت ذات علائق وثيقة مع الاسماعيلية ، ويؤكدون التماثل بين الطائفتين ، فيقولون انهما اختارتا نفس اللونين وهما الاحمر والابيض ، واتبعتا نفس النظام ، ونفس المراتب ، فكانت مراتب الفدائيين والرفاق والدعاة في احداهما تقابل مراتب المبتدىء والمنتهي والفارس في الاخرى ، وان كلتاهما تآمرت لهدم الدين الذي كانت تتظاهر باعتناقه أمام العامة ، وأخيراً ان كلتاهما كانت تملك حصوناً عديدة ، الاسماعيلية في آسيا والفرسان في أوربا »

وعلى أي حال فقد كان الفرسان خوارج على النصرانية لا يؤمنون بألوهية المسيح ، ولعلهم كانوا مانوية او ثنوية ، ويعرف لوازلير نظريتهم في الالوهية بقوله : « يعترف فرسان المعبد في نفس الوقت باله خير لا يصل البشر اليه وليست له أشكال مادية ظاهرة ، واله شرير يمثلونه بصنم رائع الشكل ... وهو الاله الادنى ، منظم العالم المادي وسيده ، خالق الخير والشر ، الذي نفث الشر في الخليقة »

٤ — وقد ذاعت في منتصف القرن التاسع عشر نظرية جديدة بشأن مذهب فرسان المعبد خلاصتها أن الفرسان تلقوا عن دعاة المشرق نظرية يهودية تنسب الى القديس يوحنا الرسول ، وانهم لذلك نبذوا دين القديس بطرس وانقلبوا يوحنيين . وترجع هذه النظرية الى رواية ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر في كتابين عن فرسان المعبد أصدرتهما جمعية تسمى « جمعية المعبد » تدعي أنها تنتسب مباشرة الى جمعية المعبد الاولى . وقد جاء في هذين السفرين أن جمعية المعبد لم تنحل قط بل وجدت على كر العصور منذ أيام جاك دي مولاي الذي اختار قبل مصرعه جاك دي لارميني أستاذاً أعظم مكانه ، وان الاساتذة العظام تعاقبوا دون انقطاع من ذلك الحين حتى

نهاية القرن الثامن عشر . ثم انحلت الجمعية مدى أعوام قليلة ، ولكنها أعيدت ثانية في سنة ١٨٠٤ برياسة أستاذ أعظم هو فابري بالابرا . ووردت في أحد السفرين صورة وثيقة استخرجت من محفوظات الجمعية السرية تصف أصل الجمعية وتقرر أن هوك دي بايان أول أستاذ أعظم للفرسان قد تلقى في سنة ١١١٨ أي عام انشاء الجمعية نظرية « الكنيسة النصرانية الاولى » التي ينتسب حبرها الاكبر مباشرة الى القديس يوحنا الرسول . ويقول فابري بالابرا في كتابه عن الفرسان أن نظرية الفرسان السرية كانت بلا ريب تخالف تعاليم الكنيسة الرومانية بحيث يجب أن ننسب نشاط البابوية في مطاردة الفرسان الى هذا السبب ويروى عن الجمعية ما يأتي :

« في سنة ١٣٠٧ أخفى الفرسان كتبهم ووثائقهم السرية عن السلطات فأودعت في مخابىء أمينة حتى هذا العصر (أوائل القرن التاسع عشر) . وقد غدونا اليوم على يقين من أن الفرسان كانوا يجوزون عدة اختبارات دينيـة وأخلاقيـة قبل أن يصلوا الى مراتب الالتحاق المختلفة ، فمثلا قد يؤمر المبتدىء أن يطأ الصليب او يعبد الصنم بحيث يعدم اذا فعل ، فاذا استسلم الى الرعب الذي أريد أن يلقى في نفسه اعتبر غير اهل لان يرقى الى المراتب العليا ، وفي وسعنا أن نتصور من ذلك كيف أن بشراً أضعف أو أدنى خلقاً من أن يجوزوا هـذه التجارب قد اتهموا الفرسان بارتكاب الفعال الشنيعة واعتناق التعالم الخرافية »

ومهما كان لون الالحاد الذي اصطبغ به مذهب جمعية المعبد ، فلا ريب انها كانت جمعية هدم تعمل في الخفاء على سحق المعتقدات الدينية من أساسها، وذلك برغم الفروق الدينية التي نشأت فيها، ورغم الصبغة الدينية التي انتحلتها في المبدأ . وبينما كان الاسماعيلية في المشرق يعملون على تحطيم تعالم الاسلام الدينية والاخلاقية ، كان فرسان المعبد في الغرب يعملون على تحطيم تعالم النصرانية ، ومحو رسومها

الفصل الثاني

عصور السحر والخفاء

القسم الاول

(١) تطور الهدم والالحاد . قيام الالبيين دعاة الالحاد. مراتبهم ومبادئهم . أصلهم وذيوع دعوتهم . نشاط الكنيسة الى مطاردتهم (٢) تعاليم الالبيين وشعائرهم . القداس الاسود (٣) عبادة الشيطان أو السحر الاسود . الصراع بين دعاته وبين الكنيسة (٤) جيل دي رتز . تحالفه مع السحرة . مراسلته للشيطان . جرائمه . محاكمته واعدامه (٥) انتظام السحرة الى طائفة . ذيوع الخفاء . مطاردة السحرة . نظرية السحر (٦) اصل دعوة الخفاء . اليهود والدعوات الهدامة . مدرسة اسحاق لوريا . اليهود أقطاب السحر . اتهامهم بالشعائر الدموية . التوسل الى الشيطان فكرة يهودية (٧) طور جديد لدعوة الخفاء . جمعية الصليب الوردي . أصلها وقصة نشأتها . الاخ روزنكرويتس . قوانين الصليب الوردي (٨) فلسفة الصليب الوردي . العلاقة بينها وبين جمعية الفرسان . علم الصليب الوردي . نزعتها الروحية وغايتها الهدامة

— ١ —

القداس الاسود

١ ــ لم تخمد دعوة الهدم بمطاردة الفرسان وحل جماعاتهم ، ولكنها نفذت في الواقع الى أعماق البيئات المظلمة في مختلف الدول الاوربية ، واتخذت مبادىء الالحاد والثورة على الدين أطواراً جديدة . ونهضت طوائف سرية أخرى في عهد الفرسان أنفسهم لبث الدعوة الهادمة والعمل على تقويض النصرانية ومبادئها الدينية والاخلاقية

اتخذ هذا التطور شكلا واضحاً في أواخر القرن الثاني عشر حيث ظهرت في جنوب أوربا وفي غربها جماعات كثيرة ملحدة ، واجتمعت هذه الحركة المشتتة في جنوب فرنسا تحت لواء جمعية جديدة تعرف بالالبيين « Albigenses » نسبة الى البي احدى المدن التي كان للجمعية فيها مركز كبير . وكان مركزها العام في مدينة تولوز . وكان الالبيون نصارى في الظاهر غير أنهم كانوا في الواقع جمعية ثورية هادمة تعتنق في الخفاء تعاليم المانوية والثنوية ، وتنقسم طبقاً لنظم الجمعيات السرية الى مراتب مختلفة ، تضم الاولى جماعة المتنهين أو « الكمل » ، وقد كانوا فئة قليلة يتظاهرون بالزهد والتقشف ولا يأكلون اللحم ، ويمقتون الحلف والكذب ، وكانوا موضع الاجلال العميق

والخضوع الاعمى من أبناء المرتبة الثانية وهم « المؤمنون » . وقد كان سواد الجمعية يعتنقون كل رذيلة ، ويحلون السلب والزنا والحنث ، ويعتبرون الزواج فسقاً ، ويحلون معاشرة المحارم وغيرها من صنوف الأثم . بيد انهم لم ينفذوا الى اسرار الجمعية وتعاليمها الخفية وقد كان علمها قاصراً على المتنهين

وأصل الالبيين غامض جداً ولكن المرجح انهم فريق الكاتاريين ، وهم طائفة إلحادكبيرة ظهرت في بلغاريا وشرق الادرياتيك في القرن الثاني عشر ، واشتدت دعوتها وذاعت في أنحاء كثيرة ، وكان يجتمع تحت لوائها جموع شتى من الوثنيين والملحدين وأحرار المفكرين والسحرة . غير أنها لبثت مشتتة لا تجمعها حركة عامة . فلما قام الالبيون في جنوب فرنسا بدعوة الالحاد والهدم الفت مهاداً خصيبة في لانجدوك بين الاشراف والسادة . وكان سكان هذا الاقليم حينئذ مزيجاً من القوط والغاليين والرومانيين والساميين ، وكانوا ينزعون الى الثورة دائماً تارة على الحكام وأخرى على أحبار الكنيسة ، فاعتنق الدعوة الجديدة كل ناقم وكل مضطهد ، وهرع الى لوائها فلول الملاحدة والوثنيين والسحرة . وقامت على قول ميشليه عصبة من كل اولئك الذين يسعون الى الظلام ، ويعربون عن سخطهم بالتدنيس والالحاد والجريمة ، لتحقق قبل كل شيء غرضاً اجتماعياً ، فكانت عصبة المغلوبين والمضطهدين . واذا كانت قد اتخذت صبغة الدين الجديد ، فذلك لان الكنيسة كانت حينئذ تحكم المجتمع ، ولان الذي قام بالدعوة حزب قوي يعمل باسم الدين

اجتاحت الدعوة الجديدة جنوب فرنسا بسرعة ، وأصابت تعاليم الكنيسة بضربات شديدة ، ومال السادة والفرسان الى صنوف الاباحة التي بثها الالبيون ، فانتشر تعدد الزوجات والتسري ، واجتاح الفجور معظم الطبقات ، وانحلت الخلال والاخلاق ، وسحقت سيادة الكنيسة وهيبتها . وارتاع البابا انوسان الثالث لذلك الخطر الداهم فدفع سيمون دي موتفور الى محاربة الالبيين ، واضطرمت في الجنوب حرب صليبية في فاتحة القرن الثالث عشر ، مزق فيها الالبيون بعد معارك طاحنة وهلكت زهرة الفروسية والسادة في الجنوب

٢ ـ وكانت خطة الالبيين في بث الدعوة تدور حول فكرة حديثة هي محاربة مبادىء الاخلاق والسلطة بالانضواء تحت لواء الشيطان ، والشيطان في تعاليمهم هو خصم الله الذي يسيطر على جميع النظم الاجتماعية التي ترهقهم وتعصف بحرياتهم ، ومن ثم كان للشيطان عبادة وكان له قداس ، وكان للملاحدة والسحرة اجتماعات خفية

كاجتماعات النصارى للصلاة والتعبد . وهي فكرة تستند الى تعاليم المانوية القائلة بأن الخير والشر متكافئان في القدرة وان الشيطان كالله خالد قاهر . وهكذا أنشأ الالبيون رسوماً جديدة للدين والعبادة ، وبدىء باقامة ذلك القداس الغريب الذي يعرف « بالقداس الاسود » لاعتباره خروجاً على شعائر الكثلكة . وكان دعاة الالبية يقيمونه ليلا في الغابات الكثيفة او الوديان السحيقة أو فوق رءوس الجبال ، فتهرع اليه تلاميذهم من كل صوب مابين سحرة وكفرة وأشرار وخوارج ، يعبدون الشيطان ويسبون المسيح ، ويغرقون في صنوف الفجور والاباحة . وكانوا يقتفون أثر الاسماعيلية فيسقون المصلين المخدر قبل القداس ، ويوهمونهم بأن ما رأوه أثناء سباتهم من الاحلام اللذيذة والتصورات الخلابة انما رأوه في عالم الشيطان وفي جنته التي تفتح أبوابها للمخلصين من عباده

كانت الدعوة الالبية ثورة خطيرة على تعاليم النصرانية السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، سيما وقد لبثت رغم سحق الالبيين مستقى لتطورات جديدة من فورة الالحاد والهدم

— ٢ —

عبادة الشيطان أو السحر الاسود

٣ ـ أمعنت الكنيسة في المطاردة ، ولكن الثورة على النصرانية لبثت تضطرم في الخفاء واتخذت التعاليم الثورية في أوائل القرن الرابع عشر وجهة جديدة ، هي ايثار الشر وعبادة الشيطان ، أو التوسل بالقوى الشريرة الخفية على محاربة القوى الخيرية ، وبالظلمات على النور ، أو بعبارة أخرى السحر الاسود . وقد كان التوسل بالخفاء والظلمات معروفاً منذ العصور الغابرة ، وللسحر دولة ترجع الى أقدم المجتمعات الانسانية سواء في المشرق والمغرب ، ولكن حركة « السحر الاسود » التي ظهرت في خاتمة القرون الوسطى واجتاحت كل المجتمعات الاوربية كانت دعوة منظمة ، وثورة واسعة النطاق على سلطة الكنيسة وتعاليم النصرانية وان بدت في ظاهرها طائفة من الحركات المحلية المتقطعة

وفكرة هذا المذهب هي التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين ، وسحق أقدس رسومه ورموزه ، وهو ما يعنيه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية

والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له ، والوجهة الى غير الله كفر »

والواقع ان ريحاً عامة شاملة من شغف الخفاء لبثت نحو ثلاثة قرون تعبث بعقلية المجتمعات الاوربية ، وتمعن في تحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنسية ، ولبثت الكنيسة من جانبها تطارد هذه الحركة بما وسعت من قوة وعزم ، تارة بانشاء الجماعات الدينية الرجعية ، وأخرى بواسطة مجاس التحقيق ، وسنأتي بايجاز على سيرة هذه المعركة التي تملأ صحيفة من أغرب صحف العصور الوسطى

٤ — كان إمام المذهب الجديد واكبر دعاته الماريشال جيل دي رتز ، وهو فارس فرنسي شهير وُلد في مشكول من أعمال بريتانيا (فرنسا) في سنة ١٤٠٤ ، وخاض غمار المعارك الداخلية التي كانت تضطرم حينئذ بين الامراء الاقطاعيين ، ثم تولى القيادة في جيش جان دارك ، ورفع الى رتبة الماريشال ، وكان « للعذراء » عضداً ومرشداً حتى هزمت وأسرت وأحرقت . فارتد حينئذ الى ضياعه الشاسعة في بريتانيا ، وأطلق العنان لاهوائه وبذخه حتى بدد معظم ثروته وهو في شرخ شبابه . ثم فكر في التماس المال من طريق السيمياء ، واستقدم الكيمائيين والسحرة من كل فج ولا سيما من ألمانيا وايطاليا حيث كان للكيمياء والسحر شأن ، وكان يظهر أعظم الكيمائيين والسحرة ، حتى غدا قصره معهداً للسيمياء والشعوذة ، ودفع به السحرة الى خوض غمار حياة غريبة من التماس الوصول الى عالم الغيب ، وتبديد الخفاء ، والتوسل بالشيطان . وكان الماريشال في المبدأ نصرانياً مخلصاً غير أنه ارتد عن دينه بتأثير حياته الجديدة التي تفرغ اليها بجسمه وروحه ، وحمله أصحابه السحرة على أن يلتمس محالفة الشيطان بالمراسلة ، فوجه اليه نداء وقعه بدمه يلتمس فيه منه « العلم والقوة والمال » متعهداً في نظير ذلك بالقيام بكل ما يطلبه اليه سوى الحياة والروح ، وألقى الرسالة في مرج من مروج مشكول ، ولكن الشيطان لم يظهر ولم يجب هذا النداء رغم التضرعات التي سيقت اليه والصلوات التي أقيمت لذكره

عندئذ ارتد جيل دي رتز الى حياة اثم رائعة ، وعكف على استعطاف الشيطان والتوسل اليه بأشنع ضروب الجريمة ، فاسرف في اقامة الرسوم والشعائر السوداء ، وامعن في الفسق وغيره من صنوف الاباحة والرذيلة ، وتدرج من ذلك الى احياء الشعائر الوثنية واراقة الدماء البشرية، فبث أعوانه في جميع الانحاء يخطفون ويسرقون الاطفال عشرات ومئات من بنين وبنات، وكان الماريشال يتولى بنفسه تعذيب الفرائس

وارهاقها بأروع الاساليب ، وقد اختفى على هذا النحو مئات عدة من الاطفال في الانحاء المجاورة ما بين سنة ١٤٣٢ وسنة ١٤٤٠ . وضج أهل هذه الانحاء واستغاثوا من ذلك الاجرام الشنيع بالسلطات الكنسية والمدنية. ووصلت الى أسقف نانت عدة بلاغات سرية عما يرتكبه جيل دي رتز من العبث والفجور وسفك الدماء وثبتت له الحقيقة الرائعة من تحرياته السرية ، فسعى الملك الى البابا في اصدار قرار كنسي بان جيل دي رتز « قد احتوى عليه الروح الخبيث ونسي سلامه » ، وانتهى الامر بالقبض



جيل دي لافال ـ ماريشال دي رتز

على الماريشال في قصره في مشكول وتقديمه الى محكمة دينية مدنية متهماً بالكفر والردة والاتصال بالشياطين ، وقتل الاطفال . وبدأت هذه المحاكمة الشهيرة في اكتوبر سنة ١٤٤٠ فانكر الماريشال بادىء بدء ما نسب اليه ، وكان ثبت الاتهام طويلا أسند فيه الى الماريشال انتهاك حرمة الدين ، ومحاولة الاتصال بالشيطان ، وقتل الاطفال تقرباً اليه ، مقروناً بجرائم « تدنس الهواء الذي يستنشق » والفجور ، وتدنيس القداس وغيره من رسوم الكنيسة ، وقراءة الكتب المحرمة وغيرها ، ووصف الماريشال بأنه كافر ، فاسق ، أخ للارواح الخبيثة ، مشعوذ ، قاتل للاطفال ، مزاول للسحر ، مرتد ، وثني الى غير ذلك ، وأصدرت المحكمة حكمها بادانة الماريشال ،

فثار الماريشال لذلك بادىء بدء غير انه عاد بعد ذلك بيومين خاضعاً ذليلا باكياً واعترف بجرائمه اعترافاً تاماً . « وكان الاعتراف هائلا مروعاً حتى ان القضاة والكهنة الذين اعتادوا الوقوف على أشنع الاسرار والجرائم ارتجفوا رعباً لتلك الامور التي لم يسمع بمثلها ورسموا اشارة الصليب » ثم صدر حكم الهيئة الدينية بنفي الماريشال من الكنيسة ، وصدر حكم الهيئة المدنية في نفس اليوم بشنقه واحراقه ، فقابل مصيره بشجاعة وثبات

٥ ـ والظاهر ان طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السيمياء والسحر قد أنشئت في ذلك العصر حوالي سنة ١٤٦٠ ، حيث اندس السحرة والمشعوذون الى جميع المجتمعات الاوربية وعهد في معظم الدول الى القضاء المدني بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة لاستفحال أمرها واشتداد عيثها . وكانت ميول العصر وتقاليده ترمي الى أن تلحق المخترعين والكيمائيين وغيرهم من النابهين بطائفة السحرة وأخوة الشيطان ، وكان العلم يعتبر من العناصر الشيطانية حتى أن معظم العلماء والفلاسفة الذين كانت أفهامهم تسمو على أفهام هذا العصر كانوا معرضين دائماً للريب والشبهات

ومنذ فاتحة القرن السادس عشر هبت على جميع المجتمعات الاوربية ريح عامة شاملة من دعوة الخفاء ، وظهر السحرة في كل مكان ، ونشطوا الى بث تعاليمهم ومعتقداتهم بين العامة فضلا عن الخاصة والسادة ، فنشطت السلطات الدينية والمدنية في مختلف الدول الى مطاردتهم اتقاء لما ينالها بسبب انتشار تعاليمهم من أسباب الانحلال والتقويض ، ففي سنة ١٥١٥ أحرق في جنيف خمسمائة ساحر في ثلاثة أشهر فقط ، وأحرق في بامبرج ستمائة ، وفي فرتمبورج تسعمائة ، وقضى برلمان تولوز باحراق أربعمائة في حكم واحد . وكانت معظم طوائف السحرة في فرنسا تجتمع في الاقاليم النائية مثل غسقونية ونورماندي والفلاندر ودوفينه . ويعتقد جان بودان واضع سيرة السحرة أن عددهم كان يبلغ في ذلك الحين في مختلف الامم زهاء مليونين

وكانت فكرة السحر الجوهرية في هاتيك العصور هي محالفة الشيطان . وهذا الميثاق إما صريح او ضمني ، وكل من قام بأعمال شيطانية يعتبر أنه قبل سيادة الشيطان . ونتيجة هذا الميثاق انكار التنصير إذ الشيطان على قولهم يمحو آثار الرسوم القدسية ويضع مكانها طابعه الخاص . ويجب على العضو طبقاً لهذا الميثاق أن يشهد الشعائر الرسمية والقداس السود وأن يشترك في ارتكاب جرائم التدنيس والقربان الدموي بسفك الدماء البشرية وغيرها من صنوف الفجور والاباحة

٦ ـ وأصل هذه الدعوة السرية الى الخفاء والسحر محوط بالغموض ، وان لم

يك ثمة شك في غايتها الجوهرية وهي هدم تعاليم النصرانية الروحية ومبادئها الاخلاقية، وتقويض النظم الاجتماعية من أسسها . فيرى بعض الباحثين مثل ديشان [١] ان هذه الدعوة ترجع الى تعاليم الكابالا السرية وهي التعاليم العبرية في أمور الخفاء ومدارك الغيب . ويضيف البعض الآخر الى ذلك أن هذه الدعوة التي اجتاحت أوربا مدى قرون ثلاثة لم تكن سوى أثر من الجهود السرية التي يقال أن اليهود يبذلونها منذظهور النصرانية والاسلام في سبيل هدمهما انتقاماً لدينهم . ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات الهدم الاسلامية ولا سيما دعوة عبد الله بن ميمون التي أسفرت كما رأينا عن انفجار أعظم حركات هادمة عرفها الاسلام ، فيقولون ان اليهود هم الذين نظموا مقاومة الاسلام منذ ظهوره وحشدوا الدعاة لافساد تعاليمه ، وان ميمون بن ديصان وولده عبد الله كانا يعملان على بث مبادئهما السرية في الالحاد والهدم بتحريض وتعضيد من الدعاة اليهود [٢] . والواقع ان نفوذ اليهود استفحل في اوربا في القرن الخامس عشر وغدوا قوة حقيقية في اسبانيا والبرتغال وايطاليا ، ونفذوا في منتصف القرن الخامس عشر الى دوائر فيرنتزا العلمية التي كانت زاهرة في ذلك الحين ، وأسس علامتهم اسحاق لوريا المدرسة الكابالية الحديثة في ايطاليا في منتصف القرن السادس عشر ، وصيغت تعاليمه الى منهج عملي للاتصال بعالم الغيب وكتابة الطلاسم ، وشعوذة الارقام والحروف . وعلى الجملة فقد كان اليهود أساتذة السحر وأقطابه في القرون الوسطى ، واليهم ينسب فولتير في قصته « هنرياد » الشعائر الدموية التي أتينا على ذكرها وصفها في قطع شعرية بليغة منها :

في شبح الليل ، تحت قبو مظلم
يسود السكون اجتماعهم الدنس
وعلى ضوء مصباح سحري شاحب
يقام هيكل دنس فوق قبر
وقد نظمت السيوف فوق هذه الجدران الحالكة
تغمس أطرافها في أوعية من الدم
هي آنية منفرة لخفائهم المرعب
وراهب هذا المعبد احد أولئك العبريين
الذين يفرون من اضطهاد الارض والناس كلهم
يجرون بؤسهم العميق من جدار الى جدار

---

(١) Deschamps : Les sociétés sécrètes et la société

(٢) قد أشار ابن الاثير الى ذلك الرأي في كلامه عن اصل الدولة العلوية بافريقية (ج ٨ ص ٩)

وقد ملأوا منـذ بعيد كل الامم
بطائفة عتيقة من الاساطير والخرافات . . . الخ

ويقول ڤولتير : « كان اليهود هم الذين يلتجىء اليهم عادة في تأدية الشؤون السحرية . وهذا الوهم القديم يرجع الى أسرار الكابالا التي يزعم اليهود أنهم وحدهم يملكون أسرارها . وكانت كاترين دي مديتشي والماريشال دانكر وكثيرون غيرهما يستخدمون اليهود من اجل هذا الامتياز » . وتهمة السحر الاسود هذه تنسب الى اليهود منذ أقدم العصور ، وكثيراً ما اتهموا بتسميم الآبار ، وارتكاب القتل اجراء للرسوم ، واستخدام الآنية الكنسية المسروقة لاعمال التدنيس . واذا كانت تشوب هذه الروايات مبالغة عليها التحامل القومي ووهم القرون الوسطى ، فليس من ريب في أن اليهود قد جعلوا انفسهم موضعاً للريب والشبه بالانهماك في مزاولة فنون السحر . وأكثر من ذلك ان التوسل الى الشياطين فكرة يهودية في الاصل ، بل هو من تقاليد اليهود ومعتقداتهم القومية ، فقد ورد في التلمود مثلا : « اذا استطاعت العين أن تبصر الشياطين التي تعمر الكون كله كانت الحياة ضرباً من المستحيل ، ذلك لان الشياطين أكثر منا عدداً ، وهم يحيطون بنا من كل صوب ، ولكل منا على يساره الف شيطان ، وعلى يمينه عشرة آلاف » ويعدد التلمود فوق ذلك الطرق التي يستطيع الانسان ان يبصر بها الشياطين وغيرها من ضروب التخريف والوهم

ولا ريب ان السحر كان قوة عظيمة في مثل هاتيك العصور التي كان يعصف فيها الجهل المطبق بعقلية المجتمع ، وكان للخرافات والتقاليد الدينية السخيفة على النفوس سلطان قاهر . وكان التماس السحرة لعالم الخفاء والغيب فتنة خلابة للذهن البشري ، ومن ثم كان نفوذهم ، وكان انتشار تعاليمهم وطرقهم في جميع الاقطار

هذا وسنعنى في فصل قادم بالطور الجديد الذي تطورت اليه دعوة الخفاء والسحر في القرنين السابع عشر والثامن عشر وما كان له من أثر في مجتمعات هذه العصور

— ٣ —

جمعية الصليب الوردي

أو صليب الندى

٧ — رأينا دعوة الخفاء في طورها السابق تتخذ صبغة الشعوذة الدينية وتستند الى الوسائل النفسية والروحية ، ولكن حركة أخرى تستند الى نوع آخر من

الاساليب والوسائل الخفية كانت تنتظم في ذلك الحين ، وتعنى بناحية في المباحث تميل نوعاً الى الصبغة العلمية فتحاول انتزاع أسرار الطبيعة ، بدرس العناصر وتذليلها وتحليل المعادن ، وتركيب الجواهر والعقاقير وغيرها . وكان قوام هذه الحركة جمعية سرية تعرف بجمعية الصليب الاحمر او صليب الندى Die Rosenkreuzer ، ظهرت لاول مرة في المانيا في أوائل القرن السادس عشر . غير أن أصلها كمعظم الجمعيات السرية غامض جداً الى حد أن البعض ينكر وجودها التاريخي

والظاهر أنها قامت على دعامتين الاولى تعاليم ثيوفراستوس فون هوهنهايم الذي يعرف باسم بارسيلسوس ، وهو ولد طبيب الماني وُلد حوالي سنة ١٤٩٣ ، وتجول في المشرق أعواماً طويلة ، وقيل انه وقف هنالك على تعاليم سرية نظمها بعد الى طريقة لمعالجة الامراض . وقد استقى بارسيلسوس بلا ريب معارفه هذه من تعاليم الكابالا السرية ، بيد أنه لم يكن من تلاميذها ، ولم يكن متآمراً أو مشعوذاً بل كان عالماً نابهاً ومفكراً مستقلا . والثانية من تعاليم الكابالا نفسها ، وقد كان اليهود أبرع السيمائيين في هذه العصور وكانت المدرسة الكابالية عندئذ في ذروة الازدهار

وقد رويت سيرة جمعية الصليب الوردي لاولمرة في عدة نشرات صغيرة ظهرت في أوائل القرن السابع عشر وكانت أساساً لكل رواية كتبت عن هذه الجمعية حتى عصرنا . واليك ملخص القصة التي أتت عليها هـذه النشرات تاريخاً لاصل جمعية الصليب الوردي

« ان ابانا طيب الذكر ، رفيع الفهم ، وأخانا ك . ر . اي كرستيان روزنكرويتس[1] هو الماني ، وهو رأس جمعيتنا ومؤسسها ، وُلد سنة ١٣٧٨ ، وفي سن السادسة عشرة سافر الى المشرق مع الاخ ب . ا . ل . الذي اعتزم زيارة البقاع المقدسة . فلما وصلا الى قبرص توفي الاخ ب . ا . ل وعلى ذلك لم يصل قط الى بيت المقدس . أما الاخ ك . ر . فقد سمع بعض الحكماء في دمشق من بلاد العرب ، وبالعجائب العظيمة التي يقومون بها ، فسافر بمفرده الى دمشق وهنالك استقبله الحكماء ، وعكف على درس الطبيعة والرياضة ، وعلى ترجمة كتاب «م» الى اللاتينية . ثم سافر الى مصر بعد ذلك بأعوام ثلاثة ، ومنها سافر الى فاس حيث تعرف بطائفة من الناس

(١) روزنكرويتس Rosenkreuz هي كلمة ألمانية مركبة معناها الصليب الوردي ، وقد يكون مقطعها الاول مشتقاً من أصل لاتيني هو ros ومعناه الندى ، ومن ثم سميت الجمعية بصليب الندى

تعرف « بالاولين » فتلقى عنهم كثيراً من الاسرار . وكثيراً ما كان يقول أن سحر هذه الطائفة لم يكن نقياً ، وان تعاليمهم السرية كانت ممزوجة بدينهم ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجني من تعاليمهم خير الفوائد . وبعد عامين غادر الاخ ك . ر . مدينة فاس وأبحر الى اسبانيا ومعه تحف ثمينة عديدة . وهنالك اتصل بالحكماء وباحثهم ، واذ كان لا يضن بنشر شيء من أسراره ومعارفه فقد بين كيف أنه يمكن انشاء جمعية في أوربا تستطيع أن تجني من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ماتستطيع أن تفيض منه على الملوك ما يسد حاجاتهم الضرورية وأغراضهم المشروعة . . »

ثم عاد كرستيان روزنكرويتس الى المانيا حيث « لا تدعو الحاجة اليوم الى علماء أو سحرة أو كاباليين ، او اطباء او فلاسفة » وهنالك بنى بنفسه منزلا صالحاً أنيقاً « كتب فيه رحلته وفلسفته وأدمجهما معاً في أثر خالد حق » . وبعد خمسة أعوام قضاها في تأمل وتفكر عادت الى ذهنه فكرة الاصلاح المنشودة . فاختار بعض اخصائه مثل الاخ ج . ف . والاخ ي . ا . والاخ ي . و . وكان الاخير « عظيم الخبرة واسع الاطلاع على أسرار الكابالا كما يؤيد ذلك كتابه » ليؤلفوا معاً جمعية من الدعاة ، « وعلى هذا النحو بدأت جمعية الصليب الوردي » . ثم ضم اليها بعد ذلك خمسة اخوة أخر كلهم ألمان ماعدا الاخ ي . ا . وبنى الثمانية بناءها الجديد المعروف « بالروح القدس » ، وأبرموا الاتفاق الآتي :

أولا — يجب ألا يدعي أحدهم شيئاً سوى شفاء المرضى وذلك دون مقابل

ثانياً — يجب ألا يرغم أحد من الذرية على ارتداء زي معين من الملابس ، بل يترك ليختار زي بلده

ثالثاً — يجب أن يجتمعوا كل عام في يوم « س » في منزل « الروح القدس » أو يبين الغائب سبب غيابه

رابعاً — يجب أن يبحث كل أخ عن شخص فاضل يخلفه عند وفاته

خامساً — يجب أن تكون كلمة « ك . ر . » هي خاتمهم وطابعهم وشعارهم

سادساً — يجب أن تبقى الجمعية سرية لمدة مائة عام

ثم توفي الاخ كرستيان روزنكرويتس ، ولكن بقي تاريخ وفاته ومكانها والبلد الذي توفي فيه سراً لا يعرف . والتاريخ المجمع عليه هو سنة ١٤٨٤ . وفي سنة ١٦٠٤ اكتشف الاخوة الذين كانت تتألف منهم عندئذ الهيئة العليا للجمعية باباً كتب عليه بأحرف كبيرة ما يأتي : « يفتح بعد مائة وعشرين سنة » ، ففتحوا الباب ، فوجدوا

قبواً قد مدد فيه جسم روزنكرويتس تحت لوحة نحاسية ، وكان الجسم سليماً صحيحاً مشتملا على جميع ملابسه وحليه ، رافعاً بيده الخاتم « ا » الذي هو اكبر ذخائرنا بعد التوراة ، والى جانبه عدد من الكتب بينها كتاب بارسيلسوس الذي لم يكن عضواً في جمعيتنا

والآن يعرف الاخوة جميعاً أن سوف يحدث بعد حين « اصلاح عام في الامور الروحية والبشرية »

ويصرح الاخوة في وثائقهم هذه أنهم يؤمنون بالنصرانية ، ويقولون : ان فلسفتنا ليست بدعة ، ولكنها تتفق مع ما تعلمه آدم بعد سقطته ، وما استعمله موسى وسليمان . . . ، وهي التي استطاع افلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم أن يقفوا على أسرارها ، والتي نبغ في معرفتها ابراهيم وموسى وسليمان ، وخصوصاً فيما تقول به « التوراة » ذلك الكتاب العجيب

٨ ـ والظاهر مما تقدم أن دعوة الصليب الوردي كانت طبقاً لهذه الوثائق مزيجاً من التقاليد السرية القديمة التي تناقلها الاحبار من فلاسفة اليونان، ومن أقطاب الكابالا اليهودية . على ان الرواية المتقدمة لا تستند الى أساس تاريخي ، بل يرى البعض أنها خرافة محضة وان جمعية الصليب الوردي لم توجد قط ، وان كل ما ورد في النشرات كان خيالا ابتدعه شخص يدعى فالنتين اندريا ليكون حلماً يعمل على تحقيقه . ويرى البعض الآخر ومنهم ميرابو الذي درس تاريخ الجمعيات السرية الالمانية أثناء إقامته في المانيا وكان بناءً حراً وعضواً في « الشعلة الباڤارية » ان جمعية الصليب الوردي لم تكن سوى جمعية فرسان المعبد القديمة التي لبثت قائمة في الخفاء باسم جديد . ويقول دي كانتلو في كتابه عن الفرق والجمعيات السرية ما يأتي: « ان الفرسان الذين تركوا الجمعية (جمعية المعبد) في فرنسا ، لاذوا بالاختفاء وانشأوا جمعية الكوكب الوضاء والصليب الوردي التي انتشرت في القرن الخامس عشر في بوهيميا وسيليزيا . وكان كل كبير من دعاة هذه الجمعية يلزم ان يحمل طول حياته صليباً احمر وأن يتلو في كل يوم صلاة القديس برنار » ويقول ايكر في كتابه عن البناء الحر : ان رسوم جمعية الصليب الوردي ورموزها وأسماءها استعيرت كلها من الفرسان ، وان الجمعية كانت تنقسم الى سبع مراتب على عدد أيام الخلق السبعة مما يدل على انها كانت ترمي الى كشف الخفاء ، والبحث في اصل الخليقة وأسرار الطبيعة . ولكن آخرين ينكرون هذه العلاقة بين فرسان المعبد وجمعية الصليب الوردي لان الفرسان لم يكونوا كيمائيين ، ولم تكن لهم مزاعم علمية

بل كانوا طائفة سرية دينية خارجة على النصرانية . اما اخوة الصليب الوردي فكانوا قبل كل شيء جماعة علمية راقية . والظاهر أن جمعيتهم لم تكن في احكام النظام، والتدرج في المراتب ، كجمعية الفرسان أو جمعية البنائين الاحرار ، وانهم كانوا على الارجح أفراداً متفوقين يعنون بالخفاء والمباحث الطبيعية . أما التمسك بأذيال الكتمان فقد كان محتوماً في عصر كان البحث العلمي يقرن فيه بالسحر وينظر الى العلماء والمخترعين بعين الظنون والريب

على ان علم اخوان الصليب الوردي موضع للريب ايضاً ، فلم يثبت انهم وفقوا الى شيء من الاختراعات العلمية أو فازوا بحل معضلات السيمياء وتحويل المعادن السفلى الى المعادن الكريمة وان كان الثابت أنهم كانوا كيمائيين ، وكانت السيمياء شغلهم الشاغل . وفي ذلك يقول وايت في كتابه عنهم : « اعتدنا ان نعتبر أعضاء الصليب الوردي بشراً ذوي مواهب راقية . وقوات خارقة ، وانهم سادة الطبيعة وملوك العالم الفكري ، . . . ولكنهم يعترفون في وثائقهم أنهم ليسوا الا شعبة من الكفر اللوثري، تعترف بالسيادة الروحية لامير سياسي ، وتعتبر البابا عدواً للنصرانية ، ونراهم يضطرمون بنفس الشهوات ، ويعتنقون نفس الافكار التي كانت لمن حولهم من الناس ، ان الصوت الذي يخاطبنا من وراء القناع الخفي لجمعية الصليب الوردي لا يأتي من عرش عقلي . . . »

أما نزعة الصليب الوردي الروحية فقد كانت عداء للنصرانية وانكاراً لصفات المسيح . وذكر كاتب قديم : « ان الجمعية كانت عصابة من اليهود والكابالين العبريين يرى مذهبهم أن كل الاشياء تختفي في ظل جلال الحقيقة او في ظل الخفاء المقدس » وذكر آخر : « ان الشيطان كان إمامها ، ومبادؤها انكار الله ، والطعن في مبدأ التثليث وتحقير العذراء وجميع القديسين » ، وتوجه فوق ذلك الى الجمعية تهم أخرى كالتحالف مع الشيطان،وقتل الاطفال ، وتركيب السموم،والرقص مع الشياطين وغيرها

وعلى أي حال فانا نرى مما تقدم أن جمعية الصليب الوردي لم تكن سوى شعبة من شعب الثورة على النصرانية ، وثمرة لحركة الهدم الشاملة التي كانت تقصد الى سحق جميع المبادىء الدينية والاخلاقية في العصور الوسطى

الفصل الثالث

عصور السحر والخفاء

القسم الثاني

(١) تطور أساليب الخفاء . شغف السيمياء والسموم. سانت كروا و لمركيزة دي براتفليه . جمعية السحرة والسيمائيين . انتماؤهم الى جمعية سرية رئيسية . مراتب هذه الجمعية ورسومها . من هم زعماؤها . العلاقة بينها وبين الصليب الوردي (٢) ذروة الخفاء . فردريك مسمر وجمعيته السرية (٣) اقطاب السحرة والافاقين . الكونت سان جرمان وجمعيته . مزاعمه وخرافاته . لاسكاريس . كاجليوسترو وجمعيته . السحرة الآخرون . من هم أولئك الدعاة (٤) الخفاء الحديث . حركة الروحيين

— ١ —

عصر السموم

١ ـ في منتصف القرن السابع عشر وصلت حركة الخفاء ذروتها ، وعصف بالمجتمع الاوربي وباء حق من الشعوذة وشغف الاحاطة بما وراء الطبيعة والغيب ، وذاع السحر في معظم الاقطار الاوربية ، وكثرت محاكمات السحرة من الجنسين واعدامهم . وقد رأينا أن حركات الخفاء المتقطعة التي كانت تقوم في مختلف البلدان ترجع في النهاية الى أصل واحد ودعوة عامة ، مصدرها الكابالا اليهودية على أرجح الآراء ، وان اليهود قصدوا الى هدم النصرانية من هذا السبيل . وفي منتصف القرن السابع عشر اتخذت الحركة طوراً جديداً أيضاً فمالت نحو أساليب جمعية الصليب الوردي . وظهر هذا التطور واضحاً في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر حيث اجتاحت المجتمعات الراقية حمى المباحث الطبيعية ، ومحاولة استخراج الذهب من المعادن المنحطة وخاصة صنع السموم والمخدرات والمركبات الغرامية . وقد لبثت الحركة قائمة في الخفاء حيناً تروع الناس بأسرارها وضحاياها حتى اكتشفت مأساة السموم الهائلة سنة ١٦٦٦ عقب موت الشفاليه دي سانت كروا والقبض على خليلته المركيزة دي براتفليه . وكان سانت كروا من أبرع الكيمائيين في عصره ، وأمهرهم في تركيب السموم الخفية ، وكانت خليلته المركيزة دي براتفليه امرأة هائلة تشغف

بحياة الجريمة أيما شغف فلبثت أعواماً تدبر مع خليلها سلسلة من الجرائم الهائلة ، وتجرب سمومه الخفية في أفراد أسرتها واحداً بعد الآخر حتى قتلت أباها وأخويها ، وكانت الفرائس تذهب واحدة فواحدة دون أن يخامر العدالة أدنى ريب في الحقيقة أو يهتدي الطب في ذلك الحين الى أي أثر للسم الخفي الذي كان يستعمل في ارتكاب الجريمة . وقد اكتشفت هذه الاسرار المروعة بطريق المصادفة عقب وفاة سانت كروا وعثور الشرطة بأوراقه وسمومه التي لم يهتدِ أحد الى تحليلها أو معرفة خواصها [١] .

وكان الاعتقاد بادىء بدء أن الامر يتعلق بمجرمين أفراد ، ولكن مباحث الشرطة أسفرت عن اكتشاف جمعية كبرى من السحرة والسيمائيين تزاول السحر وصنع المركبات والمسحوقات المختلفة من سموم ومخدرات وغيرها ، وأذيعت عنها يومئذ أغرب الروايات فقيل انها تزاول عبادة الشيطان ، وتقريب الاطفال ، ومخاطبة الارواح والشياطين ، وتقيم القداس الاسود وغيره من رسوم الابليين . وبلغ عدد المتهمين في تلك القضية الشهيرة مائتين وستة وأربعين منهماً حكم بالاعدام على ستة وثلاثين منهم ، وكشفت تحقيقاتها عن مفاجآت غريبة فقد ظهر أن المتآمرين حاولوا مراراً أن يقتلوا الملك وولي العهد وكولبير ومدام دي لافاليير بواسطة السم ، وان كثيرين من الخاصة وعظماء البلاط يلجأون الى السحرة والمسممين للانتقام وقضاء الحاجات ، حتى قيل ان مدام دي مونتسبان خليلة الملك كانت تسعى الى استبقاء غرامه ووده باقامة القداس الاسود والاستعانة بلافوازان أشهر ساحرة في هذا العصر

والرأي المعاصر ان اولئك السحرة والمسممين لم يكونوا افراداً متفرقين يعملون مستقلين ، بل كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع في جميع الاقطار الاوربية . ذلك لان أساليبهم كانت مؤكدة وطرقهم في تنفيذ الجريمة محكمة سهلة تدلي بأنهم كانوا ينتمون اما مباشرة او بالواسطة الى جمعية اجرام كبرى تذلل الصعاب وتدرس الوسائل التي تسبغ على الجريمة مظاهر خادعة لا تثير الريب ، والخلاصة أنهم كانوا طائفة ، وكانوا مدرسة . وتقارن مدام لاتور في كتابها عن الاميرات والافاقات في عهد لويس الرابع عشر [٢] تلك الجمعية بعصابة مهربي المخدرات كالكوكائين وغيره من

(١) أتينا على تفاصيل هذه المأساة الغريبة في كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » الذي عنيت بنشره ادارة الهلال فلتراجع فيه

(٢) Th. Louis Latour, Princesses, Dames, et Aventurières du Règne de Louis XIV

السموم الاجتماعية ، وتقول ان مراتب هذه الجمعية كانت ثلاثاً : الاولى مرتبة الرؤساء. وهم رجال متعلمون أذكياء درسوا الكيمياء والطبيعة وغيرهما من العلوم ، وهم مرشدون غير ظاهرين ولكن أقوياء ذوي نفوذ ، يعدون السحرة والعرافين بالقوة والنصح ، والثانية مرتبة السحرة الظاهرين الذين يعنون بالتجارب الخفية ، والرسوم المعقدة ، والحفلات المرعبة ، والثالثة جمهور النبلاء والسادة الذين يهرعون الى ابواب السحرة ويملأون جيوبهم بالذهب ثمناً للمخدرات والمسحوقات والمركبات الغرامية والسموم احياناً . وعلى ذلك يمكننا أن نضع لافوازان الساحرة الشهيرة في المرتبة الثانيـة ، فهي رغم شهرتها وغناها ونعيمها الباذخ لم تكن الا يداً تحركها تلك الجمعية الهائلة ؛ وسر نجاحها في مشاريعها الكبرى يرجع الى نصح زعمائها المفكرين من أعضاء هذه الجمعية

فمن كان اولئك الزعماء المفكرون ؟ ان اول من علم الشفاليه دي سانت كروا خليل المركيزة دي برانفليه تركيب السموم الخفية وأطلعه على خواصها وأسرارها هو كيماني ايطالي شهير يدعى اكسيلي ، وقد التقيا سجينين في الباستيل وجمعت بينهما الشدة في أقبيته السحيقة [1] ، ولكن الذي علم اكسيلي من قبل ثم عني بتعليم الشفاليه بعد ذلك هو كيماني بارع الماني أو سويسري يدعى جلازر ، وقد كان طبيباً وصيدلياً للملك وللدوق دورليان ، والظاهر أنه كان يتبع تعاليم بارسيلسوس ، ولعله فوق ذلك من تلاميذ الصليب الوردي ، ذلك لان الزعماء والمفكرين الذين كان المسمون يهتدون بنصحهم كانوا رجالا يحسنون درس الكيمياء والطبيعة ومعالجة الامراض ومنهم من كان يعنى بتحليل المعادن والسيمياء ، أو بالحري كانوا يقتفون خطوات الصليب الوردي . والخلاصة ان الجمعية السرية التي كانت تضم اولئك الكيمائيين البارعين والمسممين الاذكياء والسحرة المدربين ، كانت على الارجح ، شعبة من الصليب الوردي أو كانت هي بذاتها تطورت الى شكل جديد ، لان الجمعية الاولى التي أنشأها الاخوة لم تكن تعنى كثيراً بالسحر ، او تستخدم براعتها الكيمائية في الجريمة ، ولكن تلاميذها اللاحقين خرجوا على مبادئها الاولى ، ووجدوا في مجتمع القرن السابع عشر ، وفي رذائله وسيئاته ميداناً شاسعاً للتجارب والمشاريع السوداء التي كانت براعتهم في تركيب السموم الخفية انفذ الوسائل لتحقيقها

---

(١) نحيل القارىء هنا ايضاً الى كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » حيث فصلنا ذلك في الفصل الذي كتبناه عن « مأساة السموم »

— ٢ —

ذروة الخفاء

٢ ـ في القرن الثامن عشر برز الخفاء في ثوب آخر ، ووصلت الجمعيات السرية ذروتها من الانتشار والتسلط على الاذهان ، وقد كان هذا القرن فاتحة الثورة العلمية التي أخذت تمعن في تحطيم القديم بسائر نظمه وتقاليده ، ولكن النهضة العلمية كانت في المهد ، وكان الغموض يحيق بكثير من نواحيها ، فكانت دعوة الخفاء والشعوذة تستغل هذا الغموض وتعنى باستجلائه وتزعم انها نفذت الى ظلماته ، وكانت العقول الساذجة تخضع لمؤثراتها وتتعلق بمزاعمها . هذا الطور الجديد الذي استحالت اليه دعوة الخفاء كان يعنى بالعلم النادر والقوى الخارقة ، ففيه بلغت السيمياء ذروتها من الازدهار واجتاحت سواد العقول في البيئات الرفيعة ، وذاع أمر اكسير الحياة ، وظهر جماعة من أقطاب الدعاة السريين بذوا السلف في الابتكار والتأثير ، والتسلط على الانفس . كان هذا العهد عصراً ذهبياً للادعياء والعرافين والسيمائيين ، وكان أولئك الدعاة يناهضون العلم من جانبه الغامض ، ويزعمون انهم وصلوا الى ما قصر عن ادراكه ، في الوقت الذي بدأ فيه العلم درس المسائل الطبيعية دراسة جدية نهض فردريك مسمر الالماني زاعماً أنه يستطيع شفاء جميع الامراض ، ولا سيما الامراض العصبية بتعريض أجسام المرضى الى تأثير الخفاء او ما كان يسميه بالمغنطيسية الحيوانية . وفي سنة ١٧٧٨ وفد مسمر على باريس ، فهرع الى داره الناس من كل صوب وأسس جمعية سرية تعرف « بأصدقاء التناسق » وكان الشفاء يأتي على أثر نوبة عصبية تعتور المريض . والواقع أن النجاح كان حليف مسمر في أحيان كثيرة اذ كان المريض يشفى اما مؤقتاً أو نهائياً ، ولا غرابة في ذلك فقد كان مسمر يطرق ناحية من المباحث النفسية والروحية ما زال العلم في عصرنا يتعثر في استجلاء غوامضها ، ويستخرج في كل يوم عجيبة من عجائبها . واذا كانت الشعوذة تغشى تجارب مسمر ، فقد كان للنوبات العصبية التي كانت تثيرها تجاربه أثر لا يمكن الاغضاء عنه ، وكان ايمان المريض يساعد غالباً في نجاح التجربة . وهكذا طار صيت مسمر ، وخلبت تجاربه وجلساته المغنطيسية ألباب الناس في ذلك العصر ، فانتدبت في سنة ١٧٨٤ لجنة ملكية لتحقيق مزاعمه وتجاربه ، وقضت بانكارها لاسباب علمية ، ولما كانت تثيره الجلسات المغنطيسية

والنوبات العصبية التي تتخللها من فضائح وخروج على الحياء والحشمة ، وقضت بانكارها الجمعية الطبية أيضاً . ولكن هـذا الانكار لم يخمد من حماسة الرأي العام ، ولم ينتقص من صيت مسمر، بل آمن بتجاربه وعلمه نفر من الاطباء والعلماء ، ورأوا أنه قد افتتح الطريق الى ميدان مثمر جداً . وكانت هذه حقيقة ، فان مغنطيسية مسمر الحيوانية هي التي تطورت ، بعد أن جردت من نواحيها الخرافية ، واستحالت في النهاية الى علم حقيقي هو التنويم المغنطيسي

٣ — وفي نفس الوقت الذي طلع فيه مسمر بتجاربه النفسية ، ظهرت جماعة أخرى من دعاة الخفاء دفعت الشعوذة الى غايتها ، ومزجت بين تعاليم الصليب الوردي وتجارب مسمر ، وانتحلت أغرب المزاعم والاساليب ، فغصت أبهاء السادة والخاصة في ذلك الحين بالافاقين والمتجمين والسحرة من تلاميذ هذه الطائفة . وكان أقطاب المدرسة الجديدة وأعلامها في ذلك العصر ثلاثة ، هم الكونت سان جرمان ، ولاسكاريس ، والكونت كاجليوسترو ، وكلهم أفاق بارع وبطل مدهش من أبطال القصة والخيال الرائع

فاما الاول فليس يعرف شيء عن حقيقة أصله ونشأته ، فيقول البعض انه ولد للدونا ماريا دي نوبيورج أرملة شارل الثاني ملك اسبانيا ، ويرى البعض الآخر أنه يهودي برتغالي . وقد طاف جميع الاقطار ولا سيما بلاد المشرق ، ولبث حيناً في ألمانيا ، ثم قدم الى باريس في سنة ١٧٥٠ ففتن بلاط لويس الخامس عشر وفتن باريس بجماله ، وظرفه ، وذكائه ، وفصاحته . ويقول ليفي مؤرخ السحر انه كان يصنع الذهب والاحجار الكريمة ، وانه كان ساحراً بارعاً كسحرة ألف ليلة وليلة ، وان أباه بالتبني كان عضواً في الصليب الوردي ، وانه نفذ الى أعمق أسرار جمعية « الشعلة البافارية » (وسنتكلم عنها بعد) . وأنشأ الكونت جمعية سرية صوفيـة تعرف « بالقديس يا كن » . وكان يدعي أموراً خارقة فيزعم أنه عاش ومات مراراً عديدة مدى القرون ، ويعدد حوادث ماضية منـذ العصور الغابرة ، فيقول انه كان صديقاً لملكة سبأ ، وكليوباترة ملكة مصر ، ويصفهما ويعدد خلالهما وما ثرهما بمنتهى الدقة ، وانه شهد مجلس ترنت ، وحادث فرانسوا الاول وهنري الرابع . ويصف كل ذلك بخطورة وجد . وكان لويس الخامس عشر يشغف بسمره ، ويقضي الليالي في سماع قصصه وفي سنة ١٧٦٠ غادر الكونت باريس وتجول في انجلترا وروسيا وايطاليا ، وكان يفتن كل بلاط وكل مجتمع . ويقول البعض انه كان يمضي في طوافه فراراً من

انتقام « الشعلة البافارية » التي فضح أسرارها . ثم اختفى فجأة وتوفي سنة ١٧٨٤ بعد أن عمر نحو قرن . واختلف في أمر وفاته أيضاً فقيل انه قتل بيد جمعية الصليب الوردي ، وقيل انه توفي في شلزفج عند الامير كارل فون هاسه الذي كان يعلمه السحر والخفاء

وأما لاسكاريس فكان يزعم أنه حبر شرقي بجمع الصدقات لدير يوناني ، وكان يبدو أحياناً شاباً في عنفوانه ، وأحياناً كهلاً هدمته السنون ، ويبذر من المال أكثر مما يجمع ، ويهب تلاميذه جزءاً من مسحوق غريب يحول ـ على ما قيل ـ أخس المعادن الى الذهب الخالص

وأما كاجليوسترو فهو بطل آخر من أبطال القصة ، خلد اسكندر دوماس اسمه في قصصه ، وهو ايطالي يهودي على الارجح ، واسمه الحقيقي يوسف بلسامو ، وُلد في



كاجليوسترو

بالرم سنة ١٧٤٣ على أنه كان يزعم أن عمره يربى على ثلثمائة سنة ، وأنه عاش مرة قبل ذلك أيام المسيح ، وأن المسيح كان صديقه الحميم . وقد نشأ أفاقاً ماهراً وسافر الى اليونان ، وتجول أعواماً طويلة في مصر وبلاد العرب وفارس وغيرها من بلدان المشرق بأسماء وصفات خلابة ، وكان يكسب قوته هنالك من التنجيم والتعزيم في الميادين العامة ، والتغرير بعقول البسطاء . ثم عاد الى أوربا وامتهن الطب والتنويم والتنجيم والسحر ، وزعم أنه قد نفذ الى الاسرار التي فقدت منذ أقدم العصور ، وانه يستطيع أن يصنع الذهب ويكبر الماس ويشفي جميع الامراض . وكان لمزاعمه وذكائه تأثير صادق في الافراد والجماعات ، فكان يهرع اليه مئات من المرضى والبسطاء لينتفعوا

بعلمه وطبه حتى غدت شهرته تطبق الآفاق . وكان كاجليوسترو يعتنق تعاليم الفرسان والصليب الوردي ، وقد أسس شعبة سرية على نمط التقاليد المصرية القديمة كان يجري رسومها السحرية متنكراً في صورة أبي الهول . ويقال انه تنبأ لكثيرين من سادة البلاط الفرنسي بألوان الموت التي لقوها فيما بعد ، وأرى ماري أنتوانيت يوم كانت ولية للعهد شبح الجيوتين في اناء من الماء . ثم اضطر الى مغادرة فرنسا سنة ١٧٨٦ على أثر اتهامه وتبرئته في حادث عقد الملكة [١] وعاد الى ايطاليا حيث قبض عليه بعد ذلك بقليل ، وقضى عليه مجلس التحقيق في رومة بالاعدام بتهمة بثه مبادىء الجمعيات السرية ، ثم غير الحكم الى السجن المؤبد

وقد ظهر في هذا العصر أيضاً كثير من السحرة الاصاغر مثل شريدر الذي أسس في سنة ١٧٧٦ جمعية سرية لمزاولة السحر والسيمياء ، وجاسنر الالماني الذي عكف حيناً على مزاولة الخوارق والمدهشات ، وليون اليهودي وهو عضو من طائفة لبثت حيناً تغرر بعقول البسطاء وتستلب أموالهم بعرض المرايا السحرية التي يرون فيها أصدقاءهم الغائبين ، وكثيرون غيرهم ممن لبثوا يستغلون ايمان الخاصة وفضولهم في المانيا وفرنسا بين سنتي ١٧٤٠ و ١٧٩٠

هؤلاء الدعاة المجهولون الذين تتشابه أساليبهم ومغامراتهم ، والذين كانوا ينثرون الذهب الوفير بلا حساب منتحلين السيمياء مصدراً لثروتهم وبذخهم ، والذين كانوا يحشدون الانصار والتلاميذ أينما حلوا بدعوى تلقينهم أسرار الكابالا لم يكونوا أولئك المسامرين المسلين الذين اعتقدهم الناس ، بل كانوا بلا ريب رسل دعوة خفية ، وسياسة مظلمة ، وبينما كانوا يطربون الناس ويدهشونهم بشعوذتهم وفكاهتهم ، اذا هم في نفس الوقت يجدون في تقويض اسس العالم القديم ، ولئن اختاروا السحر حجاباً لمقاصدهم فذلك لان شغف الخفاء كان نقيصة العصر ، وكان يعصف بكل مجتمع وكل ذهن ، وكان أولئك الدعاة أذكى من استطاع استغلال هذه النقيصة والاستفادة من هذا الضعف

هذا وسنعود الى التكلم عن علائق أولئك الدعاة بالجمعيات السرية التي قامت في ذلك العصر

---

(١) فصلنا الدور الذي قام به كاجليوسترو في هذا الحادث في كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » في الفصل الخاص « بعقد الملكة »

— ٣ —

أحدث أطوار الخفاء

٤ ـ في فاتحة القرن التاسع عشر اتخذ الخفاء طوراً جديداً ، وبينما ركدت ريحه حيناً في فرنسا على أثر الثورة ، اذا بها قد اشتدت في المانيا ، حيثما أزهرت الجمعيات السرية أيما ازهار ، فأذاع اكلرتسهاوسن أنه يستطيع مخاطبة الروح بأساليب واجراءات معقدة تتخللها الاضواء السحرية ، وعطور ومخدرات تدفع بالتلاميذ الى عالم الخيال الرائع . وكان ملك بروسيا فردريش ولهلم يشهد بنفسه هذه التجارب . وقامت في ذلك الحين أيضاً جمعية سرية تعرف « بالموبس » (نوع من الكلاب) تعقد جلساتها السرية بالرقص والطرب ، واتباع كثير من رسوم القداس الاسود . ولعل جيته كان متأثراً بهذا الجو حينما كتب قصته الخالدة « فاوست » وألم فيها بوصف كثير من هذه الرسوم والاجراءات الخفية

وفي منتصف هذا القرن ظهرت حركة « الروحيين» الحديثة ، وكان ظهورها في العالم الجديد بادىء بدء . ولم تعن هذه الحركة بأمور لم يعن بها الاقدمون او لم تتناولها دعوة الخفاء القديمة ، فقد شهد التاريخ في جميع عصوره محاولة النفاذ الى عالم الغيب والاتصال بأرواح الذاهبين والتكلم عن المبعوثين ، والمظاهر الملكية . وكان السلف يحاولون الاتصال بها من طريق التوسل بالآلهة والقديسين أو من طريق السحرة والشياطين ، ولكن الروحيين المعاصرين يترفعون عن هذه الخرافات ويثورون سخطاً واباءً اذا ما وصمتهم بالسحر ، ويجيبون ان السحر مهزلة عتيقة تستند الى علم خرافي ، وانهم جماعة وضعية تعنى بالتجارب والمباحث العلمية ، وان محاولة الاتصال بروح ذاهب من طريق « الوسيط » ليست في شيء من المستحيل أو الخارق كما ان المخاطبة التلفونية أو اللاسلكية بين باريس ونيويورك ليست مستحيلة أو خارقة . والواقع أن حركة الروحيين قد استطاعت أن توطد قدمها في أميركا وأوربا وأن تظفر بتأييد كثير من المفكرين النابهين . بيد أنها ما زالت تثير ريب الدوائر العلمية ، وما زال العلماء في أوربا وأميركا يعطرونها وابلاً من الانكار والسخرية . وليس من موضوعنا ان نعنى بهذه الحركة ، خصوصاً واننا نميل الى انكارها بشدة ، بيد أنا نشير اليها فقط باعتبارها طوراً من أطوار الخفاء الذي اتخذ في القرن الثامن عشر آلة نافذة لبث الدعوات السرية ، وقد لا يكون من المستحيل أن وراء هذه الحركة الخفية دعوة لا يستطيع الجيل الحاضر ان ينفذ الى سرها الدفين

الكتاب الثالث



في الجمعيات السرية المعينة

الفصل الاول

جمعية البناء الحر

La Franc-Maçonnerie

(١) أصل البناء الحر . مختلف النظريات التي قيلت في ذلك . العنصر الشكلي في البناء الحر وأصله (٢) العنصر الفلسفي في البناء الحر وأصله . هل اليهودية مصدر تعاليمه السرية . الاسطورة السليمانية . انتقالها الى البناء الحر (٣) فرسان المعبد وسيلة انتقال الاسطورة السليمانية . هل اشتق البناء الحر نظمه من الاسماعيلية (٤) البناء الحر والصليب الوردي . تعدد المصادر التي اشتق البناء منها (٥) النظم السرية وسيلة للنضال . انشاء المحفل الاكبر وسببه . دستور اندرسون والدين . الخلاف على المراتب (٦) تعدد المحافل . محفل باريس وخصومته مع الكنيسة . انتساب البناء الى الصليبيين (٧) مراتب البناء العليا ومراتبه كلها . انشاء المشرق الاعظم (٨) غايات البناء الحديث ومبادئه (٩) الدين والسياسة في البناء الحر . شعائر المشرق الاعظم ومثله (١٠) عداء المشرق الاعظم للدين . انكاره والحاده . غايته الهدامة (١١) المثل الاشتراكية مثل البناء الحر . البناء الحر والفاشزم . البناء الحر في اسبانيا والبرتغال (١٢) غلبة الشيوعية على البناء في شرق أوربا . البناء في الشرق (١٣) البناء البريطاني

— ١ —

اصل البناء الحر

١ ـ البناء الحر[١] من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي ما زالت قائمة ولها شعب وفروع في معظم الامم المتمدينة . ولكن منشؤها ما زال غامضاً مجهولا ، وغاياتها الحقيقية ما زالت سراً حتى على أعضائها أنفسهم . لا يعنى معظم البنائين الاحرار بأن يعرفوا شيئاً عن تاريخ جمعيتهم ، ويعظم الخلاف على ذلك بين ثقات الجمعية أنفسهم . وقد أشار الى ذلك مؤلف بناء هو المستر البرت تشيرشوارد في كتاب حديث كتبه عن « الاشارات والرموز » فقال : «أذيعت حتى الآن آراء ونظريات كثيرة متناقضة عن أصل جمعية اخوان البناء الحر وعن زمان نشأتها ومكانه ، وعن السبب الذي قامت من أجله ، وعن الاقسام والرسوم المختلفة التي تنقسم اليها درجاتها المختلفة . بيد أن كل ما كتب عن ذلك حتى الآن ليس الا نظريات لا تستند الى أسس حقيقية»

(١) وتسمى بالعربية أحياناً بالماسونية غير أن هذه ليست ترجمة وليست أصلا ، ولذلك آثرنا ان نترجمها بمعناها الحقيقي وهو البناء الحر

وتتلخص هذه الآراء والنظريات في أن البناء الحر يرجع أصله الى واحد من اثني عشرهي : (١) الى البطارقة (٢) الى أسرار الوثنيين (٣) الى بناء معبد سليمان (٤) الى الصليبيين (٥) الى فرسان المعبد (٦) الى جمعية الصناع الرومانية (٧) الى عمال البناء في القرون الوسطى (٨) الى اخوة الصليب الوردي (٩) الى أوليفر كرمويل (١٠) الى البرنس تشارلس ستوارت أنشأها لاغراض سياسية (١١) الى السير كرستوفر رن عند بناء كنيسة القديس بول (١٢) الى الدكتور دزاجليه وأصدقائه في سنة ١٧١٧

وليس معنى ذلك أن أصل البناء الحر يرجع حتما الى واحد من هذه ، ذلك لان البناء الحر الحديث يستند الى أصلين مختلفين ، الى صناعة البناء ذاتها ، والى نظرية فلسفية عن أسرار الحياة والموت . وقد عبر عن ذلك بناء حر معروف هو الكونت دالفيلا في قوله : « ان فكرة البناء الحر الفلسفية هي ثمرة مزج طائفة البنائين في القرون الوسطى ، وفرقة سرية من تلاميذ الفلسفة ، قدمت الاولى اليها الشكل ، وقدمت الثانية اليها الذهن »

أما عن الاصل الاول وهو طائفة البنائين أنفسهم ، فقد وجدت جماعاتهم منذ القرون الغابرة في أقدم أمم التاريخ مثل مصر واليونان . ووجدت في أوربا الغربية منذ بدء النصرانية . وذاعت في جميع الامم الغربية خلال العصور الوسطى . وقد نقل الرهبان رسومها وتقاليدها من مصر القديمة الى أوربا . ووضع الرومانيون منها نماذج جديدة ، وأنشأوا جمعية عرفاء البناء المعروفة . ومن ثم يرجع بعض الباحثين أصل البناء الحر الى هذه الجمعية الرومانية ، ويقولون ان اول جمعيات بناء عرفت في بريطانيا قامت على أثر الاحتلال الروماني وبلغت من الاهمية أن كان يرعاها كثير من العظماء مثل سنت البان والملك الفرد والملك ادوين حتى أصبحت بمرور الزمن هيئات ممتازة وجمعيات حرة ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء الجزر البريطانية . بيد أنا لا نستطيع أن نؤكد وجود هذه الجمعيات في اوربا الغربية قبل عهد الهندسة القوطية حيث أنشأ البناءون في فرنسا جماعات كانت تسمى بجماعات الرفاق Compagnonnages وفي المانيا جماعات تعرف « بنواني الحجارة » Steinmetzen . وكانت هذه الجماعات تحرص على كتمان أسرار مهنتها ، وقد كان للمهنة حينئذ أسرار ، وكان لها مكانة تشهد بتفوقها تلك الكنائس الفخمة التي خلفها عهد البناء القوطي في كثير من مدن أوربا الغربية . وذكر الاب جرانديديه في رسالة كتبها سنة ١٧٧٨ : « ان جمعية البنائين

الاحرار هـذه التي تفيض كبرياء ليست الا تقليداً وضيعاً لاخاء قديم نافع كان يضم البنائين الحقيقيين . وكان مركز هؤلاء الاخوة في مدينة شتراسبورج بادىء بدء ، وقد صادق الامبراطور مكسيمليان على جمعيتهم في سنة ١٤٩٨» وهنالك أيضاً ما يدل على أن هذه الجمعيات كانت تفوز بكثير من الامتيازات في فرنسا وانجلترا والمانيا في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر

٢ ـ واما عن التعاليم والاسرار الفلسفية التي تستند اليها جمعية البناء الحر فيقال ان رجلين من رجال الدين هما الدكتور دزاجليه والدكتور أندرسون هما اللذان ابتكرا المبادىء والنظم الجديدة وأسسا محفل انجلترا الاكبر وكان ذلك في سنة ١٧١٧ ، وانه لم يسمع قبل ذلك بأسرار البناء الحر. بيد أن بعض الباحثين ينكرون هـذه الرواية ويدللون على بطلانها ، ويرون أن النظام الجديد لا بد أن يكون ثمرة لحركة كبيرة لبثت عصوراً تختمر وتنضج ، فاذا كان للعالمين الانجليزيين فضل فليس في ابتكار النظام وانما في اصلاحه وتهذيبه

وهذا هو الرأي الذي يرجحه سواد الباحثين في أصل البناء الحر اذ يقولون ان أصل التعاليم الفلسفية لهذه الطائفة قديم جداً قد يرجع الى الـكابالا اليهودية ، والى بطارقة العصور الاولى حيث كانت تنتظم جمعيات الحـكماء في مصر وكالديا وفارس واليونان . ويرجح المستر البرت تشرشوارد بالاخص أن عنصرها الفلسفي مصري محض فيقول في كتابه سالف الذكر : « كان للبطارقة والسحرة في الهند وفارس وكالديا وأشوريا نفس الرسوم الدينية ، يتبعها كل من التحق بطائفتهم من الـكهنة . وكان هؤلاء يقسمون الايمان الخاشعة أن يحرصوا على اخفاء التعاليم وأن يكتموها عن بقية العالم. أما هذه التعاليم فترجع كلها الى مصدر واحد هو مصر » . ويشير هذا الـكاتب ايضاً الى عبارة وردت في خطاب ألقاه الدكتور ولیم دود في حفلة افتتاح معبـد بناني في سـنة ١٧٩٤ رد فيها أصل البناء الحر الى « العرافين الاوائل في سهول كالديا ، وملوك مصر وكهنتها المتصوفة ، وحكماء اليونان ، وفلاسفة رومة » ثم يقول أصحاب هذا الرأي ان هذه التعاليم والرسوم القديمة نقلت الى الغرب على يد جمعيات البنائين ، ونقلتها الى انجلترا جمعية الصناع الرومانية

على أن مبادىء البناء الحر وتعاليمه لا تحمل طابع هذه الامم القديمة وان كانت رسوم محافلها تشير بعض اشارات موجزة الى خفايا مصر وفينيقيا ، والى تعاليم فيثاغورس السرية ، والى اقليدس ، والى افلاطون في رسوم مراتب المهنة وتعاليمها .

ذلك لان التعبيرات وكلمات التعارف المستعملة ليست مصرية او يونانية أو فارسية أو كلدية بل يهودية ، وعلى ذلك فاذا كان قد تسرب الى الغرب شيء من التعاليم السرية القديمة على يد الاحبار والرومان المتفقهين في اسرار اليونان ومصر ، فلا ريب أن الكابالا اليهودية كانت طريقاً أخرى لنعلها . وهذا ما يقرره بعض الكتاب البنائين أنفسهم اذ يسندون تقاليد الطائفة الى مصر واليونان وكالديا من جهة والى الاسرائيليين من جهة أخرى ، وينسبون نظمها الى المصدر الثاني ، ويردون أصولها من بعد آدم ونوح وابراهيم الى موسى وداود وسليمان ، بل تقرر الطائفة ذاتها أخذ نظمها عن سليمان ، وهو ما تحتويه تعاليمها التي تلفن الى مرشحي الالتحاق بالدرجة الاولى ، وهذه النسبة ذاتها هي التي يقررها اليهود بشأن الكابالا ، هذا الى ان البناء الحر الحديث يرد برمته الى الاسطورة السليمانية او بالحري الى الاسطورة الحيرامية التي يحسن أن نلخصها فيما يلي :

لما بنى سليمان معبده استخدم صانعاً للنحاس يدعى حيرام وهو ابن أرمل من قبيلة نفتالي أرسله اليه حيرام ملك تير Tyr . تقول اسطورة البناء الحر ، وحيرام هذا هو حيرام ابيف، كان عريفاً للبنائين . ومن اجل المحافظة على النظام قسم البناءون الذين يشتغلون في المعبد الى ثلاث طبقات هي : المتمرنون ، وأبناء المهنة ، وعرفاء البنائين. تتميز الاولى من الثانية منها برموز وأقوال مختلفة للتفاهم وتتفاوت في الأجر ، وتشمل الثالثة ثلاثة اشخاص فقط هم سليمان نفسه وحيرام ملك تير الذي أمده بالخشب والاحجار الكريمة وحيرام ابيف . وقبل ان يتم بناء المعبد ائتمر خمسة عشر من « ابناء المهنة » معاً على استكشاف أسرار « عرفاء البنائين » واعتزموا ان يكمنوا لحيرام أبيف عند باب المعبد ، ولكن اثني عشر منهم انشقوا في اللحظة الاخيرة ، وقام الثلاثة الباقون بتنفيذ المشروع ، وعبثاً هددوا حيرام للوقوف على السر ، فعندئذ قتلوه بثلاث ضربات على الرأس ضربه كلٌ واحدة ثم حملوا الجثة خارج بيت المقدس ودفنوها في جبل مُرياح . ولما علم سليمان باختفاء عريف البنائين أرسل للبحث عنه خمسة عشر من « أبناء المهنة » فوصل خمسة من هؤلاء الى الجبل ولاحظوا موضعاً فيه غيرت معالم أرضه وهنالك عثروا بجثة حيرام ، فعلموا المكان بغصن وعادوا فقصوا على سليمان ما شاهدوه ، فأمرهم سليمان بان يدفنوا الجثة ففعلوا

ومقتل حيرام ودفنه او بالحري « رفعه » وما يقترن بذلك من ضروب الأسى والتحسر عند البنائين ذروة الخشوع والاجلال ، كما ان مقتل الحسين هو الذروة

عند الشيعة ، واذا لم يك ثمة دليل تاريخي يؤيد وقوع مثل هذه المأساة ، فان ابتكارها يعتبر على الاقل قرينة على وجود مذهب قديم لا يستند الى واقعة حقيقية ولكن الى نظرية سرية . والواقع انا نجد امثال هذه المأساة والرسوم ماثلا في جميع الاساطير الدينية القديمة ، وفي وسعنا ان نقارن قصة مقتل حيرام ، بالاسطورة المصرية القائلة بمقتل أوزريس وبحث إزيس عن جثته ، والعويل الذي ثار حول قبره برسوم الحداد التي أقيمت لاوزريس وادونيس ، وقد « رفع » كلاهما ، وايضاً بما وقع حول تابوت مانيس الذي قتل غيلة كما قتل حيرام ، وقد كان ابن أرمل على قول المانوية ، بيد ان الاسطورة كما يتناقلها الاخوة البناءون مصوغة في قالب وأسلوب يهوديين مما يدل على انها اشتقت من الصيغ اليهودية للتقاليد الغابرة

اما طريق انتقال هذه الاسطورة الى البناء الحر فيوضحه اصحاب هذه النظرية فيما يأتي :

لما بني معبد سليمان تفرق البناءون الذين اشتركوا في بنائه فنزح بعضهم الى اوربا واستقر نفر منهم في رومة حيث انشأوا جمعية الصناع الرومانية التي نقلت نظمها ورسومها بعد الى جمعيات الصناع في انجلترا وفرنسا والمانيا في العصور الوسطى ، وتناقلت بعضها اسطورة مقتل حيرام ، بيد انا لا نستطيع ان نحدد بالضبط متى نشأت هذه الاسطورة . فيقول البعض ان الخفايا العبرية وجدت منذ وجود الجمعية الرومانية وان الجمعية كانت تصطبغ بالصبغة اليهودية الى حد كبير . ويدحض آخرون الفكرة ويقولون ان مثل هذه التقاليد والخفايا لم توجد حتى في عصور السكسون وان فكرة نسبة البناء الحر الى اسطورة معبد سليمان لم تعرف الا بعد الحروب الصليبية ، حوالي القرن الرابع عشر . والى هذا العصر كانت محافل البناء لا تعنى الا بالتعاليم السرية المصرية واليونانية في حين انها كانت ترجع تقاليدها الى آدم وبابل وهرمس وفيثاغورس . ولم تكن هذه التعاليم يهودية في شيء . ويضيفون الى ذلك ان الخفايا اليهودية والنصرانية لم تكن تعرف حينئذ في محافل البناء فمراتبها السرية خلو من آثار هذه الاساطير ، ولم تعرف مراتب العرفاء وابناء المهنة والمتمرنين ، ولم تعرف رمزاً من رموز المعبد ، بل كانت كل رموزها تشير الى اعمال البناء وبعض الحكم الفلسفية الاخلاقية . والخلاصة ان العنصر اليهودي لم يتسرب الى المحافل الا في نهاية الحروب الصليبية .

٣ — واذا لم يك ثمة دليل على ان الاسطورة السليمانية أو الرموز اليهودية قد

عرفت في محافل البناء قبل القرن الرابع عشر، فمن المعقول ان نرتد الى فرسان المعبد باعتبارهم حملة هذه العناصر اليهودية الى البناء الحر . وقد أخذ الفرسان اسمهم كما رأينا من معبد سليمان . فالمرجح إذاً انهم وقفوا أثناء وجودهم في بيت المقدس على الاساطير اليهودية المتعلقة ببناء المعبد . وهذا ما تقرره القصصية الفرنسية جورج ساند وقدكانت متبحرة في تاريخ الجمعيات السرية حيث تقول في احدى رواياتها مشيرة الى الفرسان : « كانوا يبكون ضعفهم في شخص حيرام ، وكانت كلة ضاعت وردت تشير الى دولتهم . . . » . وكان الفرسان يبكون أستاذهم الاعظم جاك دي مولاي ، وكانت تبكيه جماعات أخرى هي جماعات « الرفاق » التي سبق ذكرها ، وكانت جماعات الفرسان والرفاق تتناقل أسطورة معبد سليمان ، فمعقول اذاً أن تكون التقاليد اليهودية قد نقلت الى جماعات البناء بواسطة الفرسان

ويدلل أصحاب هذا الرأي على قولهم بان أهم رموز البناء الحر مثل المثلث ، والمربع المحمول على عمودين ، والنجمة ذات الحدود الخمسة ، والنجمة المضيئة وغيرها ، يمكن ارجاعها الى الفرسان ، وان الفرسان كانوا بنائين بارعين أقاموا عدداً من الكنائس الفخمة ، هذا الى ان بعض تقاليد البناء الحر تشير الى ان محالفة عقدت في ذلك الحين بين الفرسان وجماعات البنائين ، فلما كانت محاكمة الفرسان في فرنسا فر جماعة منهم في نكيرة البنائين الى ايكوسيا ، وانضموا الى روبرت بروس وحاربوا تحت لوائه ضد ادوارد الثاني الذي طارد جماعتهم في انجلترا ، ثم أسس روبرت بروس الجمعية الملكية وفرسان الصليب الوردي ، وقد نشأت مرتبة الصليب الوردي على قول بعضهم في جمعية الفرسان في عهدها الاول ، ثم يقال أيضا ان روبرت بروس ضم البنائين الى الجمعية الملكية مكافأة لهم على محاربتهم الى جانبه ، فتسربت بهذه الطريقة مبادىء الفرسان الفلسفية الى محافل البناء

يقولون أيضاً ان مراتب المتمرنين وأبناء المهنة والعرفاء قد نقلت من ايكوسيا وبين هذه المراتب ومراتب الاسماعيلية شبه كبير ، وقد احتك الفرسان بالاسماعيلية ودرسوا أنظمتهم وتعاليمهم ، يقول الدكتور روسل في كتابه عن التفكير الديني والالحاد في القرون الوسطى ما يأتي : « لا ريب ان كثيراً من الرموز المعروفة اليوم قد عرفت منذ أقدم العصور الى جانب شيء من الهندسة كان يعتبر سراً خفياً ولكن المثل المحقق الذي اقتفي أثره هو محفل الاسماعيلية الاكبر في القاهرة » . ويقول السيد امير علي في كتابه « روح الاسلام » : « ان رواية المقريزي عن مراتب

الالتحاق المختلفة بهذه الهيئة تاريخ قيم للبناء الحر . والواقع ان محفل القاهرة هو نموذج كل المحافل التي أنشئت بعد ذلك في النصرانية » . ومحفل القاهرة المشار اليه هو دار الحكمة الاسماعيلية التي انشأها الحاكم بامر الله والتي أتينا على نظامها ومراتبها في كلامنا عن الاسماعيلية. فمن المحتمل اذاً ان تكون هذه النظم قد نقلت الى البناء الحر على يد الفرسان الذين تلقوها عن الاسماعيلية دعاة دار الحكمة . وهذا ما يفسر تمجيد محافل البناء الحر لذكرى الفرسان ، واعتبارها اياهم ابرياء وشهداء

ويؤثر سواد البنائين في القارة (أوربا) الاخذ بهذا الرأي ، كما يؤثر البناءون البريطانيون القول بارجاع البناء الحر الى الجمعية الرومانية . وقد اعتنق الرأي الاول البناءون الاحرار في القارة في القرن الثامن عشر ، وذلك مهم لان محافل البناء الحر اصلحت ووضعت أسس نظامها الحاضر في ذلك العصر ، فكان اعضاؤها وقتئذ أقرب الى معرفة الحقيقة من الباحثين المعاصرين

٤ — ننتقل بعد ذلك الى الرأي القائل بان نظم البناء الحر اشتقت من نظم الصليب الوردي . يقال ان فرنسيس بيكون الفيلسوف الانجليزي كان بناءً حراً ، وقد كان مع ذلك من اخوة الصليب الوردي . وتدل بعض كتاباته على انه كان ملماً بتقاليد سرية قديمة جداً ، بل يقول بعضهم انه مؤسس الصليب الوردي والبناء الحر معاً. بيد ان بيكون لم يكن مبتدعاً للتقاليد السرية التي قامت عليها هاتان الهيئتان وانما كان ناقلا، يقول الاستاذ بيله الالماني : « ان نظم البناء الحر هي نظم الصليب الوردي بعينها ولم يطرأ عليها تغير الا ما استحدثه أولئك الذين نقلوها الى انجلترا » . ويقول تشامبرس في دائرة معارفه التي ظهرت لاول مرة في سنة ١٧٢٨ « ان بعض خصوم البناء الحر يقول بان جمعية البناء الحر العظيمة الحاضرة ليست سوى فرع من جمعية الصليب الوردي ، أو هي جمعية الصليب الوردي بعينها في ثوب جديد . ومن المحقق ان هنالك من البنائين الاحرار من يتصف بجميع خواص الصليب الوردي » . ولكن الدكتور ماكي مؤلف قاموس البناء الحر يعارض هذا الرأي بشدة ويقرر أن ليس من علاقة ما بين الصليب الوردي والبناء الحر .

وهنالك طريق أخرى لعلها سبيل الاساطير اليهودية الى البناء الحر هي الاحبار اليهود في القرن السابع عشر. يقول الكاتب اليهودي برنار لازار: « لقد كان حول مهد البناء الحر يهود » واذا طبقنا هذه الرواية على العصر الذي سبق انشاء المحفل الاكبر في سنة ١٧١٧ الفيناها مؤيدة بالحقائق . يقال مثلا ان الدرع التي تستعمل

الآن في المحفل الاكبر قدرسمها يهودي،وصورها على مثل الرموز والاساطير اليهودية فدرع البناء الحر كابالية محضة ، وكذلك ختم المهنة الذي تختم به الشهادات يمثل ايضاً رمزاً كابالياً هو صورة رجل وامرأة متعانقين

والخلاصة ان أصول البناء الحر لا ترجع الى مصدر واحد ، ولعلها قد اشتقت من جميع المصادر التي ذكرناها بادىء بدء ، فقد تكون النظم المادية اشتقت من الجمعية الرومانية وجماعات البنائين في القرون الوسطى ، والمبادىء الفلسفية من تعاليم البطارقة واسرار الوثنيين . بيد ان المصدر الذي لا ريب فيه هو الكابالا اليهودية وذلك سواء كان انتقال اسرارها الى البناء على يد الجمعية الرومانية ، أو الفرسان ، أو الصليب الوردي ، أو يهود القرن السابع عشر . وأقطع حجة على ذلك هو ان النظم والتعاليم اليهودية هي التي اتخذت اساساً لانشاء المحفل الاكبر في سنة ١٧١٧ ووضع رسومه ورموزه ، وان كانت قد مثلت فيها ايضاً بعض التعاليم المصرية القديمة ونظريات فيثاغورس

— ٢ —

عهد المحفل الاكبر

٥ ـ رأينا ان جمعية الصليب الوردي كانت تقوم على فكرة سرية أخذت عن التعاليم السرية الشرقية ، تربط الاخوة معاً لغاية مشتركة . ولا ريب ان فكرة كهذه تمكن الخوارج والناقمين أفراداً كانوا او أحزاباً من حشد جموع كبيرة تعمل سراً في سبيل مآربهم وغاياتهم كانت ذائعة محمودة خصوصاً في عصر استعرت فيه لظى المعارك الفكرية ، فاللوثريون ينشطون الى سحق البابوية ، والكثلكة تحشد جموعها لمحاربة البروتستانتية ، والجمهوريون يأتمرون حول اوليفر كرمويل ، والملكيون في مختلف الامم يشايعون الاسر المختلفة، وكل جماعة تلجأ الى هذه النظم والتعاليم تحقيقاً لغايتها الخاصة . فقد لجأ اليها اخوة الصليب الوردي في محاربة البابوية، ولجأ اليها اليسوعيون لتحقيق غاية مناقضة هي حماية البابوية وتأييد طغيان الكثلكة ، ثم يقال أيضاً ان كرمويل ألد خصوم الكثلكة كان من أكبر دعاة البناء الحر ، وانه استعمل نظمه وتعاليمه للوصول الى السلطان والحكم ، وان خصومه من الجمهوريين الثوريين لجأوا الى نفس هذه النظم في حشد الانصار والجند لمحاربته ، وان محافل البناء الحر كانت

ملكية في أواخر القرن السابع عشر تناصر آل ستوارت وتعمل لاعادتهم الى الملك

بيد ان تاريخ النظم الحاضرة التي أسس عليها البناء الحر يبدأ في سنة ١٧١٧ ، ففي ذلك العام جمع شتات التعاليم والوثائق التي كان يستند اليها البناء الحر وأصلحت ونظمت على قواعد حاسمة ثابتة ، واستبقى البناء الحر مسحة من نظمه المادية ، ولكنه تحول من ذلك الحين الى جمعية سرية مختارة تضم أبناء الطبقات الوسطى والعالية وتعتنق التعاليم الفلسفية . تم ذلك الانقلاب الكبير في أواخر سنة ١٧١٧ حيث اجتمع اخوة أربعة من محافل لوندرة في حانة من حي كوفنت جاردن ، وانشأوا المحفل الاكبر بصفة رسمية ، ولم يكن هذا الانقلاب ضربة فجائية عنيفة بل كان ثمرة تطور لبث يختمر حيناً في معظم المحافل ، ويغالب العنصر المادي في نظم البناء الحر وفي تلاميذه وجنوده ، ولهذا تم الانقلاب في سلام وسكينة ، ولم يك ثمة كبير شأن لمعارضة الاخوة من أبناء المهنة الحقيقيين في تحويل البناء الحر الى وجهة جديدة ، واختيار أنصاره وجنوده من غير أبناء المهنة (مهنة البناء) ، من ذلك الحين اضمحل نفوذ المهندسين والبنائين وانتقلت زعامة الحركة كلها الى أبناء الطبقة الوسطى

على ان الذي لم يوضحه تاريخ البناء الحر هو العوامل التي أدت الى ذلك الانقلاب . ما الذي حدا باخوة لوندره أن يؤسسوا فجأة محفلا أكبر، وأن يضعوا له نظما وتعاليم جديدة ؟ يجيب بعض الباحثين ان المفكرين من اخوة البناء الحر لما رأوا ان الجمعية قد غدت آلة في يد الدسائس والاهواء السياسية اعتزموا أن ينتزعوها من براثن الفوضى وألاعيب المطامع الشخصية وأن يردوها الى غايتها السلمية الاولى ، وان هذا الغرض السلمي هو الذي التف حوله الاخوة الانجليز في عهد الاستاذ الاعظم السير كرستوفر رن حيث كان غرض البناء الحر في ذلك الحين « أن يخفف من حدة البغضاء الدينية التي بلغت ذروتها في عهد جيمس الثاني ، وأن يحاول انشاء نوع من الوئام والاخاء بالعمل على قتل الاحقاد التي تثيرها الخلافات الدينية ، وتفاوت المراتب والاغراض » . ومن ثم اعتنق البناء الحر في مسألة الدين سياسة حرة غير طائفية ، وجاء في الدستور الاول الذي وضعه الدكتور اندرسون في سنة ١٧٢٣ ما يأتي : « البناء ملزم بحكم صفته أن يتبع قانون الاخلاق ، واذا استطاع أن يفهم الفن حقاً فلن يغدو قط ملحداً غبياً أو فاسقاً زنديقاً . وقد كان البناءون في العصور القديمة يلزمون اعتناق دين هذا البلد أو هذه الامة مهما كان . وأما الآن فقد رؤي حضهم على اعتناق ذلك الدين الذي يتفق فيه جميع الناس تاركين آراءهم الخاصة جانباً أعني أن يكون المرء فاضلا

صادقاً ذا عفة وشرف . ولهذا صار البناء مهداً للاتحاد وسبيلا لبث الصداقة الخالصة بين الناس »

وقد اعتبر البعض اشارة الدكتور اندرسون الى دين يتفق فيه جميع الناس دعوة الى نبذ النصرانية وان البناء الحر أصبح من ذلك العهد جمعيـة هادمة تعمل كمعظم الجمعيات السرية الاخرى لسحق التعاليم الدينية . وثارت حولها الظنون منذ البداية نظراً لشديد حرصها في كتمان أسرارها وتعاليمها ، واتهمت بأنها تدس الدسائس ، وتعمل على هدم السلطات السياسية والدينية تحت ستار الدعوة الى الاخاء والصداقة ، هذا الى أن الخلاف على أمر المراتب الجديدة التي أدخلت الى الطائفة كان يمزق جماعات البناء الحر عندئذ

وذلك أن المراتب السرية التي كان يقرها البناء الحر حتى انشاء المحفـل الا كبر والتي أقرها هذا المحفل في دستور البناء الجديد كانت ثلاثة هي : المتمرنون ، وأبناء المهنة ، والعرفاء ، وهي التي اتخذت اساساً لانشاء جمعيات البناء الحديثة . وفي نحو سنة ١٧٤٠ وضعت فوق هذه المراتب مرتبة جديدة هي « القبة الملـكية » وهي اولى المراتب العليا التي تعرف اليوم بالرسوم الايكوسية . فكان هذا الابتكار الجديد في شأن المراتب مثار خلاف شديد في جماعات الطائفة أدى الى انقسام البناء الحر الى فريقين متعارضين فريق القدماء وفريق المحدثين ، واستمرت هذه المرتبة الجديدة تطبق منذ سنة ١٧٥٦ حتى الغاها المحفل الاكبر نهائياً في سنة ١٧٩٢ ، بيد انها أعيدت الى جماعات البناء الحر الانجليزية في سنة ١٨١٣ . وترجع هذه الدرجة الى اصل يهودي ايضاً فهي تمجيد لاسرائيل وتخليد لذكرى المعبد الثاني . ويقول عنها مؤرخ للبناء الحر : « ان درجة القبة الملـكية كانت بلا ريب من وضع يهودي كابالي في نحو سنة ١٧٤٠ ولنا ان نفترض ان التعاليم السرية أضيفت من ذلك الحين الى دستور اندرسون »

٦ — وكان انشاء المحفل الا كبر في لوندرة فاتحة لقيام محافل كثيرة في القارة ، في مون سنة ١٧٢١ ، وفي باريس سنة ١٧٢٥ ، وفي مدريد سنة ١٧٢٨ ، وفي لاهاي سنة ١٧٣٣ ، وكذلك في همبرغ وغيرها . وحصل كثير منها على مصادقة المحفل الانجليزي الا كبر الا محفل باريس فانه لم يحصل على هذه المصادقة الا في سنة ١٧٤٣ وذلك لان محفل باريس كان يغلب عليه العنصر السياسي وكان يعمل خفية على رد أسرة ستوارت الى العرش الانجليزي . وكان زعيمـه تشارلس رادكلف قد فر من انجلترا الى فرنسا وتسمى باللورد درو نتواتر ، ويقال انه هو الذي أسس هذا المحفل في

سنة ١٧٢٥ وانتخب له أستاذ اعظم . وقد كان البناء الحر لاول عهده ملكياً كما رأينا أوكان آلة في يد الاحزاب الملكية ومطية لمطامع الأسر، ولم يكن ممنوعاً من الاشتغال بالسياسة قبل صدور دستور الدكتور اندرسون في سنة ١٧٢٣ وقبل ان يعتزم المحفل الاكبر تطهير المحافل من الاهواء والمنازعات السياسية وتحويلها الى طائفة اخاء ، ووفاق عام

وكان محفل باريس منذ نشأته موضعاً لشكوك الملكية ، والكنيسة بالاخص، حيث كان يعتقد ان الجمعية الجديدة التي نظمت باسم البناء الحر ليست الا جمعية فرسان المعبد أعيدت برسوم ونظم جديدة . ولذلك استثار المحفل خصومة الملكية والكنيسة منذ البداية ، وذكت هذه الخصومة حتى صدر في سنة ١٧٣٧ امر ملكي بحل الجمعية. وفي السنة التالية أصدر البابا كليمنص الثاني عشر قراراً بردة البناء الحر وردة كل كاثوليكي يلتحق به

على ان هذه المطاردة لم تكن ذات أثر يذكر، لان البناء الحر لم يتعثر بل استمر في تقدمه وانشاء مراتب جديدة ، ولم ينزل عن القول بصلته بالفرسان ، بل جاهر بعض زعمائه بهذه الصلة وزعموا ان مؤسس طائفتهم انما هو جودوفروا دي بوبون اول ملك من الامراء الصليبيين لبيت المقدس. ويقول البارون تشودي البناء الحر في رسالته « الكوكب المشتعل » ان نسبة البناء الحر الى الصليبيين هي النسبة التي تلقن في المحافل بصفة رسمية حيث يعلم المرشحون للالتحاق ان جماعة من الفرسان اخذت على نفسها ان تنقذ البقاع المقدسة من ايدي العرب ، ألفت جمعية اسمها البناء الحر معربة بذلك عن ان غايتها الاولى هي اعادة بناء معبد سليمان ، وانها اتخذت طائفة من الرموز والاشارات وكلمات المرور اتقاء لعدوان العرب ، وان اخوة البناء الحر احتفظوا برسومهم وطرقهم وخلدوا الفن الملكي (البناء) بانشاء محافل في انجلترا وايكوسيا وغيرها

في هذه الرواية اشارة بان البناء الحر أنشىء للدفاع عن تعاليم النصرانية . وهذا ما يزعمه كثيرون غير البارون تشودي ومنهم دي براج حيث يقول : ان غاية هؤلاء الصليبيين من الارتباط والتعاون كانت حماية انفسهم من العرب بحجب تعاليمهم المقدسة باغشية من الخفاء، ولهذا اتخذوا الرموز اليهودية وجعلوا لها معاني نصرانية، ويذهب البارون تشودي الى ابعد من ذلك فيقول ان البناء الحر نشأ قبل الصليبيين بزمن

طويل « وان أباءنا وأجدادنا الحقيقيين الذين أنشأوا البناء الحر ، أولئك الرجال الاعلام الذين لا أعين توارخهم ولا أخون سرهم كانوا جماعة منظمة تسمى بفرسان الفجر وفلسطين » ، ويضيف أن هؤلاء الآباء كانوا يقفون على العلوم الخفية ومنها السيمياء ، وانهم نبذوا تعاليم اليهودية ليستنيروا بهدى النصرانية . فلما كانت الحروب الصليبية خرج أولئك الفرسان من عزلتهم ومخبئهم في صحاري فلسطين وانضموا الى بعض الصليبيين في بيت المقدس ، وأعلنوا اليهم أنهم من ذرية البنائين الذين بنوا معبد سليمان وأنهم يعنون بالهندسة والتعاليم الفلسفية ومن ذلك الحين اتخذوا اسم البناء الحر وقدموا أنفسهم بهذا الاسم الى الجيوش الصليبية وانضووا تحت ألويتها

وهذا كله حديث خرافة لا يحتاج الى تفنيد ولا تعليق

٧ ـ نرى مما تقدم ان البناء البريطاني يرتد في أصوله الى جماعات البنائين في العصور الوسطى ، وان البناء الحر الفرنسي منذ سنة ١٧٣٧ يرجع أصل الطائفة الى الفروسية الصليبية، وان المراتب العليا التي تعرف بالرسوم الايكوسية قد نشأت في مهد البناء الفرنسي فضلا عن أنها كما سنرى تتشح بثوب من تقاليد الفرسان

والظاهر أن المراتب العليا الاولى كانت على قول براج كما يأتي :

(١) بناء كامل مختار	Parfait Maçon Elu
(٢) مختار برنيان	Elue de Perignan
(٣) مختار الخمسة عشر	Elu des Quinze
(٤) المهندس الصغير	Petit Architecte
(٥) المهندس الاعظم	Grand »
(٦) فارس السيف والصليب الوردي	Chevalier de l'Epée et de Rose-Croix
(٧) الفارس البروسي	Chevalier Prussien

والسادسة من هذه الدرجات هي أول ما ظهر منها ، وهي التي تعرف في البناء الحديث « بأمير الصليب الوردي لهيردوم أو فارس الجارح والنسر » . والخلاف كثير في أصلها وسبب نسبتها الى الصليب الوردي . ولما نزل اللورد دروتوانر عن رياسة المحفل الفرنسي للدوق دانتان في سنة ١٧٣٨ ، أنشئت المراتب الاخرى لاول مرة ، بيد أنها لم تستقر نهائياً الا في سنة ١٧٥٤ . واليك ثبتها مرتبة :

(١) المتمرن البادىء (٢) ابن المهنة (٣) عريف بناء (٤) أستاذ للسر (٥) أستاذ كامل (٦) أمين ثقة (٧) مشرف على البناء (٨) حبر او قاض (٩) مختار التسعة

(١٠) مختار الخمسة عشر (١١) زعيم القبائل الاثنتي عشرة (١٢) أستاذ أعظم مهندس (١٣) فارس القبة التاسعة (١٤) مختار قديم أعظم (١٥) فارس السيف (١٦) أمير بيت المقدس (١٧) فارس الشرق والغرب (١٨) فارس الصليب الوردي (١٩) الحبر الاعظم (٢٠) البطريق الاعظم (٢١) الاستاذ الاعظم لمفتاح البناء (٢٢) أمير لبناس أو فارس الفأس الملكية (٢٣) أمير سيد ملتحق (٢٤) قائد النسرين الاسود والابيض (٢٥) قائد السر الملكي

وظاهر من تلاوة هذا الثبت أن درجاته مزيج من تقاليد الفروسية الصليبية والتقاليد اليهودية ، أو بالحري صدى لتقاليد فرسان المعبد . وقد كان لانشاء المراتب العليا صبغة سياسية وصبغة عداء للنصرانية ، او بعبارة أخرى كان خروجاً على المبادىء الاساسية التي اعتنقها البناء الحر منذ انشاء المحفل الاكبر وصدور الدستور الجديد في سنة ١٧٢٣ وهو الذي قضى « بألا يجري في المحفل حديث ما بشأن الدين او الحكومة »

وقد ألفى خصوم البناء الحر في هذه الخطوة مادة جديدة للطعن والخصومة ، وسخط لها كثير من البنائين أنفسهم ، واعتبرها كتاب البناء الحر خطراً على الطائفة ، وانحرافاً بها عن طريقها الاصلية. ونشأ بسبب ذلك خلاف كبير بين المحافل أدى الى انقسامها الى فريقين متخاصمين ، واشتد التنابذ والتنافس بينهما ، حتى تدخلت الحكومة الفرنسية وقضت بحل المحفل الفرنسي الاكبر في سنة ١٧٦٧

على أن حل المحفل الاكبر لم يمنع استمرار الحركة واجتماع المحافل . وفي سنة ١٧٧٢ أنشىء « المشرق الاعظم » ، وانتخب الدوق دي شارتر له أستاذاً أعظم . ثم استدعى « المشرق الاعظم » المحفل الاكبر للانعقاد وعدم الاذعان الى قرار الحل ، فلبى المحفل الاكبر الدعوة واتحد المحفلان، وأعلن الدوق دي شارتر أستاذاً أعظم لجميع المحافل والمجالس الفرنسية . ويرجع هذا الفوز الى نشاط العنصر الثوري في المحافل . وقد كانت معظم المحافل في المبدأ ملكية ، ولكن سيلاً من الناقمين والساخطين بدأ بجتاحها في أواسط القرن الثامن عشر ، وأولئك هم الذين تغلبوا على البنائين الاصليين وغدوا أغلبية في المحافل قبيل الثورة الكبرى

— ٣ —

البناء الحر الحديث

٨ ـ يكثر الجدل حول غايات البناء الحر وأغراضه الحقيقية . ومن الصعب أن نستخلص من هـذا الجدل نتيجة حاسمة مؤكدة ، فنقطع بأن للبناء الحر أغراضاً مشتركة معينة ترمي الى تحقيقها محافله في جميع الامم . وكل ما يمكن قوله هو أن البناء الحر نظام يربط أعضاءه معاً لتحقيق غاية لا بعينها ، بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف . وليس أدل على ذلك التباين من تباين المعاني التي تنسب لرموز البناء الحر وتباين الشروح التي تنسب الى أساطيره وتقاليده ، فالمثلث قد يعني مبـدأ التثليث ، او الحرية والاخاء والمساواة ، أو غيرها ، وقد يعني العمودان ، القوة والثبات ، أو الرجل والمرأة ، او النور والظلام او غيرهما . وأما الاساطير فقد تمثل خرافة معبد سليمان سير أي مشروع ، ومقتل حيرام فريسة خصومه ، وقد يقصد بالاشارة السرية الى « خسارة أصابت المجتمع البشري » والى تداركها ، اذكاء الهمم ، وبث روح التضحية ، الى غير ذلك من التفاسير والحلول

وعلى ذلك فان نظم البناء الحر كلها في ترشيح الاعضاء الى المراتب المختلفة ، وحملهم على الـكتمان بالايمان الوثيقة ، قد تستخدم لاي غرض اجتماعي او سياسي او انساني او ديني ، وقد تستعمل للبناء او الهدم ، لحماية نظام او سحقه ، لحماية الدين او هدمه ، لتأييد القانون والنظام أو بث الاباحة والفوضى

هذا ولما كان للبناء الحر تقاليد شفوية سرية على طريقة الـكابالا اليهودية تأتم بها الطائفة وتسترشد في سيرها وتصرفها ، فمن الخطأ أن نقرر اللون الحقيقي لشكل من أشكال البناء الحر بالرجوع فقط الى مبادئه ورسومه المنشورة ، بل يجب الرجوع أيضاً الى التعاليم الشفوية التي يعتنقها الاعضاء والى التفاسير والمعاني التي تنسب الى الرسوم والرموز . وطبيعي أن تختلف هذه التفاسير باختلاف الزمان والمـكان . يوصف البناء الحر في دستوره « بأنه نظام خاص للاخلاق ، محجب بالخيال ، مفسر بالرموز » بيد أن المعيار الذي يرتسمه البناء الحر للاخلاق لا يمكن تعيينه أو تكييفه ، فليس من معيار خلقي عام لجميع المحافل ، ومنهـا ما يتخذ معياراً صارماً للاخلاق ، ومنها ما لا معيار له أصلا . كذلك يقال ان فلسفة البناء الحر نظريتان هما وحدة

لالـه وخلود الروح . ولـكن هذا الضرب من الفلسفة لم تعتنقه جميع المحافل ، بل منها ما رفض النظريتين معاً « كالمشرق الاعظم »

فالبناء الحر يختلف اذن باختلاف الامم ، وليست له من مبادىء أو غايات عامة مشتركة . بيد انا نستطيع أن نقسم البناء الحر الحديث الى قسمين كبيرين : البناء الحر في بريطانيا العظمى واميركا وهولاندا والسويد والدانمارك ، وبناء «المشرق الاعظم» الذي يغلب في الامم الـكاثوليكية ، وأعظم محافله هو المشرق الاعظم في باريس

٩ ـ يتخذ دعاة الـكثلكة من كون البناء الحر في الامم البروتستانتية ليس ثورياً أو خصيماً للدين دليلا على ان البروتستانتية تؤيد غايات البناء الحر ، ويتخذ البناؤون من ذلك دليـلا على ان عسف كنيسة رومة قد اضطر البناء الحر أن يتبع سياسة العداء نحو الـكنيسة والدولة . وقد أعلن المشرق الاعظم منذ البداية أنه يعتنق مبدأ البناء البريطاني من عدم التعرض للدين أو الاخلاق، بيد انه لم يكن في تصرفاته العملية حريصاً على تطبيق هذا المبدأ . فهو في احدى نشراته العتيقة يصرح بمـا يأتي : « انه لا يتدخل اطلاقاً في مسائل الحـكومة أو التشريع المدني والديني ، وهو يحمل أعضاءه على الاشتراك في ترقية جميع العلوم ، غير انه يستثني قبول المشتغلين بفرعين من أجمل فروعها ، هما السياسة والدين ، لان هـذين العلمين يفرقان بين الافراد والامم ، والبناء الحر يعمل بالعكس على اتحاد الافراد والامم » ومع ذلك فان « المشرق الاعظم » قد رفع القناع في العهد الاخير ، وأثبت بأعماله وتصرفاته انه يسعى الى تحقيق مآرب سياسية . في سنة ١٨٨٧ صرح بناء مشهور هو الاخ بلان في محاضرة وزعت على المحافل بما يأتي : « ترون معي أيهـا الاخوة ضرورة تحويل البناء الحر الى جمعية سياسية اجتماعية هائلة قوية يكون لها أثر حاسم في قرارات الحكومة الجمهورية » . وصرح البناء فرنان موريس سنة ١٨٩٠ بقوله : « يجب ألا يحدث شيء في فرنسا دون أن يكون لعمل البناء الخفي أثر فيـه ، ولئن اعتزم البناءون أن ينظموا أنفسهم فلن تمضي عشرة أعوام حتى لا يستطيع أحد في فرنسا أن يتحرك دون اشارتنا »

وفي كل ذلك ما يكشف أمر المعارضة القوية التي نظمها « المشرق الاعظم » لمقاومة الـكنيسة والحـكومة مؤيداً بذلك خروجه على دستور البناء الاصلي . هذا الى ان « المشرق الاعظم » ثوري في نزعته هدام في جهوده السياسية ، فهو خلافاً للبناء البريطاني الذي يجعل شعاره : « الحب الاخوي والغوث والحقيقة » يعتنق

شعاراً ابتدعته المحافل الفرنسية القديمة وغدا فيما بعد صيحة الثورة الفرنسية وهو : « الحرية والمساواة والاخاء » . وشعار المساواة هذا هو الذي يحبب البناء الى الفرنسيين . واذا كان « المشرق الاعظم » مخلصاً في اعتناق هذا الشعار فانه يرمي اذن الى أن يحقق المساواة العامة على النحو الذي نادى به روبسبير وبابيف . أما مبدأ الحرية ، وهو صيحة روسو التي أدمجت بعد في اعلان حقوق الانسان ، فيقول « المشرق الاعظم » بشأنها كما قال روسو من قبل : « ان كل الناس أحرار بالطبيعة وعلى ذلك فيجب ألا يخضع انسان لآخر أو ينتحل لنفسه حقاً في حكمه » . وأما مبدأ الاخاء فهو فكرة ثورية بلا ريب وهي شعار الاشتراكية الثورية ، وشعار الشيوعية ، وليس لاعتناقه من معنى سوى ان البناء الحر الاعظم يقصد كباقي الجمعيات الثورية الهادمة الى محو كل شعور وطني وكل نزعة قومية على النحو الذي تنادي به اليوم دولية موسكو الشيوعية . وهذا ما يقرره البناء راجون في كتابه بوضوح حيث يقول : « ان البناء هو الذي يستطيع دون غيره أن يصوغ هذا القانون الانساني الذي يفضي نشاطه المضطرد في سبيل انشاء تناسق اجتماعي عظيم الى مزج جميع الاجناس ، والطبقات المختلفة ، والاخلاق ، والقوانين ، والعادات ، واللغات ، والازياء ، . . . وستغدو دعوته الفاضلة قانوناً انسانياً لكل الضمائر » . ثم يقول في موضع آخر : « ان كل اصلاح خير ، وكل فائدة اجتماعية تترتب عليه ترجع الى مؤازرة البناء . وهذا اللغز يرجع الى قوة تنظيم البناء ، فهو يسيطر على الماضي . ولن يستطيع المستقبل افلاتاً منه . هذه القوة وحدها هي التي تستطيع تحقيق تلك الوحدة الاجتماعية البديعة التي تخيلها سان سيمون وأوين وفوريه ، ولئن شاء البناؤون فان آراء أولئك المفكرين الانسانيين لن تبقى بعد مثلا خيالية »

أولئك المفكرون الانسانيون هم الذين وصفهم كارل ماركس بالاشتراكيين الخياليين فشعار المشرق الاعظم اذاً هو الاشتراكية الخيالية « يتوبيا » ، وقد كان سواد اولئك الاشتراكيين من اخوة البناء ، أو من أعضاء جمعيات سرية اخرى . وهذا ما يؤيده البناء كلافل بوضوح حيث يقول : « لتمح من بين الناس فروق الجنس والمراتب ، والمذاهب والآراء والوطن ، لتمح التعصب ، وليقض على وباء الحرب ، وبالجملة ليجعل من الجنس البشري أسرة واحدة يوحدها الحب والاخلاص والعمل والعلم . هذا هو العمل العظيم الذي أخذه البناء الحر على عاتقه . . . »

هـذه المبادىء والغايات ، هي التي ينادي بها اليوم تلاميذ ماركس ولنين ودعاة الثورة العالمية !

١٠ـ أما فيما يتعلق بالدين فان «المشرق الاعظم» قد خرج أيضاً على دستور المحفل الاكبر البريطاني الذي يقضي، كما رأينا ، بعدم التعرض للمسائل الدينية.وقد أضحى البناء قوة في الامم الكاثوليكية يضطرم النضال بينه وبين الـكنيسة ، وقد صرح بناء مشهور هو البانسيلي بقوله : « ان البناء الحديث عدو الـكنيسة وعدو الـكثلـكة ، هو كنيسة الالحاد » . بل صرحت مجلة المشرق الاعظم في سنة ١٨٨٥ بما يأتي : « نحن البناؤون الاحرار يجب أن نقصد الى هدم الـكثلـكة هدماً تاماً » ، ولا يقتصر «المشرق الاعظم» على مناصبة الـكثلكة العداء بل يهاجم كل المذاهب والنحل الدينية ، وكل ضروب الايمان الروحي. وقد قرر «المشرق الاعظم» في سنة١٨٤٩اعتناق فكرة المهندس الاعظم للـكون ، وخلود الروح اذ صرح«بأن قاعدة البناء الحر هي الاعتقاد في الله ، وفي خلود الروح ، وتضامن الانسانية » بيد أنه لم يمض زمن طويل على ذلك حتى محا هذا النص من مبادئه وأغفل كل اشارة للمهندس الاعظم ، واستحدث النص الآتي « ان قاعدة البناء الحر هي حرية الاعتقاد التامة وتضامن الانسانية » . وقد حدا ذلك بالمحفل البريطاني الذي لا يذهب في حرية الاعتقاد الى حد الالحاد والانكار ويحتم أن ينتمي كل بناء الى دين ما وأن يوضع فوق المائدة في المحافل كتاب مقدس ـ كالتوراة في انجلترا ، والقرآن في البلاد الاسلامية ـ حدا به ذلك الى أن يقطع علائقه مع المشرق الاعظم في سنة ١٨٧٨

ولم يقف المشرق الاعظم في عدائه للدين عند هذا الحد بل طلب الى كل اعضائه أن يعلنوا اعتقادهم بأن المهندس الاعظم (الله) ليس الا خيالا وحديث خرافة ، وصرحت المحافل بالقاء المطاعن الحادة في الدين ، ونقده ، وهدمه والسخرية من مبادئه ونظرياته ، مثال ذلك أن بناءً حراً هو دلبش التى في سنة ١٩٠٢ في مأدبة بنائية خطاباً حماسياً شدد فيه الحملة على النصرانية ، وقال فيه : « لقد استمر الظفر الجليلي عشرين قرناً . غير أنه أخذ يحتضر بدوره . واليوم يعلن ذلك الصوت الخفي ـ الذي أعلن ذات يوم موت بان في جبال ابيروس ـ موت ذلك الاله الدعي الذي وعد المؤمنين بعهد عدالة وسلام . لقد استمرت الخرافة طويلا جداً ، ولـكن الاله الـكاذب يختفي بدوره ، ويذهب ليغيض في غبار القرون الى جانب آلهة الهند ومصر واليونان وروما ، تلك الامم التي شهدت كثيراً من هذه المخلوقات الزائفة تهبط

الى أسفل هياكلها . ونحن البنائين الاحرار نغتبط بأن نجاهر بأنا لا نعني بسقوط أولئك الانبياء الزائفين . وقد أخذت الكنيسة الرومانية التي أسست على دعائم الخرافة الجليلية تدهور بسرعة منذ أن أنشئت جمعية البناء . وكثيراً ما اختلف البناؤون الاحرار على الوجهة السياسية ، ولكن البناء الحر قد أجمع في كل العصور على هذا المبدأ وهو : محاربة كل الخرافات الدينية وكل ضروب التعصب الديني »

والخلاصة أن «المشرق الاعظم» على ما يؤكده خصوم البناء الحر ، هيئة هدامة ، تقصد الى سحق جميع المبادىء الدينية والاخلاقية ، بيد أن بعض الباحثين لا ينسبون هذه النزعة الثورية الهدامة الى البناء الحر ذاته بل الى قوة خفية تعمل من ورائه ، وان المشرق الاعظم ستار فحسب ، وعلم ينضوي الاعضاء تحته للعمل لغاية يجهلونها ، بل لا يقف سواد البنائين في المراتب العليا على غايات الهيئة الخفية ، ولا على القوى التي تعمل من ورائها . ثم يقولون ان هنالك ثلاثة أنواع كبرى من البناء الحر متدرجة في السمو هي البناء الازرق وفيه لا يكشف شيء من الاسرار الحقيقية للاعضاء ويعتبر فقط مكاناً لاختيار الاخوة المخلصين ، والمراتب العليا وفيها لا يكشف للاعضاء من الاسرار الحقيقية سوى اليسير ويفهمون مع ذلك أنهم قد وقفوا على كل أسرار الهيئة ، والهيئة الداخلية ، وهي مرتبة « الاساتذة الحقيقيين » وهم الذين يحتجبون وراء البناء الاعلى ، ولا تعتبر الدرجات في اختيارهم دائماً . وهذه الهيئة الداخلية ، أو البناء الحر الخفي دولية الصبغة الى حد عظيم

١١ — فما هي هذه القوة الخفية التي تسير البناء الحر ولا ترى ؟ يجيب البعض انها هي القوة « اليهودية » وان قادة المشرق الاعظم سوادهم من اليهود . ثم يقولون انه لا مراء في أغراض البناء الثورية ، بل لا مراء في أن هذه الاغراض هي غايات الاشتراكية الدولية نفسها . ويكفي للتحقق من ذلك أن نلقي نظرة على برنامج المناقشات في ٥ يونيه سنة ١٩٢٢ كما نشرته مجلة المشرق الاعظم :

(١) « الاتحاد وفرنسا ». قراءة تقرير اخينا ت .·. س .·. ف .·. شاردار عن « استثمار الثروات القومية لفائدة الجماعة »

(٢) «المجددون» : «استثمار الثروات القومية والمشاريع الكبرى لفائدة الجماعة» محاضرة أخينا ف .·. جولدشمت عن نفس الموضوع

(٣) « الانسانيون المتحمسون » : « هل ثمة ضرورة لتغيير المجتمع الحاضر ؟ » محاضرة . . . الخ

(٤) «السلام والعمل والتضامن» : «دور البناء الحر في السياسة الحاضرة » . . .
(٥) « الاشتراكية الفرنسية » . . .
(٦) «القلوب المتحدة المجتمعة» : « كيف نبث مثلنا البنائية في العالم الدنس » . . .
(٧) « الارهاب والخطر الفاشستي في ايطاليا. الفاشزم والبناء الحر الايطالي »...

نرى من ذلك أن البناء الحر يعتنق المثل الاشتراكية ، بل يبث الاشتراكية ذاتها ، وهو لذلك خصيم الفاشزم والفاشزم خصيمة الاشتراكية كما نعلم ، وقد ظهرت هذه الخصومة واضحة منذ انتصار الفاشزم في ايطاليا ، وقيام الارهاب الفاشستي على يد موسوليني وشيعته ، حيث أصدر البناء الحر في ايطاليا عدة قرارات يعارض بها سياسة موسوليني ، وصفتها الصحف الفاشستية بأنها تأييد لنفس المبادىء التي كادت تودي بايطاليا أعني المبادىء الاشتراكية، وعلى ذلك أصدر موسوليني أمره بأن يهجر المحافل كل فاشستي

وقد سلك البناء الحر في بلجيكا نفس هذه السبيل السياسة وأبدى مثل هذه النزعة الهدامة ، واعتنق التفكير الحر . ولم يقف البناء الحر في اسبانيا والبرتغال عند بث الدعوة الهادمة بل خاض غمار الثورة خوضاً وقد أخفقت مساعيه الثورية في اسبانيا ، ولكنها كللت في البرتغال بفوز تام . فمنذ سنة ١٩١٠ الى سنة ١٩٢١ كانت الثورات البرتغالية تنظم باشراف البناء الحر وجمعية « الكوربوناريوس » السرية ، وهما اللتان دبرتا مقتل الملك كارلوس وولده والملكة اميلي وزوجها ، وكان من زعماء الجمهورية الجديدة مجالياس ليما الاستاذ الاعظم للمشرق الاعظم البرتغالي . والبناء الحر هو الذي دبر مقتل السفيور بايس رئيس الجمهورية في سنة ١٩١٨ ، وكذلك مقتل غيره من الزعماء والرؤساء ، بل ان الحكومة البرتغالية الحالية لا تخفي صبغتها البنائية ، فهي تطبع المربع والبرجل فوق أوراقها المالية

١٢ ـ وبينما البناء الحر في اسبانيا والبرتغال يخوض غمار الاضطرابات الثورية والفوضوية ، اذا به في شرق أوربا يعتنق الاشتراكية المركسية (الشيوعية) ، ويعمل في الغالب باشراف اليهود وتدبيرهم . وقد نشرت في المجر بعد سقوط حكومة بيلا كون الشيوعية وثائق تؤيد أن الاشتراكية اجتاحت جميع المحافل ، وان نظريات ماركس وانجلز كانت تلقن الى اخوة البناء الحر منذ بدء هذا القرن ، ويدعون الى نبذ المثل الخيالية « اليتوبيا » لان مصالح الكتلة العاملة تعارض أشد المعارضة مع مصالح

الطبقات الاخرى ، ولا يمكن تحقيق هـذه المصالح الا بالجهاد الدولي . وقد كانت حكومة كارولي ثمرة لهذه الدعوة ، ومن ثم استطاعت العناصر المتطرفة أن تنمو وأن تشق طريقها الى الثورة

كذلك اتخذ البناء الحر في أنحاء أخرى من شرق أوربا صبغة سياسية قومية ، فقد نشأت حركة تركيا الفتاة في محافل سالونيك باشراف المشرق الاعظم الايطالي ، وهذه الحركة هي التي اعتمد عليها مصطفى كمال بعد في وثبتـه لتحطيم نير الاستعمار الاوربي الذي دفع باليونان الى غزو الاناضول ، وانقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية الذاهبة لينشىء منها تركيا الحديثة الناهضة . ومما يلفت النظر أنه ما زالت توجد في بلدان المشرق آثار من الجمعيات السرية الشرقية القديمة ، كالدروز مثلا ، وهم الذين يمكن وصفهم بحق أنهم بناؤو الشرق ، فنظامهم الخارجي ، ومراتبهم تشابه مراتب البناء الحر في الامم الغربية ، ومع ذلك فقد بلغ من حرصهم في التكتم أن قلما يستطيع انسان أن يقف على حقيقة مبادئهم السرية ، وان عرفت عنهم بعض أمور أوردنا خلاصتها فيما تقدم

١٣ ــ بقيت كلمة عن البناء الحر البريطاني ، فهو يختلف كما رأينا في نظمه ونزعته وغاياته عن المشرق الاعظم . والمعروف ان البناء في بريطانيـا هيئة إنسانية تعمل لتخفيف آلام البشر وتحقيق التضامن والاخاء . وأهم من ذلك وهي نقطة الخلاف الجوهرية ان البناء البريطاني غير سياسي في نزعته ولا غايته في القول وفي الفعل ، واحدث دليل على ذلك ما ورد في تقريره الذي أصـدره مجلس المحفل الاكبر في ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٣ قبيل إجراء الانتخابات التي أسفرت عن قيام حكومة العمال من انه « يحظر في الاجتماعات البنائية المناقشة في كل امر ذي صبغة سياسية ، ويجب ألا يستخدم البناء لاي غرض شخصي او سياسي متعلقـاً بالانتخابات ، وان كل محاولة يقصد بها زج البناء الى غمار المعركة الانتخابية يعتبرخروجاً خطيراً على نظم البناء »

وهذه النزعة قديمة في البناء البريطاني ، كذلك لا يعتنق البناء البريطاني نزعة دوليـة ، وفكرة النظم الدولية للبناء ترجع الى سنة ١٨٨٩ حينما قرر مؤتمر البناء في باريس ان يحيي ذكرى الثورة الفرنسية ، بيـد أنها لم تخرج الى حيز الفعل الا في مؤتمر جنيف الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٠٢ إذ قرر منـدوبو المحافل ، والمحافل العظمى ، والمشارق العظمى إنشاء مكتب دولي للشؤون البنائية ، ووافق على هذا القرار

محافل عشرين دولة . ولم يشترك البنـاء البريطاني في هذا المؤتمر او غيره من الحركات المماثلة

وعلى ذلك فقد خاصم البناء البريطاني المشرق الاعظم منذ البداية بسبب مبادئه ونزعاته التي تعتبر خروجاً على تعاليم الطائفة الاصلية وان كانت هذه الخصومة شكلية في الظاهر ولم تقترن ببوادر عنف ولا يعرف عنها العالم الخارجي سوى النزر اليسير

وإذ كان البناء البريطاني بعيداً عن اهواء السياسة ، فهو بعيد عن النزعات الثورية ايضاً . اما نزعته الدينية فهي حرية الاعتقاد كما رأيت ، وهو لذلك بعيد عن تعضيد هذه الدعوات العنيفة التي يقصد بها الى هدم التعاليم والمعتقدات الدينية

الفصل الثاني

فردريك الكبير والجمعيات السرية

(١) فردريك والبناء الحر . جمعية الرقابة الصارمة (٢) تجديد جمعية الفرسان . الدور الذي لعبه فردريك وفولتير في ذلك . فردريك ينشيء مراتب جديدة للبناء ويجوز الى أرفعها (٣) آثار سياسة فردريك . دائرة المعارف من عمل البناء الحر . وحي البلاط البروسي (٤) جمعية صفوة الاحبار . رسومها ومراتبها . بعض الجمعيات الاخرى. استتارها بالبناء الحر . اتحاد المحافل . سافلايت دي لانج . الجمعيات مهبط وحي خفي

١ ـ كان فردريك الكبير قبل ارتقائه العرش البروسي يسخر من البناء الحر ويصفه بأنه لعبة لاعب ، غير أنه في سنة ١٧٣٨ أي حينما كان ولياً للعهد اعتزم فجأة أن يتعرف أسرار البناء الحر ، فجاز رسوم الالتحاق بالطائفة على عجل في ليلة ١٥ أغسطس أثناء مروره بمدينة برونسفيك . وتم الاحتفال في أحد الفنادق على يد وفد انتدبه لذلك كونت فون ليبه بيكابورج عضو محفل همبورج . ثم نرى فردريك في يونيه سنه ١٧٤٠ أي بعد أن ارتقى العرش رئيساً لمحفل كارلوتنبرج ، ونراه يضم الى المحفل اثنين من اخوته وصهره ، ودوق ولهلم فون هولشتاين بك . ثم أسس البارون فون بيلفلد والمستشار يوردان بأمره محفلا في برلين باسم « العوالم الثلاثة » ولم تأت سنة ١٧٤٦ حتى كان يسيطر على أربعة عشر محفلا ثانوياً . وفي سنة ١٧٤٠ أيضاً دعا فردريك فولتير الى زيارته ، وكان يكاتبه قبل ذلك بأعوام ، فلبى فولتير دعوته وزاره لاول مرة . ويقال ان فولتير لم يكن قد التحق حينئذ بالبناء الحر وانه لم يلتحق به الا في سـنة ١٨٧٨ حينما انضم الى محفل الاخوات التسع في باريس ، غير أن الظاهر أنه كان ينتمي قبل ذلك الى هيئة بنائية أخرى . وعلى أي حال فقد تلى زيارة فولتير لالمانيا حادثان مهمان في البناء الحر الفرنسي أولهما انشاء الدرجات الاضافية ، والثاني قدوم مندوب الماني بناء هو فون مارشال الى باريس بمهمة انشاء هيئة جديدة من فرسان المعبد واحياء هذه الهيئة . ثم تبعه بعد ذلك بعامين البارون فون هونت ليتم نفس هذه المهمة . وأذاع فون هونت حينئذ دعوة حاول أن يثبت فيها أن التهم التي أسندها فيليب الجميل والبابا الى طائفه الفرسان كانت تهماً كاذبة مزورة لفقها فارسان جردتهما الهيئة من امتيازاتهما لجرائم ارتكباها ، وانتهى في سنة ١٧٥١ بأن أسس هيئة

جديدة من الفرسان باسم « الرقابة الصارمة » Stricte Observance . وكانت « الرقابة الصارمة » في الواقع جمعية ألمانية محضة قوامها رجال من الطبقات المتنورة والارستوقراطية ، وأنشئت مراتبها على نمط مراتب الفروسية القديمة ، مثل فرسان القمر ، والكوكب والشمس الذهبية وغيرها ، وانضم اليها جماعة من الامراء والوزراء الالمان مثل كارل أمير هاسه ، ودوق برونسفيك ، والوزير البروسي فون بشوفسفردر وغيرهم . وكانت الهيئة ظاهرة معروفة يقودها في الظاهر جماعة من ذوي الجاه والنفوذ ، غير أنها كانت في الواقع آلة في أيدي زعماء مستورين يسيرونها في الخفاء . وقد أشار ميرابو الى ذلك في كتابه عن تاريخ الملكية البروسية ، بقوله : « ظهر حوالي سنة ١٧٥٦ ، رجال كانما خرجوا من بطن الارض ، يزعمون أنهم رسل رؤساء مجهولين وقد خولوا حق اصلاح طائفة البناء الحر ، واعادتها الى مقامها القديم . وقد وفد واحد من اولئك الرسل يسمى يونستون على فيمار وبينا واستقر هنالك ، فاستقبله الاخوة (البناؤون) أحسن استقبال ، وقد خلبهم أمل الاسرار العظيمة ، والاكتشافات الهامة التي لم تكشف اليهم قط »

وقد ورد في مذكرات أمير هاسه ان ذلك الرجل المدعو يونستون الذي كان يلقب نفسه « بمقدم الطائفة الاكبر » هو يهودي يدعى لايخت ، ويقول عنه جولد في تاريخه (البناء الحر) : انه كان أفاقاً خبيثاً وداهية في الخداع والدس . بل كان في الواقع خطراً على الطائفة حتى ان فون هونت بعد أن استخدمه حيناً حرض به فزج الى قلعة فارتبورج حيث توفي فجأة مسموماً على ما يظهر

٢ ـ ولتعاقب هذه الحوادث على هذا النحو مغزى ظاهر ، فهي كلها ثمرة الدعوات السرية المختلفة التي كانت تجتاح أوربا وتنفذ لغايات وأغراض خفية ، ومن المهم أيضاً ما ورد بعد ذلك في تاريخ طائفة فرسان المعبد الذي ظهر في أوائل القرن التاسع عشر وأشرنا اليه في فصل سابق من أن فردريك الكبير كان من أعظم أعضاء هذه الطائفة ، وانه قدس في سنة ١٧٣٨ أي في نفس الوقت الذي انضم فيه الى البناء الحر وهذا مما يؤيد علاقة فردريك بطائفة الفرسان في هذا العهد

وعلى ذلك فاما أن تكون هذه الوثائق التي أصدرت عن جمعية فرسان المعبد في أوائل القرن التاسع عشر صحيحة بمعنى ان الجمعية استمرت في الوجود حقيقة منذ الحروب الصليبية ، وان مرتبة الصليب الوردي قد نقلت على يد الفرسان الى ايكوسيا ثم نقلها الشفاليه رامسي الى فرنسا بعد ذلك بأربعة قرون ، وان الاستاذ الاعظم

للجمعية في ذلك الحين كان الدوق دورليان وصي المملكة ، وان فون هونت قد نقل بعد ذلك من ألمانيا درجات جديدة للفرسان بأمر فردريك الكبير

واما ان تكون هذه الوثائق مزيفة ، كما يرى البعض ، زيفها في أوائل القرن الثامن عشر زعماء « الرقابة الصارمة » في المانيا ، وان فولتير وفردريك الاكبر كانا أعظم أولئك الزعماء المستترين

وسواء صح القول الاول أو الثاني فان فردريك الكبير قد ادى في الحالتين اهم دور في تجديد الفرسان بمساعدة فولتير الذي يشيد بقضية الفرسان في رسالته عن الاخلاق Essai sur les Moeurs



فردريك الكبير ملك بروسيا

وظاهر ان الاهواء والدسائس السياسية هي التي حملت فردريك الكبير على ان يزج بنفسه في هذه الحركات السرية ، فقد رأى بادىء بدء ان البناء الحر قوة سرية يمكن الاعتماد عليها ومن ثم كان التحاقه الفجائي به ، غير انه رأى تقوية لنفوذه ان يستتر بالمعرفة العليا وان يستمسك بأذيال الخفاء ورأى في نظام الفرسان حجاباً نافعاً يحقق هذه الغاية . كذلك لا ريب في انه لم يجد بين علماء اوربا من هو اكثر

الماماً من صديقه فولتير باخبار العصور القديمة والوسطى ، واشد عداوة للكنيسة الكاثوليكية ، واوفر كفاية لاحياء طائفة قديمة انشئت لمحاربة تعاليمها . ومن ثم كان استدعاؤه للفيلسوف على عجل ، ومن ثم كان تزييف الوثائق اللازمة على يد مزور ماهر . يؤيد ذلك ما رأيناه من قدوم فون مارشال الى فرنسا لتأسيس الفرسان من جديد ، وكذلك إدعاء فون هونت بعد ذلك انه قد ظفر باسرار الطائفة الحقيقية كما توقفت منذ القرن الرابع عشر ، بل لعل هذه الاسرار والوثائق التي أشار اليها فون هونت هي بعينها التي نشرت في أوائل القرن التاسع عشر ، وأنها كانت من صنع فولتير نفسه بمعاونة يهودي يجيد كتابة السريانية ، وكثيراً ما كان فردريك الكبير يستخدم اليهود للقيام بمختلف المهام ولا سيا المريبة منها



فولتير

ومهما كان من الامر فان اهتمام فردريك الكبير بامر البناء الحر والسيطرة على حركاته يبدو مضطرداً خلال القرن الثامن عشر ، ففي سنة ١٧٨٦ حينما أنشئت مرتبة الكمال كان فردريك على ما يقال هو الذي قام برسوم الاحتفال ووضع نظاما جديدة للطائفة ، ونظم الدرجات ورفع عددها الى ثلاث وثلاثين على النحو الآتي : (٢٦) امير الرحمة (٢٧) قائد المعبد الاعلى (٢٨) فارس الشمس (٢٩) الفارس الايكوسي الاعظم للقديس اندروز (٣٠) الفارس المنتخب الاعظم لكادوش (٣١) القائد

المفتش المحقق الاعظم (٣٢) الامير السامي للسر الملكي (٣٣) المفتش العام الاكبر الاعظم [١]

وفي الدرجات الاربع الاخيرة يلعب فردريك وبروسيا دوراً عظيما ، وفي الدرجة الثانية والثلاثين يوصف فردريك بانه رئيس البناء الحر الاوربي ، ثم ينال لقب الدرجة الاخيرة فيغدو « المفتش العام الاكبر الاعظم » ويوصف فيليب دوق دورليان وصي المملكة الفرنسية والاستاذ الاعظم للمشرق الاعظم بانه نائبه ومساعده وقد كانت الدرجة الثانية والثلاثون اهم الدرجات الجديدة ، وكان إنشاؤها في الواقع وسيلة لاجتذاب شعب البناء الحر كلها الى مركز واحد ووضعها تحت سلطان رئيس واحد ، ومن ثم كان نفوذ فردريك العظيم في حركات البناء الحر ، واعتباره بطل الطائفة في كل ناحية ، وليس ذلك معنى ان فردريك كان اميراً مخرفاً مخلص لخرافات البناء الحر ، فهو بالعكس لم ينقطع عن ازدرائه والسخرية منه سراً ، بيد انه لم ينقطع ايضاً عن التظاهر باجلاله واحترامه قط ، وذلك تحقيقاً للسياسة التي رسمها من السيطرة على قوى البناء الحر كلها وحشدها لخدمة مآربه وغاياته السياسية

٣ — وقد فاز فردريك في سياسته فوزاً عظيما ، فاشتد نفوذ البلاط البروسي في الدوائر والاوساط الفرنسية واجتمعت الحركة العقلية في فرنسا حول فردريك على يد البناء الحر ايضاً ، واخرجت دائرة المعارف الفرنسية الاولى على يد ديدرو ودالمبر وهلفاتيوس وكوندرسيه وغيرهم ، فأثارت دعوة فكرية عظيمة كان لها اثر كبير في عقلية المجتمع الفرنسي قبيل الثورة . وقد كان هذا القاموس الكبير مشروعاً فكر البناء الحر في اخراجه منذ بعيد اي منذ ان أسس المشرق الاعظم في سنة ١٧٣٧ والقى الشفاليه رامسي خطبته الشهيرة التي اقترح فيها ان يتعاون الاساتذة العظام في جميع الامم على حث الاخوة على التعاون لجمع مواد قاموس عام يحتوي كل الفنون والعلوم الحرة المفيدة . فلما انتظمت احوال المشرق الاعظم ، واستطاع البلاط البروسي ان يملك زمامه وناصيته ، أوحى الزعماء المحجبون الى ديدرو وزملائه وكلهم من البنائين الاحرار ان يضعوا قاموسهم العظيم وامدوهم بالنصح والمال ، وطلع القاموس الكبير على المجتمع الفرنسي بكل جديد في العلوم والمعارف ، يفيض هدماً للمبادىء والتقاليد القديمة ، وطعناً في المعتقدات والخرافات الدينية حتى اضطرت الحكومة الى التدخل ووقف اتمامه

(١) عددنا المراتب الخمس وعشرين الاولى في كلامنا عن البناء الحر

وكون اخراج دائرة المعارف في القرن الثامن عشر عمل من اعمال البناء الحر ، امر لا ينكره البناؤون انفسهم بل يفخرون به و يشيدون بذكره ، ومن ذلك ما قاله البناء بونيه في مؤتمر المشرق الاعظم الذي عقد في سنة ١٩٠٤ :

« في القرن الثامن عشر كان الانسيكلوبيديون يؤلفون في معابدنا هيئة مضطرمة كانت هي التي وحدها تستمد الصيحة الباهرة التي لم يكن يعرفها الناس يومئذ وهي : « الحرية والمساواة والاخاء » . وقد أثمر البذر الثوري عاجلا بين هذه النخبة ، واتم اخواننا البناؤون المشاهير دالمبر وديدرو وهلفاتياس ودولباخ وفولتير وكوندرسيه تطور العقول وهيأوا العدة لعهد جديد . فلما سقط الباستيل ، كان للبناء الحر الفخر العالي في ان يهب الانسانية ذلك القرار الذي صاغه باخلاص : اعلان حقوق الانسان »

والواقع ان فردريك وخلفاءه من آل هوهنتسولرن كانوا جميعاً يحرصون على استخدام أية حركة أو جماعة تساعد على نشر النفوذ البروسي والسيادة البروسية . وقد استخدم فردريك البناء الحر لذلك الغرض ، واستخدم اليهود والفلاسفة والكتاب من مختلف الامم ، وكل ذلك سعياً الى تحقيق مشروعه العظيم وهو سحق الملكية الفرنسية وفصم تحالفها مع النمسا الذي كان يرى فيه خطراً عظيما على حياة بروسيا

٤ — في ذلك الحين ظهرت في فرنسا هيئة أخرى تتشح برداء البناء الحر وليست منه . وكان شغف الخفاء كما قدمنا يجتاح اوربا في أواسط القرن الثامن عشر ، وكان للمشعوذين والسحرة مكانة في بعض القصور مثل بلاط بطرسبورج في أيام الملكة حنه دي كورلاند . كذلك كانت الطبقات العالية في المانيا وفرنسا تشغف بدعاوي ما وراء الغيب ، والبحث لاستكشاف الاكسير الذهبي واكسير الحياة والشباب ، ومحاولة الاتصال بالارواح وغيرها من صنوف الخفاء التي اتينا على وصفها . وقد انتظم هذا الشغف في فرنسا الى حركة منظمة ، رأت ان تستتر بالبناء الحر لنشر دعوتها وإخفاء مقاصدها التي كانت تثير ريب السلطات . ففي سنة ١٧٥٤ أنشأ مارتين دي باسكالي او بسكاليس ، وهو بناء من مرتبة الصليب الوردي جمعية « صفوة الاحبار » Elus Cohens التي عرفت فيما بعد بجمعية المارتينيين أو « الشعلة الفرنسية » . وقد وصف باسكالي بأنه يهودي اسباني ، بيد انه اتخذ النصرانية شعاراً لطائفته . ولم تلبث هذه الجمعية ان غدت قوة كبيرة في فرنسا

وكانت رسوم « الشعلة الفرنسية » قسمين اولهما يمثل سقوط الانسان ، والثاني نهوضه ، وهي اسطورة البناء الحر بذاتها . وقد كانت الدرجات شبيهة بدرجات البناء الحر ايضاً ، وهي على الترتيب ، الحبر المتمرن ، الحبر الزميل ، الحبر الاستاذ ، ثم المهندس الاعظم ، والمنتخب الاعظم أو فارس الشرق . وقد بدأ باسكالي جمعيته في مرسيليا وتولوز وبوردو ثم انتقل الى باريس وانتشرت بعد ذلك في جميع مدن فرنسا ، وأنشئت لها محافل عدة كان مركزها الرئيسي في ليون ، وانشئت على أثر ذلك عدة جمعيات أخرى للخفاء مثل «شعلة افنيون» التي أنشأها دوم برنتي في سنة ١٧٦٠ تحت ستار البناء الحر أيضاً ، وقصد أن ينشر بواسطتها تعاليم سويدنبورج . وكانت التعاليم اليهودية السرية تجثم وراء كل هذه الجمعيات ، وكلها تمجد تعاليم الصليب الوردي ورسومه التي رأينا أنها ترجع الى أصل يهودي . وأنشأ البارون فون اكهوفن في ڤينا جمعية تعرف « باخوة آسيا » قيل انها تتمة لجمعية « اخوة الصليب الذهبي الوردي » التي أنشأها في سنة ١٧١٠ راهب سكسوني يدعى صمويل رختر . بيد ان الغموض يحيط نشأة هذه الجمعية وغاياتها ، وكل ما يعرف عنها أنها كانت تضم يهوداً وتركاً وفرساً وأرمنيين ، وان درجاتها ورموزها كانت عبرية ، وانها كانت تعنى بمسائل الاخلاق والطبيعة وفك الطلاسم والرموز ، وان أعضاءها كانوا يقسمون الاخلاص والطاعة العمياء لكل ما يلقى عليهم من التعليمات والاوامر دون معرفة مصدرها والغاية من تنفيذها

وقد ذاع أمر هذه الجمعيات والطوائف في كثير من الدول الاوربية ولا سيما فرنسا حيث شغف الناس بأسرارها وتعاليمها وهرعوا اليها رجالا ونساءً ، وتدهورت رسوم البناء الحر ونظمه الى حفلات روحية تحضرها النساء فيصرخن ويغمى عليهن ، وغدت « الشعلة » قوة عظيمة تناهض البناء الحر ، حتى اضطرت جمعيات البناء على اختلافها الى التفاهم والاتحاد ، فانضمت جميعاً في سنة ١٧٧١ الى محفل جديد يعرف «بالاخوة المتحدين» ، وكان ذلك الاتحاد على يد سافاليت دي لانج كبير الخزانة الملكية وكان سفاليت بناءً من درجة عالية ، عليماً بأسرار المحافل ، متفقهاً في دسائسها وخفاياها فرأى توثيقاً لعرى الالفة والاتحاد بينها أن يمزج في المحفل الجديد بين طرق المارتينية والشعوذة ، وأن يجتذب اليه الارستوقراطية باقامة الحفلات والمراقص الشائقة فكان يهرع اليها النبلاء والسادة رجالا ونساءً دون أن يعلموا أن وراءها تختفي جمعية

سرية هائلة ، ترمي الى تحقيق المساواة فيما وراء قصورهم وبذخهم . وأنشأ سافاليت دي لانج في نفس الوقت رسوماً جديدة هي مزيج من تعاليم سويدنبورج ، وباسكالي ، وأسرار الصليب الوردي ضم اليها زعماء « الاخوة المتحدين » مثل الكونت دي جيلان ، وأمير هاسه ، وكوندرسيه وغيرهم

من صميم هذه الحركة برز أقطاب السحرة والافاقين الذين حيروا قصور هذا العصر ومجتمعاته بافتنانهم في ضروب السحر والسيمياء والشعوذة ، وقد كانوا جميعاً من البنائين الاحرار في الظاهر بيد أنهم كانوا جميعاً ينتمون الى جمعيات سرية أخرى . وقد أتينا على سيرتهم وأعمالهم في فصل سابق. بيد أن الذي نريد أن نلفت اليه النظر هنا ، هو ان الوحي الذي كانت تتلقاه هذه الجمعيات ويتلقاه أولئك السحرة ، كان يرجع الى مصدر غير هذه الجمعيات نفسها ، وانه كانت ثمة في الخفاء قوة أخرى تشرف على تلك الحركة برمتها ، وتديرها في كل بلد بما يتفق مع خططها وغاياتها

ما هي هذه القوة الخفية ؟ وما هي الغايات التي كانت تسعى الى تحقيقها ، وتحشد من أجلها الجمعيات السرية ، والسحرة والسيمائيين والافاقين ؟ هذا ما سنحاول ان نبينه في الفصل القادم

الفصل الثالث

مدرسة الكابالا اليهودية

(١) أصل الكابالا . الروح الثورية اليهودية (٢) انتشار التعاليم اليهودية . ظهور شابيتاي أو المسيح المنتظر . اسرائيل البدولي . فرنك وطائفته (٣) مبعث السحرة اليهود . الدكتور فوك وعجائبه (٤) حقيقة مهمة فوك . فوك والشاعر ليسنج . ماذا وراء البناء الحر ؟

١ ـ ان الدور الذي قام به الدعاة اليهود في بث روح الثورة ، وانشاء الجمعيات السرية واثارة الحركات الهادمة عظيم جداً وان كان من الصعب أن نعينه بالتحقيق . فمنذ أقدم العصور نرى أثر التعاليم اليهودية الفلسفية السرية ظاهراً في معظم الحركات الثورية والسرية ، وقد أشرنا الى ذلك في فرص سابقة عدة ، وذكرنا أن المصدر الذي تجتمع فيه التقاليد اليهودية السرية انما هو فلسفة الكابالا وهي كلمة عبرية معناها ما يتلقى ، أعني التقاليد . والكابالا هي مزيج من الفلسفة ، والتعاليم الروحية ، والشعوذة ، والسحر ، متعارف عند اليهود منذ أقدم العصور . وقد ظهر أثر تعاليمها واضحاً في المجتمعات الاوربية . وبالاخص منذ القرن الثاني عشر . وخلاصة هذه التعاليم هي أن الله هو كائن مطلق ، ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث نفسه الى عالم الارواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، وان روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود في النهاية الى الله وتفنى فيه . وكان دعاة الكابالا يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة ، وأسرار الطلاسم والرموز والارقام . وقد أدمجت تعاليم الكابالا وأسرارها ورموزها في وثيقتين عبريتين هما « السفرجزيرا » أو كتاب الخلق ، وهو مجموعة من الاحاديث والخطب رويت على لسان ابراهيم ، و« السفر هازوهار » أو كتاب الضوء المعروف عادة « بزوهار » وقد كتب بأسلوب ارامي يحمل على الاعتقاد بأنه قد وضع في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين المحدثين أنه من تصنيف موسى الليوني الاسباني

وقد رأيت أن أساطير الكابالا ، وتعاليمها ورموزها ، كانت مستقى لمعظم الجمعيات السرية الغربية من فرسان المعبد الى البناء الحر (الماسونية) في وضع نظمها ورموزها ، وانها كانت في الغالب مبعث الوحي لكثير من الطوائف الخارجة والهادمة كاخوة الشيطان ، وأصحاب القداس الاسود ، وطوائف السحرة على اختلاف طوائفهم

وغاياتهم ، وجمعية المسممين ، وغيرها من جمعيات الخفاء التي أتينا على سيرتها

وكون اليهودية مبعث الروح الثورية على كر العصور ، وكون اليهود دعاة الثورة وقادة التقويض والهدم - ذلك مما يقره البحث التاريخي السليم ، واليك ما يقوله كاتب من أعظم كتاب اليهودية هو برنار لازار في كتابه عن «خصومة السامية»[1] : «ان لشكوى دعاة الخصومة السامية أساساً على ما يظهر ، فاليهودي يضطرم بروح ثوري ، وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أو لم يشعر» ، والواقع ان الدور الذي لعبه اليهود في الثورات الحديثة ظاهر لا سبيل الى انكاره ، وبالبحث والاستعراض نرى أنه دور مزدوج فهو يستند الى المالية والخفاء معاً . ذلك ان اليهود منذ العصور الوسطى امتلكوا ناصية الشؤون المالية في معظم المجتمعات الاوربية ، وجردوا عليها في نفس الوقت سيلاً من ضروب السحر والخفاء ، وأمدوها بأقطاب المشعوذين والسحرة . وكانوا حيثما هبت ريح الثورة الاجتماعية أو السياسية يجثمون من وراء ستار ، ويميلون الى الجانب الظافر ليأخذوا نصيبهم من الاسلاب والغنيمة ، وحيثما كانت الشعوب النصرانية تنهض للخروج على نظمها كان الاحبار والفلاسفة والاساتذة والمشعوذون اليهود يأخذون بناصر الثوار ويؤيدونهم في وثباتهم الهادمة . واذا كان اليهود في معظم هذه الثورات لا يضرمون النار ، ولا يثيرون العاصفة ، فقد عرفوا دائماً كيف يسيرونها لفائدتهم وتحقيق غاياتهم

٢ - في منتصف القرن السابع عشر كانت التعاليم الروحية اليهودية قد نفذت الى جميع أنحاء أوربا . والظاهر أن تيار هذه التعاليم قد تسرب الى أمم الغرب من شرق أوربا ، فمنذ القرن السادس عشر اجتمع اليهود واستقروا في بولونيا ، وظهر هنالك جماعة من السحرة والمشعوذين اليهود تعرف «بالزاركيم» او جماعة «بعل شم» ، والكلمة الاخيرة معناها «سيد الاسم» ومصدرها نظرية كابالية تزعم أن بعض اليهود الذين تتوفر فيهم شروط معينة من القدسية يستطيعون أن يستخدموا الاسم الاعظم دون وازع . «والبعل شم» هو شخص يملك هذه القوة ويستخدمها في كتابة الطلاسم ، ومخاطبة الارواح ، ومعالجة الامراض وغير ذلك . ثم غدت

(١) خصومة السامية L'Antisémitisme ، تعبير يقصد به عداء الشعوب الارية لليهود ومقاومتها لهم ، وهو تعبير خاطىء في الواقع لان اليهود ليسوا وحدهم بالساميين ، بل يدخل معهم العرب وغيرهم من قبائل سام الاثني عشرة بيد أنه يستعمل اليوم للدلالة على مخاصمة الشعوب الغربية لليهود

بولونيا ، وبالاخص مقاطعة بودوليا مركزاً للحركة الكابالية التي تمخضت هنالك عن سلسلة من فورات الخفاء والشعوذة المدهشة . وفي سنة ١٦٦٦ اضطرب العالم اليهودي من أقصاه الى أقصاه لظهور داعية يسمى شابيتاي تسبي وهو ابن تاجر أزميري يدعى مردكاي ، زعم أنه هو المسيح المنتظر ، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة



شابيتاي تسبي

عندئذ في المجتمع اليهودي ، وكانت الاوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح ، ولذلك صادفت دعوة شابيتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوربا ، بل أيدها كثير من اليهود المتنورين وأصحاب الاموال لاغراض سياسية ومالية ، وكان شابيتاي متمكناً من تعاليم الكابالا ، عليما بأسرارها ونظرياتها الروحية ،

بارعاً في ضروب الشعوذة ، وقيل انه كان يأتي الخوارق ، وان جلده كان ينضح المسك ، وكان ينهمك في الاستحمام في البحر ويعيش في حالة ذهول مستمر . وقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شابيتاي الذي انتحل لنفسه لقب « ملك ملوك الارض » الى قسمين : خصوم ، وأنصار . فأما الخصوم فهم الاحبار والدعاة وكان هؤلاء يناصبونه العداء ويكثرون من لعنه والحملة عليه . أما أولئك الذين استهوتهم دعوته وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه فقد انقلبوا عليه حينما سخط منه السلطان وطلب اليه أن يثبت دعواه بأن يستقبل السهام المسمومة بصدره ، فارتد عن اليهودية فجأة وزعم أنه اعتنق الاسلام ، بيد أنه استمر يتقلب في مزاعمه وتعاليمه ازاء المسلمين واليهود طوراً بعد طور فيتظاهر أمام كل فريق بأنه من دينه وحزبه ، وبتلك الوسيلة استطاع أن يغنم مؤازرة نفر من اليهود والمسلمين معاً . غير أن الاحبار اليهود خشوا من دعوته على تعاليم اليهودية فسعوا به الى السلطان حتى أمر باعتقاله وسجنه في احدى قلاع بلغراد ، وهنالك توفي في سنة ١٦٧٦

على أن تحطيم المسيح المنتظر لم يخمد من حماسة أنصاره ، بل استمرت دعوة شابيتاي في القرن الثامن عشر ، وأسفر نشاط المدرسة الكابالية عن فورة جديدة في بولونيا ، فظهر كثير من دعاة الزاركيم وبعل شم ، وكان أشهر أولئك الدعاة اسرائيل البدولي الذي أسس طائفة « الحسديم » في سنة ١٧٤٠ . وكان اسرائيل يخاصم اليهودية الرجعية ، ويرجع تعاليمه الى « الزوهار » ، بيد أنه لم يسلم اطلاقاً بنظرية الكابالا في أن الكون هو صورة من صور الله ، بل زعم أن الكون كله هو الله ، وأن الشر عنصر من عناصر الله اذ ليس الشر خبيثاً في ذاته ولكن في علاقته بالانسان وعلى ذلك فليس للخطيئة وجود مادي . وكان اسرائيل بارعاً في ضروب السحر والشعوذة ، فالتف حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود وتقاليده الاخلاقيــة . ثم ظهر في أثره داعية آخر هو هايلبرن المسمى بجويل بن أوري في ساتانوف وعكف على مزاولة الشعوذة والخوارق باسم الله وجمع حوله نفراً من الانصار ، استمروا بعد وفاته يستغلون سذاجة العامة حيناً

وقد كانت أشهر الجمعيات الكاباليــة طائفة الفرنكيين ، الذين عرفوا أيضاً « بالزوهاريين » ، او اخوان الشملة لانتمائهم الى الزوهار (كتاب الضوء) ، ومؤسسها هو يعقوب فرنك ، وهو داعية من أمهر دعاة الكابالا وأعلمهم بأسرارها وتعاليمها ، جمع حوله في منتصف القرن الثامن عشر في بودوليا جمهوراً كبيراً من الانصار

والدعاة ، وعاش في بذخ شرقي هائل لم يهتد أحد الى حقيقة مصدره ، وأسس طائفته التي لبثت حيناً « تبث نظريات الالحاد والهدم بواسطة جماعات سرية تماثل في نظامها محافل البناء». ونقم الاحبار اليهود من الزوهاريين نشاطهم في هدم اليهودية، واشتدت الخصومة بين الفريقين ، حتى أعلن الزوهاريون في النهاية خروجهم على اليهودية علناً واعتنقوا النصرانية ومنهم فرنك نفسه ، واتحدوا مع أسقف كامنيك على مقاومة الاحبار واليهودية . غير أن ارتدادهم لم يكن الا رياءً ، وسبيلاً من سبل الهدم خصوصاً وان فرنك كان يذيع بواسطة دعاته في تركيا انه اعتنق الاسلام ، وعلى ذلك قبض عليه في وارسو بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الالحاد والكفر ، وزج به الى السجن حيناً ، فلما اطلق سراحه استمر في دعوته وتجول في أواسط أوربا مع ابنته حوه التي استطاعت أن تؤثر في عقل الامبراطورة ماريا تريزا . غير أنه اتهم بالزندقة أيضاً وأخرج من النمسا ، فانتقل الى ألمانيا واستقر في أوفنباخ بالقرب من فرنكفورت وتسمى بالبارون فون اوفنباخ ، واستأنف بذخه الطائل مما كان يرد اليه من هبات انصاره والمعجبين به . وقد وصف ملمان في كتابه « تاريخ اليهود » بذخ فرنك فيما يلي :

« كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود ذوي الحسن الرائع ، وكان يذاع أن صناديق الاموال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيا من بولونيا ، وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء في عربة تجرها جياد مطهمة ، ويحرسه عشرة أو اثنا عشر فارساً يرتدون الثياب الموشاة بالذهب ، وقد رفعوا الرماح ، ووضعوا في قبعاتهم أهلة أو شموساً أو أقماراً . . . وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود . بيد أنه توفي في سنة ١٧٩١ ، ودفن في بذخ يعدل بذخ حياته »

٣ — ونحن نذكر مما تقدم لنا سرده من سير أقطاب السحرة في القرن الثامن عشر أن البارون فون أوفنباخ لم يكن مثلا وحيداً من نوعه ، فهناك شبه عجيب بينه وبين زميليه الشهيرين الكونت سان جرمان والكونت كاجليوسترو ، وقد كان كلٌ يدعي القدرة على الخوارق ويفتن في ضروب الشعوذة ، ويعيش في بذخ عظيم لا يعلم مصدره ، والاول يهودي بلا ريب ، أما زميلاه فقيل انهما يهوديان أيضاً ، وكلهم من دعاة المدرسة الكابالية ، ومن الراسخين في تعاليمها وأسرارها ، وكلهم أنفق أعواماً طويلة في المانيا . ثم ان كاجليوسترو انضم الى جمعية « الرقابة الصارمة » في كهف خفي يبعد قيد أميال يسيرة عن اوفنباخ حيث كان يقيم فرنك ، ويقال فوق ذلك انه

زار في شبابه بولونيا حيث ظهر فرنك . أفليس لنا بعد ذلك أن نستنتج أن أولئك الدعاة الذين عاشوا في عصر واحد وبأسلوب واحد كانت تربطهم رابطة خفية ؟ وأن ليس من ضروب المصادفة المحضة أن يظهر السحرة الكاباليون في بولونيا والمانيا في نفس الوقت الذي يظهر فيه السحرة في فرنسا ؟ وأن ليس من المصادفة أيضاً أن يؤسس فرنك طائفة الزوهاريين « اخوان الشعلة » في سنة ١٧٥٥ أي لعام واحد من تأسيس مارتين باسكوالي لطائفة « الشعلة » الفرنسية في سنة ١٧٥٤ ؟ أليس من المستطاع أن نتعرّف المصدر الذي قذف بسيل السحرة هذا الى غرب أوربا في طوائف المشعوذين التي أسسها هايلبرن واسرائيل البدولي وفرنك،أو بعبارة أخرى في مهاد الكابالا اليهودية ؟ أضف الى ذلك ان أكبر داعية من دعاة الكابالا واخوة بعل شم وهو المعروف « بزعيم الشعب اليهودي بأسره » كان طبقاً للادلة والوثائق التاريخية عضواً في جمعية البناء الحر ، ومتصلا بزعماء الجمعيات السرية ، وانه يهودي لا سبيل الى الريب في يهوديته

هذا الداعية الغريب هو حايم صمويل يعقوب فوك المعروف بالدكتور فوك ، أو دي فوك ، أو فوكون . وقد وُلد في بودوليا في بدء القرن الثامن عشر ، واتصل بالزوهاريين ، ولبث حيناً يزاول ضروب السحر والشعوذة في بودوليا والمانيا .وكان يزعم أنه ذو قدرة خفية ، وانه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة . ويروي المؤرخ ارشنهولتس أنه شهد فوك يأتي أعمالا خارقة في برنزفيك ينسبها الى تبحره في الكيمياء . ثم اضطهد فوك وطورد في فستفاليا وحكم عليه بالحرق لاتهامه بالسحر ففر الى انجلترا ، وهنالك استقبل بالترحاب وطار صيته ، وأذيعت عن قدرته أغرب الروايات ، من ذلك ما قيل من أنه يستطيع أن يبقي شمعة صغيرة تضيء مدى أسابيع ، وانه يستطيع بتلاوة عزيمة أن يملأ قبواً من الفحم ، وان أية حلية يرهنها لدى المقرض تنسل ثانية الى منزله ، وانه أنقذ البيعة اليهودية الكبرى من فتك النار حينما شبت فيها بأن كتب أربعة أحرف عبرية على أعمدة بابها

ظهر فوك في لوندره في سنة ١٧٤٢ معدماً لا مورد له ، بيد انه ما لبث ان أثرى فجأة وبدت عليه امارات البذخ الطائل فاتخذ له قصراً فخماً أقام فيه بيعة خاصة وازدانت موائده بآنية الذهب والفضة ، وفي مذكراته التي ما زالت باقية ما يفيد انه كان يخرج من قصره الى غابة ابنج وهنالك تعقد اجتماعات خفية في قاعة أعدت لذلك وتدفن صناديق من الذهب ، وقيل أيضاً انه كان يركب عربته ذات مرة فانفصلت

(١٦)

احدى عجلاتها فارتاع السائق ولكن فوك أمره أن يسوق مطمئناً واستمرت العربة في سيرها ، والعجلة المنفصلة تتبعها حتى الغابة



يعقوب فرنك

والروايات عن خوارق فوك وقدرته العجيبة كثيرة لا نهاية لها ، وكان مهيباً مبجلاً من المجتمع اليهودي واحباره. ولكن شهرته اثارت نقمة يهودي يدعى امدن هجاه واتهمه بانه من أنصار المسيح الكاذب وانه يستغل سذاجة المؤمنين وكتب عنه الى يهود بولونيا ما يأتي: « لقد نال فوك مركزه بادعائه الوقوف على أسرار الكابالا،

وزعمه القدرة على اكتشاف الكنوز ، وقد خدع باكاذيبه ضابطاً غنياً جرده من ثروته . ويهرع اليه النصارى الاغنياء ويغدقون أموالهم عليه ، ويغدق هو المال من جهته على دعاة طائفته لكي يذيعوا ذكره وشهرته » . ولكن الظاهر ان فوك كان حذراً في علائقه مع النصارى الباحثين وراء الاسرار الخفية اذ يقال انه انكر معرفته لتركيب الاكسير الذهبي من أمير ملكي سأله الارشاد عن تركيبه . وقد اشير في احدى صحف هذا العصر عام سنة ١٧٦٢ الى يهودي متنصر هو أعظم وأخبث محتال في العالم ، قد سجن ونفي من جميع الولايات الالمانية » ويقول الدكتور ادلر ان هذا اليهودي هو فوك بعينه ، بيد انه ليس ثمة ما يؤيد ان فوك كان من دعاة السحر الاسود

وتوفي فوك في ابريل سنة ١٧٨٢ واحتفل بدفنه احتفالا فخماً في احدى مقابر لوندره ومما نقش على قبره : « هنا يثوي الشيخ الشريف، وهو رجل عظيم قدم من المشرق ، وهو حكيم متبحر ، وداعية كابالي . . . وقد طار صيته الى أقاصي الانحاء والجزر النائية . . . »

٤ ـ ومن ثم نرى الفرق واضحاً بين أساليب فوك . وأساليب سان جرمان وكاجليوسترو وفون اوفنباخ ، فبينما يخوض هؤلاء غمار مخاطرات عدة ، ويزاولون الشعوذة والكيمياء أينما حلوا ، ويزعمون انهم وقفوا على سر الاكسير الذهبي ، اذا بفوك يعمل في هدوء ، وينقطع لمزاولة الاسرار الخفية الهادئة ، ولا يحتك بالدهماء وعامة المغامرين ، أفليس لنا أن نستنتج من ذلك ان فوك كان يشغل منصباً اسمى وارفع أعني منصب القيادة والارشاد ؟ كان فوك بلا ريب احد هذه الرءوس الخفية التي تدبر في الخفاء شؤون الجمعيات السرية ، وتلجأ اليها الجمعيات السرية في استقاء النصح والتعاليم . وقد ظهر ذلك مؤخراً في رسائل نشرت تبادلها سافالايت دي لانج والمركيز دي شيديان ، وورد فيها النسبة لفوك ما يأتي :

« ان الدكتور فوك هذا معروف لكثير من الالمان . وهو رجل خارق جداً من كل وجه ، ويعتقد البعض انه زعيم كل اليهود ، ويرجعون كل ما هو غريب ومدهش في حياته وتصرفاته الى غايات سياسية محضة ، وقد أشير اليه في مذكرات الشفاليه راتسوف باشارات غريبة فذكر انه من اخوة الصليب الوردي ، وقد كانت له وقائع مع الماريشال دي ريشيليو وهو بحاثة كبير وراء حجر الفلاسفة ، وكذلك كانت له سير عجيبة مع البرنس دي روهان جنيه والشفاليه دي لوكسيبورج فيما يختص بلويس

الخامس عشر الذي تنبأ بموته . وهو قطب بين جميع الطوائف المتبحرة في العلوم الخفية . وفي وسع البارون دي جليخن أن يفيدك عنه بمعلومات نفيسة ، فحاول أن تقف على اكثر من هذا في فرنكفورت »

واذاً فهنا نستطيع أن نظفر بلمحة عن واحد من أولئك الدعاة الحقيقيين الذين كانوا يعملون من وراء الجمعيات السرية والذين اخفوا شخصياتهم في غمار من الظلمات والغموض ، ذلك ان فوك لم يكن حكيماً منفرداً بل كان له تلاميذ ينفذون الى الحظيرة ، العليا من الاسرار . والظاهر أن كاجليوسترو وسان جرمان واضرابهما لم يكونوا الا بعض هؤلاء التلاميذ

ثم ان هنالك ما يلقي شيئاً من الضياء على ذلك في حياة الشاعر الالماني جوتهولد ليسنج . قدمنا أن المؤرخ ارشنهولتس تكلم عن بعض خوارق شاهدها من فوك في برنزفيك ، وفي سنة ١٧٧٠ عين الشاعر ليسنج أميناً لمكتبة دوق برنزفيك . وكان يسخر من البناء الحر وتعاليمه بادىء بدء ، غير أنه تحول عن رأيه فجأة والتحق بأحد محافل همبورج في سنة ١٧٧١ ، وفي سنة ١٧٧٨ نشر قصته الشهيرة ناتان الحكيم Nathan der Weise عن مثل البناء الحر . ونظم خمس محادثات عن البناء الحر أهداها الى دوق برنزفيك كبير المحافل الالمانية عنوانها « ارنست وفوك ، محادثات للبنائين الاحرار » Ernest und Falk : Gespräche für Freimauer ورد الحوار فيها على لسان فوك صراحة ووصف بأنه يشغل أسمى مراتب البناء الحر . هذا الى أن صداقة ليسنج مع موسى مندلسون الفيلسوف اليهودي البرليني قد حملت بعض الباحثين على القول بأن مندلسون هو الذي أوحى الى ليسنج بموضوع القصة وصفات أبطالها ، ولكن لمَ لا يكون الموحي بذلك هو فوك نفسه وقد مرّ في برنزفيك وعرض فيها خوارقه ؟

هذه المحادثات تلقي ضياءً واضحاً على المؤثرات الخفية التي كانت تعمل من وراء البناء الحر ، ويوصف فيها غرض البناء الحر بأنه العمل على احداث نظام لا تكون الانسانية فيه ضرورية ، ويرمز فيها ليسنج لنفسه باسم ارنست ، ويشرح فوك فكرته في انشاء دولة عامة أو بالحري دول متحدة لا تفرق فيها بين الناس فوارق قومية أو اجتماعية أو دينية ، وفيها ينعم الانسان بأوفر قسط من المساواة . بيد أن أهم ما يلفت النظر فيها هو تكرار اشارة فوك الى أنه يوجد ثمة وراء البناء الحر شيء أعرق وأعظم في غاياته من جمعية البناء الحر ، وان البنائين الاحرار المحدثين

لا يعنون به في الغالب . ثم يجيب أرنست حينما يشكو من عدم وجود المساواة الحقة في المحافل بالنظر لاقصاء اليهود عنها ، انه أي فوك لا يشهدها ، وان البناء الحر الحقيقي لا يبدو في أشكال ظاهرة،وان المحفل في علاقته بالنسبة للبناء الحر كالكنيسة في علاقتها مع الايمان أو بعبارة أخرى ان الدعاة الحقيقيين لا يظهرون في الميدان .

وظاهر من تأمل هذه الشروح أن فكرة الدولة العامة هي المثل الذي اتخذه اللاحكوميون المحدثون قاعدة لنظمهم في تغيير الحياة البشرية ، وأنها هي الجمهورية العامة التي غدت شعار الاشتراكية الدولية ، والشيوعية ، ودعاة الثورة العالمية

الفصل الرابع

جمعية الشعلة البافارية

Der Illuminatenorden

(١) طريقة ابن ميمون قدوة الشعلة البافارية . كيف اهتدى اليها فيسهاوبت . قصة كيلمر (٢) من هو كيلمر . الشبه بين أساليب الشعلة وأساليب الاسماعيلية . الشعلة والاساطير القديمة. نصيب فيسهاوبت في ابتكار نظم الشعلة وتعاليمها . رواية ميرابو عن قيامها (٣) غايات الشعلة طبقاً لرواية ميرابو . قول المسيو بارتو . غاياتها طبقاً لوصف فيسهاوبت . أقوال هنري مارتان ولوي بلان . وثائق الشعلة (٤) مثل الشعلة الجديدة . فلسفة فيسهاوبت . تحليله للمجتمع والقومية والوطنية. وسيلته الى تحقيق مثله (٥) فيسهاوبت والنصرانية . طرق الشعلة الدينية (٦) طريقتها في حشد الانصار واذاعة الدعوة . استتار زعماء الشعلة . اقتفاء فيسهاوبت لطريقة ابن ميمون في قيادة الدعاة (٧) استتار الشعلة بالبناء الحر . التحاق فيسهاوبت به وسعيه الى كشف أسراره . روح الشعلة الثوري . فيسهاوبت من أقطاب الهدم (٨) اشتداد بأس الشعلة وانتشار دعوتها . مراتبها ورسومها . افتضاح أمرها وحلها

١ ـ أشرنا فيما تقدم الى أن طريقة ابن ميمون ونظمه كانت مستقى لكثير من الجمعيات السرية الغربية في صوغ نظمها وحشد انصارها وبث مبادئها ، ورأينا كيف كانت هذه الطريقة ترمي الى هدم النظام الاجتماعي وكل المبادىء الدينية والاخلاقية، وكيف نفذت على يد القرامطة والاسماعيلية وتلاميذ دار الحكمة . ونذكر أن العناصر الجوهرية لهذه الطريقة شدة الحرص في قبول الانصار وحشدهم في درجات متعاقبة متدرجة في الثقة والرفعة ، ثم العمل في نفس الوقت لحشد أكبر عدد ممكن من الانصار في كل الامكنة وكل البيئات للاستعانة بهم في تحقيق الاغراض السياسية ، وتلون الدعاة من أجل ذلك في عقائدهم وعواطفهم ليوافقوا بذلك ميول السواد الاعظم ومشاربه ونزعاته لان ما يصلح الافضاء به للبعض قد يثير آخرين ، ويروع نفوساً أقل جرأة وضمائر أشد تأثراً ، وبعبارة أخرى هي حشد جمهور عظيم من الدعاة والانصار من جميع الطوائف والمعتقدات والميول والاخلاق ليعملوا جميعاً لغاية واحدة لا يعرفها سوى الزعماء والقادة

هذه الطريقة الفذة التي ابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي هي التي اختارها آدم فيسهاوبت لتأسيس جمعية من أعظم الجمعيات السرية الحديثة هي جمعية « الشعلة »

Der Illuminatenorden أوالشعلة الباقارية نسبة الى مكان ظهورها . بيد أنه يوجد ثمة خلاف على الطريق الذي وصل منه الاستاذ الباقاري الى الوقوف على هذه الاساليب الشرقية ، فيقول بعض الباحثين انه تلقاها عن اليسوعيين حيث تربى في معاهدهم ، ودرس على مناهجهم ، وانهم هم الذين بثوا اليه فكرة الشعلة سراً . ويذكر ميرابو في مذكراته عن تاريخ بروسيا أن فيسهاوبت «كان يعجب قبل كل شيء بنظام اليسوعيين الذي يحمل رجالا متفرقين في جميع أنحاء العالم تحت رياسة شخص واحد على العمل جميعاً لغاية واحدة ، وشعر بامكان اتباع نفس هذا النظام في بث آراء وتحقيق غايات تناقض آراء اليسوعيين وغاياتهم تمام التناقض» والواقع أن فيسهاوبت نقل في تأسيس جمعيته شيئاً من نظم اليسوعيين تحقيقاً لخضوع تلاميذه ، وادعاماً لنفوذه ، وان عمل لغايات تخالف غايات اليسوعيين مخالفة تامة وهي غايات كان يجهلها أنصاره ويعملون لها في نفس الوقت دون أن يشعروا بذلك

وهناك رواية أخرى هي أن فيسهاوبت تلقى وحيه من تاجر يوتلندي يدعى كيلمر وان كيلمر هذا قد تجول في المشرق حيناً وأنفق في مصر عدة أعوام ثم عاد الى أوربا ليحشد الانصار لتعاليم سرية مانوية وقف عليها في المشرق ، فعرج أثناء عوده على مالطة وهنالك التقى بكاجليوسترو (يوسف بلسامو) ، وأثار بدعوته اضطراباً في الجزيرة اضطر فرسانها الى ابعاده عنها فسافر الى افنيون وليون حيث استمال بعض التلاميذ من طائفة «الشعلة» الفرنسية . ثم سافر بعد ذلك الى المانيا فالتقى بفيسهاوبت ولقنه تعاليمه السرية فانقطع فيسهاوبت أعواماً لدرسها ، وتنظيم مذهبه . وفي أول مايو سنة ١٧٧٦ أسس طائفته باسم « الشعلة » ، واتخذ اسم « سبارتاكوس »

٢ — فمن كيلمر هـذا ؟ ان أشد ضروب الغموض تحيط حقيقته ، بيد أنه يوجد ثمة ما يدل على أنه يهودي من دعاة الكابالا الذين كانوا يحركون السحرة والمتآمرين في الخفاء من وراء الجمعيات السرية التي ينتمون اليها ، ويرى دي كانتليه مؤرخ الجمعيات السرية أن كيلمر هو نفس التوتاس الذي يصفه فجييه في كتابه « تاريخ الخوارق » « بأنه تلك العبقرية الشاسعة التي تكاد تكون سماوية ، والتي حدثنا عنها كاجليوسترو في منتهى الخشوع والاعجاب . ولم يكن التوتاس هذا شخصاً خيالياً ، فقد جمع مجلس التحقيق في رومة كثيراً من الادلة على وجوده دون ان يعرف متى وجد وأنى ذهب لانه كان يختفي اختفاء الطيف ويتبدد كالسحاب » ويضيف دي كانتليه الى ذلك أن التوتاس كان ارمينياً وانه استخرج مذهبه المشتق من تعاليم المانوية من مصر والشام

وفارس ، فاذا صحت هذه الرواية فقد يكون كيلر أو التوتاس هذا داعية من دعاة احدى الجمعيات السرية الشرقية التي قامت على أنقاض الاسماعيلية واعتنقت تعاليمهم . بل ان في مذكرات « الشعلة » ذاتها ما يشير الى بعض التعاليم المانوية ، أضف الى ذلك ان مراتب « الشعلة » وأساليب فيسهاوبت تشبه مراتب ابن ميمون وأساليبه شبهاً عجيباً ، فكلاهما يعني بالهدم والدس السياسي أكثر مما يعني بالخفاء والشؤون الروحية ، ولذلك لا نجد في نظم فيسهاوبت ما نجد في البناء الحر من الخرافات والتعبيرات اليهودية ، بل ان فيسهاوبت لا يشير الى كل ضروب الشعوذة والخفاء والسحر وما اليها الا بالسخرية والاحتقار ، ولا يعتبر البنائين الصليبيين واليسوعيين سوى أعداء يجب القضاء عليهم . واذا كانت التعبيرات المشتقة من مصر القديمة تبدو في نظم الشعلة وتطلق الالقاب القديمة على بعض المراتب مثل « ابوبت » « وهيروفانت » فان ذلك لا علاقة له بنظريات فيسهاوبت أو تعاليمه فلم تكن الصيغ العتيقة سواء كانت مصرية أو فارسية او نصرانية الا حجاباً تتقنع به الشعلة لتخفي به غاياتها الحقيقية وهي غاية مادية ترمي الى هدم نظام المجتمع بأسره ، وعلى ذلك فما اشتقت الشعلة من القديم سوى روح الهدم الذي هو ظاهرة وخاصة للنظم الشرقية التي نقلت عنها وهو طور جديد للجمعيات السرية الاوربية بل هو في الواقع فاتحة عهد جديد في ميولها واتجاهاتها . ويشير فيسهاوبت نفسه الى ذلك في مذكراته حيث يكتب الى زميل يرمز اليه بكاتو ما يأتي :«احرص قبل كل شيء على الاصل وعلى العلامة المبتكرة O . ما استطعت » ثم يقول في موضع آخر « ان ذروة الغموض والخفاء يجب أن تكون في جدة الشيء ، وكلما كان العالمون به قليلين كلما كان خيراً وأفضل »

هذا الزعم باكتشاف ضرب جديد من ضروب الحكمة والاسرار القديمة هو الحجة الخالدة التي يستتر وراءها أعضاء الجمعيات السرية والامر الوحيد الذي لا يذكر قط هو حقيقة الافراد الذين يتلقون منهم الوحي والاوامر : ويزعم فيسهاوبت أنه . استقى كل شيء بالدرس المستفيض والبحث العميق في الكتب القديمة وان نظم الشعلة كلها وأساليبها وتعاليمها انما هي من ابتكاره ، وانه هو المستأثر بادارتها وتوجيهها ، ويؤكد ذلك في مذكراته في فرص عدة . ولو ان الامر كذلك لكان فيسهاوبت عبقرية عظمى وعلماً طائر الصيت لان الشعلة في الواقع من أعظم الجمعيات السرية وأوفرها دهاء وكفاية ، ولكان اسمه ذائعاً بين الخلف بدلا من كونه غامضاً مجهولا الا من الخاصة . والحقيقة أن فيسهاوبت كان داهية وكان عبقرية غير أنه

اختص بدهائه وعبقريته ما خفي وغمض من التعاليم والغايات . ولم تكن « الشعلة » ونظمها العجيبة مع ذلك من خالص ابتكاره ، ولم يكن سوى واحد من جماعة اختصته بالثقة والنفوذ اعتماداً على ذكائه ودهائه

وفي كتاب ميرابو عن المملكة البروسية ما يلقي بعض الضياء على ذلك . فميرابو يمتدح « الشعلة البافارية » ويذكر فيسهاوبت بالاسم ويوضح كيف أن الجمعية نشأت في مهد البناء الحر على النحو الآتي :

« انتهى محفل تيودور في ميونيخ حيث كان يوجد قليل من الرجال ذوي الرءوس والالباب بأن سئم وعود البناء الحر الخلابة ، وعراكه المستمر ، ولذلك قرر الزعماء أن يؤسسوا على أنقاض محفلهم جمعية سرية أخرى أسموها جمعية الشعلة ، واشتقوا نظمها من نظم جمعية يسوع في حين أنهم يقصدون بتطبيقها الى غايات مناقضة »

وينسب ميرابو هذه الواقعة الى سنة ١٧٧٦ وهو نفس العام الذي أسس فيه فيسهاوبت جمعيته الجديدة . والواقع ان فيسهاوبت لم يلتحق بالبناء الحر بصفة رسمية الا في سنة ١٧٧٧ ، وقد التحق به ليكشف ما استطاع من أسراره ، وهذا مما يدل على أنه وان لم يكن عضواً في محفل تيودور قبل ذلك فقد تلقى الوحي بتأسيس « الشعلة » من ناحية أخرى

٣ ــ ماذا كانت أغراض الشعلة ؟

يقول ميرابو ان الجمعية الجديدة أنشئت للسعي الى تحسين نظم الحكومة والتشريع وان من قوانينها ألا تضم اليها أحداً من الامراء قط مهما كانت فضائله وخلاله وانها كانت ترمي الى ما يأتي :

« الغاء رق الفلاحين ، وكل العادات والامتيازات التي ترهق الانسانية . . . ، وتحقيق التسامح العام لكل الافكار الدينية . . . ، وسحق كل الاساطير والخرافات الروحية ، وتعضيد كل ضروب الحرية . . . »

ويشير المسيو بارتو في كتابه عن ميرابو الى ان غاية الشعلة البافارية كانت هي « الاصلاح الاجتماعي والسياسي » ، على مثل يشبه العمل الذي قامت به الجمعية الدستورية الفرنسية أثناء الثورة ، وهو تصريح اذا صح كان غاية في الاهمية اذ معناه ان البرنامج الذي نفذته الجمعية الدستورية في سنة ١٧٨٩ قد وضع معظمه في محفل من

محافل البناء الحر الالماني وكان نواة لقيام الشعلة في سنة ١٧٧٦، وان أثر الشعلة في الثورة الفرنسية كان عظيماً

ثم ان فيسهاوبت يشرح غاية الشعلة بنفسه في العبارة الآتية : « الجمع بين جميع البشر من جميع الانحاء برابطة خالدة لتحقيق مثل أعلى لجميع البشر من جميع الطوائف وجميع الاديان رغم تباين آرائهم وأهوائهم ، وحملهم جميعاً على تقديس هذه الرابطة ، وحب هذا المثل الى حد أنهم يعملون جميعاً كرجل واحد »

فما هو هذا المثل الاعلى الذي يشير اليه زعيم الشعلة ؟ ان فكرة الاصلاح الاجتماعي التي يشير اليها ميرابو تفيض من بيانات الشعلة وكتاباتها منذ أن تولى فيسهاوبت زعامتها وادارتها ، وتتحول مبادىء الشعلة الى مذهب من الفلسفة الاباحية يلخصه المؤرخ الفرنسي هنري مارتن فيما يلي :

«ان فيسهاوبت قد صاغ من سخريات روسو الانسانية من بدعة الملكية والمجتمع نظرية عامة ، ولم يحسب حساباً لقول روسو باستحالة سحق الملكية والمجتمع متى أنشئا ، بل اختار أن تكون غاية الشعلة الغاء الملكية ، والسلطة الاجتماعية ، والقومية ، والرجوع بالجنس الانساني الى الحالة السعيدة التي كان فيها أسرة واحدة لم تكن ذات حاجات خصوصية وعلوم عقيمة ، وحيثما كان كل أب كاهناً وقاضياً . ولسنا ندري كاهن أي دين اذ نجد بالرغم من اشاراتهم الكثيرة الى آله الطبيعة ما يدل على أن فيسهاوبت مثل ديدرو وهولباخ لم يكن له آله سوى الطبيعة ذاتها . وقد كان طبيعياً أن تنب من تعاليمه فلسفة ما فوق الهجيلية ، ونظم الفوضى التي عصفت حديثاً بفرنسا والتي تبدو عليها مسحة أصلها الاجنبي »

وقد أيد هذه الخلاصة عن أغراض الشعلة الكاتب الاشتراكي الكبير لوي بلان الذي يصف فيسهاوبت « بأنه من أعمق المتآمرين الذين عرفهم التاريخ » . وأشارت القصصية الكبيرة جورج ساند وهي اشتراكية من أصدقاء البناء الحر الى « مؤامرة الشعلة الاوربية » ، والى النفوذ الهائل الذي تملكه الجمعيات السرية الالمانية

وهنالك من ينفي عن الشعلة وعن فيسهاوبت تلك الغايات الهادمة ، ويقرر ان رجال الشعلة كانوا من ذوي الخلال الرفيعة والانسانية الخالصة ، وكانت آراؤهم التي عملوا لغرسها هي التي كان يرحب بها مجتمع عصرهم . على ان هذا الرأي يناقض ما ورد في وثائق الشعلة الرسمية التي نشرت في ثلاثة أسفار هي :

(١) Einige Originalschriften des Illuminatenordens ـ بعض الوثائق الاصلية لجمعية الشعلة

(٢) Nachtrag von weiteren Originalschriften ـ تكملة من وثائق أخرى

(٣) Die neuesten Arbeiten des Spartacus und Philo in dem Illuminatenordens ـ أحدث أعمال سبارتاكوس (فيسهاوبت) وفيلو في جمعية الشعلة



آدم فيسهاوبت

وقد نشرت هذه الاسفار الثلاثة في ميونيخ بأمر مختار بافاريا بين سنتي ١٧٨٧ ، ١٧٩٤ وتحتوي على صور الاوراق والمراسلات التي ضبطتها الحكومة البافارية في منزل عضوين من أعضاء الشعلة هما سفاك وباسوس على أثر مطاردتها وحلها تنفيذاً لقانون الحكومة البافارية الذي قضى بحل جميع الجمعيات السرية . ففي هذه الوثائق التي لم ينازع في صحتها أحد يشير فيسهاوبت مراراً وتكراراً الى غايات التقويض والهدم التي ذكرناها في عبارات شاملة غامضة

٤ ـ هذه الغايات هي المثل العليا للشعلة . وطبيعي أن يكون كتمان هـذه المثل والتظاهر بعكسها من أساليب الجمعية السرية التي اشتقت من نظم ابن ميمون . ففي

بيانات الشعلة وكتاباتها نقرأ عن الاخاء العالمي ، والكمال البشري ، وغيرهما من المثل الشعرية الجميلة ، ثم نرى في ثبت أعضائها نفراً من أعلام الرجال استهوتهم هذه المبادىء السامية ، ونرى فيسهاوبت يبدو في رسائله نصرانياً مخلصاً بينما يعمل في الخفاء لهدم النصرانية ، ولا يكشف عن نياته الا نادراً ، وفي غموض وخفاء كذلك نرى برنامج الشعلة الرسمي خلواً من الاشارة الى أية فكرة هادمة ، ونراه بالعكس يحتم على الاعضاء التعهد بالامتناع عن مهاجمة الدولة أو الدين أو الاخلاق »

ومع ذلك فقد كان لفيسهاوبت مثل سياسية ودينية جديدة . أما المثل السياسية فلم تكن سوى فكرة « اللاحكومية » الحديثة القائلة بأن يحكم الانسان نفسه بنفسه وبأن تسحق كل حكومة وكل حاكم . بيد أن فيسهاوبت يجانب كل فكره في الثورة والعنف ولا يرى لتحقيق فكرته سوى الوسائل السلمية المحضة . واليك كيف يعرض فكرته في احدى رسائله :

« ان أول مرحلة في حياة الجنس البشري بأسره هي الوحشية ، هي الطبيعة الخشنة التي تكون الاسرة فيها المجتمع الوحيد ، وفيها يخمد الجوع والعطش بسهولة . . . فيها يتمتع الانسان بأبدع وأثمن النعم أعني المساواة والحرية بأوسع معاني التمتع . وفي هذه الحياة كانت الصحة حالته الطبيعية . . . وكان البشر سعداء لم يتنوروا بعد الى الحد الذي يفقدون فيه سلام العقل ، والى حيث يعانون من أسباب شقائنا النكدة أعني شهوة السلطان . . . والحسد . . . والمرض ، وكل نتائج الخيال »

ثم يقول فيسهاوبت ، لما ازدادت الاسر ، وأخذت أسباب العول في القلة ، غاضت الحياة البدوية ، وأنشئت الملكية ، واجتمعت الاسر بعضها الى بعض ، وأخذت تنافس بعضها البعض . وهنا كان مصرع الحرية ، ومصرع المساواة ، وهنا شعر الانسان بحاجات جديدة . ثم انضوى البشر تحت وصاية الملوك انضواء القصر ، ويجب أن يبلغ الانسان رشده ، وأن يتحرر من هذه الوصاية ليحكم نفسه بنفسه . ثم يتساءل : « ما هو وجه الاستحالة في أن يبلغ الجنس البشري غاية الاهلية لرعاية نفسه ؟ ولماذا يقاد الى الابد مخلوق يستطيع أن يسير من تلقاء نفسه ؟ »

يجب على الناس أيضاً أن يعرفوا الاستقلال لا عن الملوك فقط ، بل عن بعضهم البعض ، يقول فيسهاوبت « فمن يحتاج الى آخر فهو متوقف عليه ونازل عن حقوقه . وعلى ذلك فقلة الحاجة هي أول خطوة في سبيل الحرية ، ولعل المتوحشين وصفوة المتنورين هم بذلك الاحرار من البشر فقط . ان فن تحديد الحاجات البشرية

بالتدريج هو في نفس الوقت فن العمل على تحقيق الحرية »

ويصف فيسهاوبت شر القومية في قوله : « لما نشأت الشعوب والامم لم يبق العالم بعد أسرة كبيرة ، ومملكة واحدة بل مزقت علاقته الطبيعة الكبرى . . . وحلت القومية مكان الحب البشري . . . وغدت فضيلة أن يمجد الانسان وطنه دون اعتبار لاي كائن آخر لم يوجد في حظيرته . وتطبيقاً لهذا المبدأ السخيف يحتقر الاجانب ويحمل عليهم . وقد سميت هذه الفضيلة «بالوطنية» . . ثم وثب من الوطنية التمركز، وروح الاسرة ، والاثرة أخيراً . . . فاسحق الوطنية يعرف الناس بعضهم بعضاً بحيث يغيض توقف بعضهم على بعض وتعظم صلة الاتحاد . . . » ثم يشير الى الوسائل التي يمكن أن تحقق بها هذه المثل في قوله : « ان هذه الوسائل هي مدارس سرية للحكمة هي من أقدم العصور محفوظات الطبيعة والحقوق البشرية ، وعلى يدها سوف ينجو الانسان من عثرته ، وتختفي الملوك والامم من الارض بغير ما عنف ، ويصبح الجنس البشري أسرة واحدة ، والعالم مأوى العقلاء ، والاخلاق وحدها هي التي تحدث هذا التغيير بطريق غير محسوسة ، فيصبح كل أب هو المعلم والسيد الحر لاسرته ، ويصبح العقل وحده قانون الناس . وهذا هو سر من أعظم أسرارنا »

٥ ـ وترى مما تقدم أن فيسهاوبت لا يستند في طريقته الى أية فكرة روحية ، وانه يرجعها الى مبادىء سياسية واجتماعية محضة ، غير انه كان يحرص في نفس الوقت على ألا يتعرض لمعتقدات الناس وأوهامهم الدينية بالحملة الظاهرة على النصرانية ، وتعاليمها ، بل بالعكس نراه في كثير من أقواله يلتمس معونة المسيح بأساليب جميلة خلابة قد تحملنا على الاعتقاد في صدقه واخلاصه . بيد أن النصرانية لم تكن سوى قناع يستتر به وميداناً يبث فيه دعوته الهادمة ، لانه رأى بثاقب فكره أن روح الثورة أشد من غيرها في تعاليم النصرانية ، ولذلك نراه يحاول أن يصور المسيح شيوعياً وعضو جمعية سرية فيقول مثلا : « اذا كان يسوع يحث على احتقار الغنى فذلك لانه يريد أن يعلمنا كيف نحسن استخدامه، ويهيء السبيل لشيوع الارزاق الذي ابتدعه» ثم يقول : « ان أحداً لم يحسن اخفاء مغزى تعاليمه السامي ، ولم يظفر أحد بتوجيه الناس الى طريق الحرية مثل سيدنا العظيم يسوع النصراني . وقد كان يخفي هذا المغزى السري . لان يسوع كانت له تعاليم سرية »

وهكذا يشرح فيسهاوبت تعاليم النصرانية بشروح سياسية محضة ، ويرجع في النهاية كل أثر وكل قوة الى « العقل » ، فهو الدين الذي يجب أن يعتنقه كل البشر ،

وهو الوسيلة الوحيدة لانقاذ الانسانية وحسم المعضلة الاجتماعية

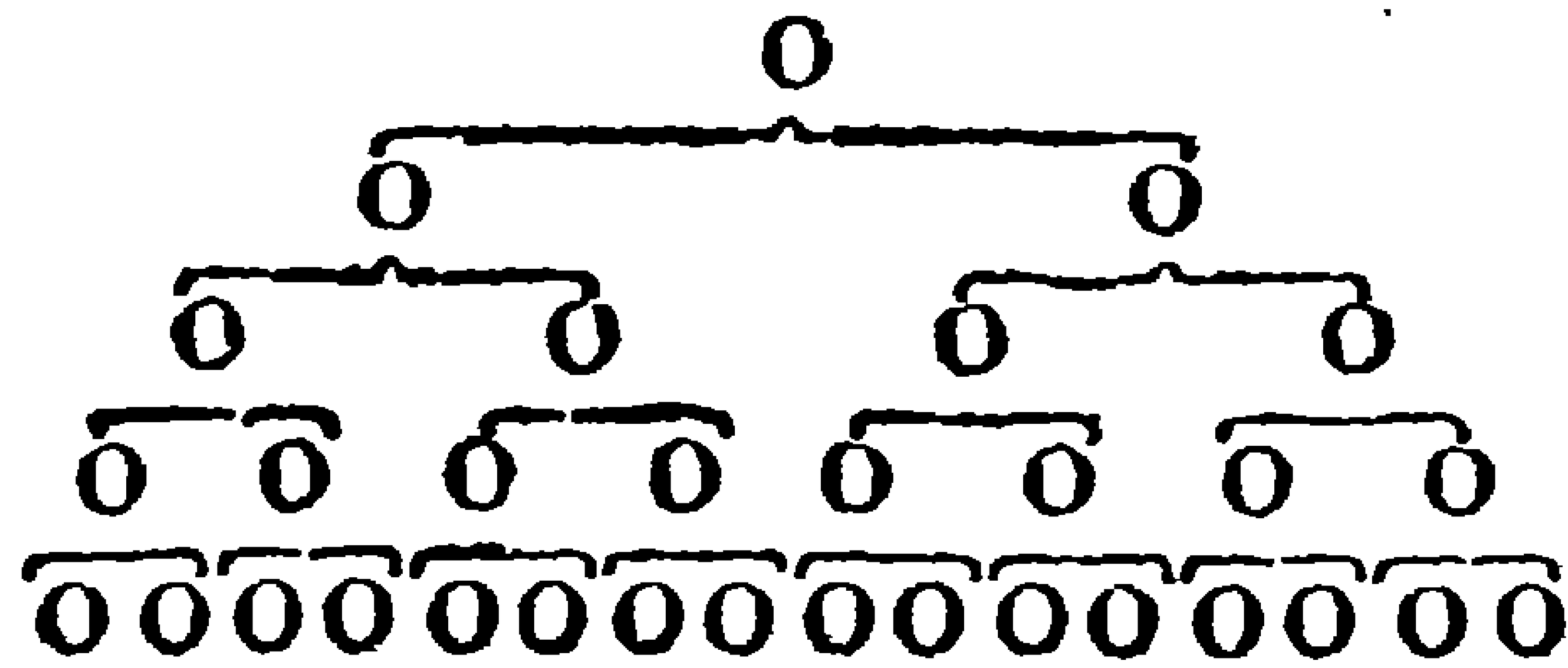
ثم ان فيلو (البارون فون كينجه أحد زعماء الشعلة) في بعض رسائله يلقي ضياء على طرق الشعلة الدينية فهو يشرح في احد رسائله لكاتو (سفاك) ضرورة ابتكار طريقة لارضاء المتعصبين وأحرار المفكرين معاً فيقول :

« يجب علينا اذا أردنا أن نعتمد على هذين الفريقين من البشر وان نؤلف بينهما أن نبتكر تفسيراً للنصرانية ، نجعله سراً للبناء الحر ثم نحوله الى وسيلة لتحقيق مقاصدنا »

ويشرح فيلو رأيه على النحو الآتي : « نقول اذاً : أراد يسوع أن يغرس ديناً جديداً ، ولكن ذلك لكي يعود الدين الطبيعي والعقل كل الى مكانته الاولى . وعلى ذلك فقد أراد أن يدمج كل البشر في جمعية عالمية كبرى وأن يجعلهم بنشر الخلق الحكيم ، والعرفان ، ومحاربة التحامل والبغض أقدر على حكم أنفسهم . وهكذا كانت تعاليمه السرية ترمي الى توجيه الناس الى الحرية العامة والمساواة بغير ما ثورة »

٦ ـ وقد نجحت فكرة فيلو هذه أيما نجاح حتى أن فيسهاوبت كان يعتمد في نشر طريقته بالاخص على رجال الدين والاساتذة . ويدس الاولين لمحاربة اليسوعيين ، والاخيرين لبث مبادىء الشعلة في نفوس الطلبة والشبيبة ، وقد كانت الشبيبة موضع عناية فيسهاوبت اذ كان يرى انها اكثر أهبة لتلقي مبادئه وأشد تأثراً بها ، وأوفر حرصاً على اذاعتها ونشرها. وكانت الشعلة تلجأ في حشد الاعضاء الى طرق الاسماعيلية من التأثير على عقل الطالب واستثارة فضوله ودهشته بالاشارات والتلميحات الخفية وذلك دون أن يكشف له شيئاً من حقيقة مبادىء الجمعية وغاياتها فهذه لا تكشف الا الى دعاة المراتب العليا . يقول فيسهاوبت « يجب أن نحتاط مع المبتدىء في مسألة كتب الدين والدولة . وقد رأيت ان اخص بها المراتب العليا » . كان الداعية يقول للمرشح مثلا : « لا ريب انك بعد عامين من التأمل ، والتجارب ، والاختلاط ، ومطالعة الكتب والاخبار ، قد اعتقدت ان غايات جمعيتنا الاخيرة ليست سوى اكتساب السلطان والثراء ، وهدم الحكومة الدنيوية او الدينية ، ونيل سيادة العالم وما اليها . فاذا كنت قد صورت جمعيتنا لنفسك من هذه الوجهة ، أو التحقت بها على هذا الامل فربما تكون قد خدعت نفسك . . . » ، ثم يقول له الداعية ، انك حر في الانسحاب اذا أردت ، وذلك دون أن يكشف له شيئاً من غايات الجمعية . وبهذه الوسيلة استطاع الزعماء أن يبعدوا عن الشعلة الطامعين الذين قد ينافسونهم في نيل النفوذ والقوة ،

وأن ينشئوا صفوفهم من رجال يسيرونهم كيفما أرادوا من وراء ستار . وكان التمسك بأذيال الخفاء والكتمان أقوى سلاح للشعلة ، وكان يسيرها ويوجه خطواتها بضعة رجال على رأسهم فيسهاوبت . وقد كتب سبارتاكوس (فيسهاوبت) الى كاتو : « تقضي الظروف أن أبقى مستتراً عن معظم الاعضاء ما دمت حياً ، وأراني مضطراً أن أنفذ كل شيء على يد خمسة أشخاص أو ستة » . وبلغ من تكتم الشعلة أن أحداً من الناس سوى نفر من دعاة المراتب العليا لم يعلم أن فيسهاوبت هو رئيس الجمعية قبل مصادرتها وضبط أوراقها في سنة ١٧٨٦



Ich habe zwey unmittelbar unter mir, welchen ich meinen ganzen Geist einhauche, und von diesen zweyen hat wieder jeder zwey andere, und so fort. Auf diese Art kann ich auf die einfachste Art tausend Menschen in Bewegung und Flammen setzen. Auf eben diese Art muß man die Ordres ertheilen, und im Politischen operieren.

صورة رمزية لبرنامج آدم فيسهاوبت

ويؤكد فيسهاوبت في كتاباته أنه كان السيد الاعلى للشعلة ، ويوجه في فرص عدة نظر المقربين من أعوانه الى ضرورة توحيد القيادة في الجمعية ، ويشرح الطريقة التي يستطيع بها رأس نابه ذكي أن يقود المئات والالوف بصورة رمزية نثبتها للقارئ وفي ذيلها فقرة من كلامه هذه ترجمتها :

« يليني اثنان مباشرة أنفث فيهما كل عقلي ، ويلي كلا منهما اثنان آخران ، وهلم جرا ، بهذه الوسيلة أستطيع أن أحرك وأثير الف رجل بأيسر أمر ، وبهذه الطريقة يجب أن يصدر الانسان أوامره وأن يعالج شؤون السياسة »

فكانت النتيجة المدهشة لتلك الطريقة هي نفس النتيجة التي قصد اليها عبد الله بن ميمون في وضع طريقته السرية وهي أن جمهوراً عظيما من رجال يعتنقون مذاهب ومبادىء مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم

٧ ـ رأينا وجه العلاقة بين البناء الحر وأصل الشعلة. وسواء أكانت الشعلة قد نشأت في مهد البناء الحر أو كانت من عمل فيسهاوبت ومحض ابتكاره ، فان تعاليم البناء الحر ونظمه قد لعبت دوراً هاماً في أعمال الشعلة . ذلك أن فيسهاوبت اختار أن يحتجب وراء البناء الحر ورأى المحافل خير قناع يستر به غاياته « لان العالم قد اعتاد ألا ينتظر منها عملا عظيما يستحق الاهتمام » واتخذ من أساطير البناء الحر وسيلة لتأييد شرحه لتعاليم النصرانية ، فزعم أن النظرية السرية التي تخفيها تعاليم المسيح قد تناقلها على كر العصور دعاة رأوا أن يخفوا نظريتهم تحت ستار البناء الحر ، وان حيرام هذا الذي تشير اليه الاساطير هو المسيح بذاته وعلى ذلك فالبناء الحر هو النصرانية المقنعة في رأي فيسهاوبت . ومن ثم اختار زعيم الشعلة لجمعيته مراتب البناء الحر ، ولا سيما مراتبه الدينية

ثم ان فيسهاوبت لم يقف عند الاقتباس من نظم البناء الحر وتقاليده ، ولكنه التحق به رسمياً في سنة ١٧٧٧ ، غير أنه لم يلتحق به مخلصاً لمبادئه وانما لكي يتدرج في مراتبه ويكشف أسراره لنفسه ، وقد كتب الكاتو بعد عام من دخوله : « لقد ظفرت بمعرفة لمحة عميقة من أسرار البنائين الاحرار وقد وقفت على غاياتهم كلها ، وسوف أنقلها في الوقت المناسب الى احدى المراتب العليا » . ثم أوفد كاتو بعد ذلك الى ايطاليا ليقف على أسرار أخرى ، وأثبت كاتو في مذكراته ما يأتي : « تحادثت مع الاب ماروتي في شؤون البناء الحر ، فشرح لي السر كله واذا به مشتق من الدين القديم ومن تاريخ الكنيسة ، ووقفني على أسرار المراتب العليا حتى رتبة الفارس الايكوسي . وقد أخبرت سبارتاكوس بهذا »

وكتب فيسهاوبت بعد ذلك « سوف يكون لنا محفل بناء خاص بنا نعتبره حديقة للتغذية . ثم انا لن نفضي لاولئك البنائين في الحال بأن لدينا شيئاً غير الذي يعتنقه البناؤون . وسوف نستتر بهذا الرداء في كل فرصة ، ونبقي أولئك الذين لا يصلحون للعمل في محفل البناء حيث يتدرجون في مراتبه دون أن يعلموا شيئاً آخر عن طريقتنا » ثم يحاول فيسهاوبت بعد ذلك ان ينتزع محفل تيودور في ميونيخ من رياسة محفل برلين، لكي يستأثر هو بادارته والسيطرة عليه ويبدي في كل ذلك كثيراً من

الدهاء والمقدرة على الدس . وبينما يحتقر في أعماق نفسه كل تعاليم البناء الحر والصليب الوردي وكل ضروب الروحية والتصوف اذا به يتخذها جميعاً شباكا للصيد . وعلى ذلك فرياء الشعلة نحو البناء الحر أمر لا مرية فيه ، تؤيده وثائق الشعلة ذاتها

والخلاصة أن الشعلة البافارية كانت تمثل روحاً ثورياً هائلا يضطرم بغضاً لكل نظام اجتماعي وخلقي كائن ، وقد اجتهدت في أن تستخدم كل حركة أخرى يمكن أن تفيد في تحقيق غاياتها . ولم تكن مبادىء الشعلة مجموعة من ضروب الدهاء النظري فقط ، بل كانت تغذي أيضاً كل طريق عملية لاثارة الناس ودفعهم الى العمل . وهذا ما أدركه فيسهاوبت بذكاء وبراعة ، فقد استطاع أن يستخلص من نظم الجمعيات الأخرى قديمها وحديثها كل ما أراد من مناهج وطرق وأن ينسقها ويستخدمها بمهارة. وقد استعرض لهذا الغرض مبادىء المانوية والفلاسفة المحدثين ، والاسماعيلية ، والفرسان ، واليسوعيين ، ودرس مبادىء البناء الحر وفلسفة ماكيافاللي ، وأسرار الصليب الوردي وغيرها ، وعرف فوق ذلك كيف ينتقي العناصر الصالحة لجمعيته من جميع الطبقات والاهواء والافكار ، فتجد بين أعضاء الشعلة من شاعر عبقري مثل جيته وغيره من أصحاب المثل العليا ، الى أخطر دساس ومتآمر ، وخيالي ، وطامع ، وناقم ، وساخط ، يجتمعون كلهم في حظيرة واحدة ، ويعملون لغاية واحدة وكل يجهل خلافه مع الآخر

وقد رأينا أن فيسهاوبت لم يكن مبتدعاً لتلك الطريقة المدهشة ، وانها انما نشأت في المشرق وابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي عبد الله بن ميمون ، غير أن فيسهاوبت كان أول من طبقها في جمعية سرية غربية وطبقها بنجاح مدهش ، ومن ثم غدت طريقة لكل جمعية سرية أو ثورية غربية أخرى ، وهو ما يضع فيسهاوبت في صف زعماء الثورة وأقطاب الهدم والنظم والجمعيات السرية

٨ — لم يمض بضعة أعوام حتى اشتد ساعد الشعلة البافارية وأنشأت لها فروعاً في معظم المدن الاوربية ، واجتذبت اليها جمهوراً كبيراً من المتنورين ، وحظيت بمؤازرة نفر من أبطال الادب في ذلك العصر مثل جيته وهردر وكذلك بعض الامراء والحكام مثل دوق فيار ودوق جوتا . وكانت مراتبها تجتمع في ثلاثة أقسام هامة . الاول قسم المبتدئين، والعقلاء، وصغار الدعاة . والثاني قسم البنائين الاحرار والفرسان العاديين والفرسان الايكوسيين . والثالث قسم الخفاء وفيه مراتب الكاهن والوصي والقطب والملك

غير أن فوز الشعلة لم يطل أمده حيث استحالت صرامة اجراءات القبول وغرابتها الى ضروب للتجسس ، فعصفت بنظم الجمعية ، وصرفت عنها كثيراً من الانصار . ومن ثم كانت فكرة فيسهاوبت في تقوية علائق الشعلة بالبناء الحر ، والعمل باسمه ، والاستتار بنظمه وشعائره

وقد كانت هذه وسيلة صالحة لتجديد نشاط الشعلة وقوتها ، ولكن حادثاً مدهشاً فضح أسرار الجمعية فجأة ، وحطم صرحها ونشاطها . وذلك ان راهباً من أعضائها يدعى لانتسه أوفد في يوليه سنة ١٧٨٥ الى سيليزيا كرسول للشعلة فأصابته أثناء المسير صاعقة قتلته ، ووجدت معه وثيقة بتعاليم الشعلة ، وقفت الحكومة الباقارية منها على طرف من أسرار الجمعيــة ومناهجها ، فنشطت الى تحقيق الامر واقتحمت منزلي سفاك وباسوس وضبطت لديهما كثيراً من الوثائق والاوراق التي نشرت فيما بعد كما ذكرنا . هــذا الى أن المختار أصدر قانوناً بحل جميع الجمعيات السرية التي توجد في باقاريا . وكان من أثر ذلك أن قبض على جماعة من أقرب أنصار فيسهاوبت وحوكموا . أما فيسهاوبت ففر الى جوتا واحتمى بأميرها الذي اعتنق مبادئه

غير أن الشعلة الباقارية لم تخمد ، ولم تنحل ، بل نهضت في الحال من عثرتها تحت أستار وأسماء جديدة ، وظهر فيسهاوبت ثانية في ميــدان العمل واستمر في نشاطه أعواماً مديدة كما سنرى

الفصل الخامس

تأثير الدعوات السرية

في الثورة الفرنسية

(١) تمهيد (٢) محافل البناء الحر والشعلة الباڤارية . الجمعيات السرية وحادثة عقد الملكة . عودة الشعلة الباڤارية الى العمل . المحافل السرية قبيل الثورة . حقيقة التعاليم التي قصدت الى اضرام الثورة (٣) مخاوف بعض مفكري هذا العصر . نبوءة الكردينال كابرارا . نبوءة المركيز دي لوشيه (٤) صلة ميرابو بالجمعيات السرية . برنامج الثورة كما وجد في وثيقة تنسب الى ميرابو . هل أريد بالثورة الفرنسية ان تكون فاتحة لثورة عالمية ؟ أقوال المؤرخ لومبار دي لانجر . ماذا كان وراء زعماء الثورة والمؤتمر الوطني . صبغة الثورة القومية

١ ــ رأينا مما تقدم أن الهدم الشامل غاية تجثم وراء جهود كل الجمعيات السرية سواء تلك التي قامت في المشرق لهدم الاسلام وتعاليمه بل هدم كل الاديان على الاطلاق وما حملت من نظم سياسية واجتماعية وأخلاقية ، أو تلك التي قامت في المغرب لهدم النصرانيــة وما حملت من تعاليم ونظم والمدنية وما أقامت من صروح للحياة العامة ، وما سنت من شرائع وتقاليد وعرف ، ثم رأينا أن هــذه الجمعيات السرية والحركات الهــدامة الخفية قد بلغت في الغرب ذروة الاتساع والبـأس في أواخر القرن الثامن عشر حيث ازدهرت محافل البناء الحر في فرنسا والمانيا ، وسما شأنها واستفحل نفوذها بين جميع الطبقات ، وحيث قامت الشعلة الباڤارية وبثت تعاليمها في المانيا وفرنسا ، وبعثت لمحات من نظمها ونشاطها الى البناء الحر والى طائفة كبيرة من الجمعيات السرية الاخرى ، وحيث اندس دعاة الكابالا والسحرة الى جميع أنحاء أوربا ، وظهر أقطاب السحرة الكاباليين مثل البـارون فون أوفنباخ ، والكونت سان جرمان ، وكاجليوسترو وفوك وخلبوا مجتمعات هذا العصر بدعاويهم وشعوذتهم . ونلاحظ الآن أن تلك الفورة العامة التي شملت كل الجمعيات والطوائف السرية في هذا العصر قد حدثت قبيل الثورة الفرنسية بأعوام قليلة ، وان المجتمع الفرنسي الذي تأثر بروح هذه الفورة وأعراضها وتعاليمها أكثر من أي مجتمع آخر هو المجتمع الذي قام بالثورة ونفذ برنامجها الممعن في الهدم والمحو على مثل لم يشهده التاريخ . لذلك حق علينا أن نعنى بتحديد الدور الذي قامت به الجمعيات السرية في اضرام نار

الثورة الفرنسية والآثار التي بعثتها جهودها الى الثورة في أطوارها ووجهاتها المختلفة ان مؤرخ الثورة الفرنسية قلما يعني بتحديد هذا الدور او الاشارة اليه ، ولكن مؤرخ الجمعيات السرية لا يسعه أن يغفل الكلام عن عامل من أهم العوامل التي أسبغت على الثورة صبغتها العالمية ، وجعلت منها قدوة عامة لجميع الحركات الهدامة التي قامت من بعدها ونسجت على منوالها

٢ ـ أشرنا فيما تقدم الى علاقة الشعلة البافارية بالبناء الحر ، وبينا كيف أن فيسهاوبت رأى أن يستتر بالبناء الحر وأن يتخذه آلة ووسيلة . وقد رأى البناء الحر من جانبه في فيسهاوبت وجمعيته عضداً قوياً ، ومنذ سنة ١٨٨٢ بدىء بعقد مؤتمرات مختلطة يشهدها أقطاب البناء الحر وأقطاب الشعلة البافارية . وفي فبراير سنة ١٨٨٥ عقد مؤتمر في باريس شهده بوده والبارون فون بوشه وهما من زعماء الشعلة، والساحر كاجليوسترو ، والمنوم مسمر ، وسفاليت دي لانج وغيره من زعماء البناء الحر وذلك للبحث في أغراض الشعلة والبناء الحر ووضع قاعدة مشتركة للعمل ، غير أنه لم يوفق الى نتائج حاسمة . وفي العام التالي عقد مؤتمر سري في فرانكفورت ، تقرر فيه على ما يقال لاول مرة قتل لويس السادس عشر ملك فرنسا ، وجستاف الثالث ملك السويد

بيد أنا نستطيع أن نتبين أثراً واضحاً لجهود الجمعيات السرية في اضرام نار الثورة في سنة ١٧٨٦ ، في حادثة عقد الملكة الشهيرة التي يصفها ميرابو بأنها « فاتحة الثورة » ويقول عنها نابوليون انها أقوى الاسباب التي أدت الى انفجار سنة ١٨٧٩ . تلك الحادثة التي لا تكفي صحف التاريخ الرسمي لتبديد ما أحاط بها من الخفاء والغموض يمكن فهمها في صحف الجمعيات السرية ، فنحن نعلم أن كاجليوسترو كان بطلا من أبطال هذه الحادثة ، وان كان التحقيق الرسمي يريد أن يجعل دوره فيها عرضياً ثانوياً ، وكاجليوسترو كما رأينا داعية من دعاة الكابالا ، ومبعوث جمعية « الرقابة الصارمة » التي لم تكن سوى شعبة من شعب البناء الحر ، وقد اتصل بالكردينال دي روهان بطل المأساة الاصيل ، وقدم معه الى المحاكمة فبرىء ثم انتقل الى انجلترا في نفس هذا العام وهنالك اندس الى الجمعيات السرية في لوندره ، وظهر فيها باسم الكونت سوتكفسكي ، وكان الدكتور فوك يقيم هنالك في نفس الوقت . وقد أشرنا الى ما قد يكون ثمة بين كاجليوسترو والدكتور فوك ، وبين الدكتور فوك والدعوة الكابالية من علائق سرية . ومن الواضح ان الآثار التي ترتبت على فضيحة

عقد الملكة من التشهير برجال البلاط والـكنيسة ، والحط من هيبتهما ، والقاء سحب من الشبه على وجهات السياسة الفرنسية وغيرها كانت مما يمهد الى الغايات التي يعمل لتحقيقها فردريك الـكبير من وراء المحافل والجمعيات السرية الاخرى

ثم ان الشعلة الباڤارية التي طاردها مختار باڤاريا في ذلك الحين وشرّد زعماءها لم تنحل الا في الظاهر كما قدمنا ، فقد عاد ڤيسهاوبت في الحال الى العمل وراء المحافل والجمعيات الاخرى ، لان الشعلة كانت في الواقع مبادىء أكثر منهـا جمعية سرية ، وقد رأيت ان ڤيسهاوبت كان يؤثر أن يبث تعاليمه تحت ستار أسماء وصفات أخرى . وكان أول ستار اتخذه ڤيسهاوبت للعمل محفل « الاخوة المتحدين » في باريس ، وكانت تربطه بالشعلة روابط عدة . ففي فبراير سنة ١٧٨٧ أي بعد حل الشعلة بأشهر فقط وفد بوده وبوشه وهما من زعماء الشعلة الى باريس بدعوة من اللجنة السرية لمحفل « الاخوة المتحدين » وعقدا مع المحفل باسم الشعلة محالفة وثيقة ، واجتمعا هنالك بميرابو وهو داعية قديم من دعاة الشعلة وكذلك بتاليران ، وكان لهما أكبر فضل في عقد هذا التحالف بين جماعة ڤيسهاوبت والبناء الحر

وقد كان معظم الزعمـاء الذين أضرموا نار الثورة فيما بعد ينتمون الى المحافل المختلفة ، فمحفل « الاخوات التسعة » كان يتألف في الغالب من ثوار الطبقة الوسطى مثل بريسو ، ودانتون ، وكاميل ديمولان ، وشامفور ، وكان « محفل الصراحة » يتألف من الثوار الارستوقراطيين مثل لافاييت ، والدوق دورليان ، والمركيز دي سلري ، والدوق ديجويون ، والمركيز دي كوستين ، وآل لاميال . أما محفل « العقد الاجتماعي » فكان يتألف في الغالب من ملـكيين مخلصين ليست لهم غايات ثورية . وكانت مهمة محفل « الاخوة المتحدين » أن يجمع بين الثوريين الهدامين من مختلف المحافل وبين معظم اللجان السرية للمشرق الاعظم ، وان يعمل على انتخاب نواب للاقاليم من أعضاء « الشعلة » ، فكان محفل شارع دي لاسورديير (الاخوة المتحدين) الذي يرأسـه ساڤاليت دي لانج في الواقع مجمعاً لتلاميـذ ڤيسهاوبت وسويدنبورج وسان مارتان ، وملتقى لمعظم أقطاب الثورة وقادة الجماهير

وكان تأثير الشعلة الباڤارية في تلك المحافل والجمعيات السرية عظيماً ، اذ سرعان ما تسربت اليها تعاليم ڤيسهاوبت حتى تحولت مبادئها الثورية الغامضة الى نزعة قوية مضطرمة وفي سنة ١٨٧٩ وفد بوده وبوشه الى باريس بحجة الاستعلام عن حقيقة التنويم الذي ذاع أمره عندئذ ، ولـكن غايتهما الحقيقية كانت حشد الانصار

والدعاة لتعاليم الشعلة . ويصف الاب باروبل هـذا التأثير في قوله : « كان محفل الاخوة المتحدين يجمع كل شيء يمكن استخراجه من جميع نظم البناء الحر في العالم وبذلك مهدت السبيل بسرعة أمام تعاليم الشعلة ، وسرعان ما تشبع ذلك المحفل وكل المحافل الاخرى التي تنتمي اليه بهذه التعاليم ، وسرعان أيضاً ما غاضت نظمه ومبادئه القديمة ، وحلت التعاليم الفلسفية السياسية مكان التعاليم السحرية الـكابالية » (١)

فلم تكن التعاليم الـكابالية أو المارتينية أو تعاليم البناء الحر هي التي أنشأت قوى الثورة مستقلة لان كثيراً من دعاة البناء الحر الذين لم يصطبغوا بتعاليم الشعلة لبثوا مخلصين للعرش وللـكنيسة ، ولما انفجر بركان الثورة وأحدقت المخاطر بالملـكية دعا اخوة محفل « العقد الاجتماعي » المحافل الاخرى الى الدفاع عن الملك والدستور ، واجتمع حول العرش نفر من زعماء البناء الحر الذين أقسموا العداء للبابوية وللبوربون، وتغلبت فيهم الروح الفرنسية على الروح الفلسفية العامة . وعلى ذلك فاذا قيل ان للبناء الحر دوراً في اضرام الثورة الفرنسية ، فذلك هو البنـاء الحر الذي حمله تيار الشعلة ، وهو أثر التعاليم التي بثها دعاة الشعلة في المحافل الفرنسية منذ سنة ١٨٨٧ وهو وحي فيسهاوبت « بطريق اليعقوبيين » أقطاب الثورة وقادتها

٣ ـ هذه العقلية الثورية الهدامة التي سرت الى مجتمعات هـذا العصر لم تكن خافية على بعض الرجال المطلعين ذوي النظر البعيد ، فقد آنسوا اضطرامها ، وجزعوا لخاطرها ، وتوقعوا منها ويلاً مستطيراً للنظم القائمة . ومن هؤلاء الـكردينال كابرارا المبعوث الرسولي في فينا ، فقد كتب الى البابا تقريراً سرياً في سنة ١٨٨٧ يصف فيه جهود الشعلة والبناء الحر وما اليهما من الجمعيات السرية في المانيا ومما كتب : « ان الخطر داهم،لان كل هذه الاحلام الخرقاء التي تحملها تعاليم الشعلة،وتعاليم سويدنبورج وتعاليم البناء الحر ستسفر عن حقيقة رائعة . وللتصورات طور محدود ، وسوف يكون للثورة التي يتنبأون بها نصيبها من التحقق ايضاً » . ثم ان المركيز دي لوشيه وهو من النبلاء الاحرار الذين لعبوا دوراً في الحركة الثورية لاحظ أخطار المبادىء التي تذيعها الشعلة على النظم القائمة وروعة الجهود التي تنفقها في هدمها فحذر الناس من عواقبها في رسالة له عنوانها « رسالة عن طائفة دعاة الشعلة » (٢) كتبها في سنة ١٨٨٩ قبل أن يستفحل أمر الثورة . ومما قاله : « أيها الناس المخدوعون ، اعلموا انه توجد

---

(1) Barruel, Memoires pour servir à l'Histoire du Jacobisme

(2) Essai sur la Secte des Illuminés

مؤامرة لتغليب الظلم على الحرية ، والعجز على الكفاية ، والرذيلة على الفضيلة ، والجهل على النور ، . . . هذه الجمعية ترمي الى حكم العالم ، وغايتها السيادة العامة . وقد تبدو هذه الفكرة خارقة ، بيد أنها ليست خيالية . . . ولم يصب العالم من قبل مثل هذه المصيبة » ثم يصف دي لوشيه بعد ذلك طرفاً من حوادث تشبه تلك التي حدثت بعد ذلك بأعوام ثلاثة ، فيصف موقف ملك اضطر الى الاعتراف بسادة غلبوا على العرش واقرار « نظمهم الفظيعة » والى أن يغدو آلة لجماعة طاغية متعصبة ملكت ناصية ارادته ، ثم يقول : « تخيلوه محكوماً عليه بأن يخدم شهوات كل أولئك الذين يحيطون به ، . . . وأن يرفع رجالا أوغاداً الى منصة الحكم ، وأن يلوث أحكامه باختبارات تحط من قدر كرامته وحزمه . . . »

وللمركيز دي لوشيه أن يتصور أدوار الثورة طبقاً لتلك العقلية الرجعية المتحيزة وأن يصف تحطيم الملكية وطغيانها ، وفوز الشعب في استرداد حقوقه وسيادته بما شاء من النعوت ، وأن يصم زعماء الثورة ويحط من أقدارهم كما يهوى ، ولكن الحق أننا اذا جردنا عباراته مما احتوت من تحامل ألفينا النبوءة مدهشة خارقة ، فقد سارت الحوادث طبقاً للمنهج الذي تخيله المركيز دي لوشيه ، ولم تأت سنة ١٧٩٢ حتى كان فوز الثورة كاملا شاملا

ثم يتنبأ دي لوشيه بوثبة الهدم التي قامت بها الثورة في قوله : « لا نريد أن نقول ان البلد الذي يحكمه دعاة الشعلة يموت ولكنه ينحط الى أسفل درك من الذل بحيث يصبح غير ذي شأن في السياسة ، ويقل سكانه ويقع اولئك الذين يحجمون منهم عن الهجرة الى البلاد الاخرى بين براثن الاحزان والفاقة فلا ينعمون بالاعتبار ولا سعادة الاجتماع ولا مواهب التجارة »

ثم يختتم رسالته بنداء مؤثر يوجهه الى دول أوربا مستنهضاً إياها لغوث أولئك الذين اعتبرهم للدعوات السرية الهدامة فرائس وضحايا ، ومما يقول : « يا سادة العالم تأملوا كتلة بشرية منكودة ، واصغوا الى صريخها ودموعها وآمالها ، ان أمّاً تسألكم أن تردوا اليها ولدها ، وزوجاً زوجها ، وتسألكم مدنكم أن تردوا اليها تلك الفنون الجميلة التي فرت منها ، وتسألكم البلاد عن سكانها ، والحقول عن زراعها ، والدين عن شعائر العبادة ، والطبيعة عن بشر هي خليقة بهم . . . »

ورسالة المركيز دي لوشيه هذه من أغرب وثائق التاريخ وهي كما ترى دليل ناهض على أن تعاليم فيسهاوبت ، ودعوات الشعلة والبناء الحر كانت تثير حقاً جزع المشفقين

على النظم القائمة ، وعلى أن هذه النظم كانت تضطرب أمام العدو الخفي الذي ينشط في الخفاء الى تقويضها وتحطيمها

٤ — ولنا في حياة ميرابو وتصرفه دليل آخر على نشاط الجمعيات السرية في اضرام نار الثورة ، فقد رأينا أن ميرابو داعية متحمس من دعاة الشعلة ، ورأيناه يعمل في معظم الجمعيات السرية التي كانت قائمة في ذلك الحين ، ولما تفاقم الخلاف بين نواب الطبقات وبين البلاط وكان ميرابو من أنشط العاملين على إذكاء فورة الشعب ، وبث روح الخروج والثورة في نواب الطبقات وزعماء الجماهير ، بل كان أول من رفع لواء العصيان وأشد من حرض على تأليف الجمعية الوطنية التي كان قيامها فاتحة النضال الحقيقي بين الشعب والملكية . ومن الصعب أن نستشف من الموقف الذي وقفه ميرابو عندئذ حقيقة الدور الذي أثاره وحي الشعلة وغيرها من الجمعيات السرية في ثنايا المعركة التي أخذ يضطرم لظاها بين دعاة الثورة والهدم وبين النظم القديمة ، ولكن أليس لانتماء ميرابو ، وداتتون ، وبريسو ، وكاميل دموولان ، ولافاييت الى محافل البناء الحر التي غلبت عليها نزعة الشعلة وتعاليم فيسهاوبت ، مغزى هام اذا ذكرنا أن هؤلاء كانوا من أعظم قادة الثورة الفرنسية ، بل اذا ذكرنا أن داتتون وبريسو كانا من أعظم دعاة الهدم والمحو ، وان كاميل دموولان كان أول من دفع الشعب الى حمل السلاح والوثوب بالباستيل ، بل ان خطة الثورة كلها قد وجدت مدونة في وثيقة . وجدت بين أوراق ميرابو على ما جاء في نشرة ظهرت في سنة ١٧٩١ عنوانها « خفايا المؤامرة » Mystères de la Conspiration ، وناشر هذه الرسالة يقرر أن الوثيقة المذكورة وعنوانها ملخص أو مشروع ثورة المسيو دي ميرابو Croquis ou Projet de Révolution de M. de Mirabeau قد ضبطت في منزل مدام لجاي زوج ناشر كتب ميرابو وذلك في ٦ اكتوبر سنة ١٧٨٩ . وتفتتح هذه الوثيقة بحملة مرة على الملكية الفرنسية ، ثم يقول كاتبها : « ويجب من أجل أن نظفر بذلك المارد الجبار أن نقوم بما يأتي » :

« يجب أن نسحق كل النظم ، وأن نلغي كل القوانين ، وأن نمحو كل السلطات ، وأن نترك الناس في فوضى وقد لا تنفذ القوانين التي نسنها في الحال ، ولكنا متى رددنا السلطة الى الشعب فانه سوف يقاتل من أجل حريته التي يعتقد أنه يقاتل لصونها . ويجب أن نغضي عن كبرياء الافراد ، وأن نملق آمالهم ، وأن نعدهم بالسعادة متى بدأ عملنا : ويجب أن نجانب أهواءهم وما تمليه اراداتهم لان الشعب مشرع شديد الخطر

فهو لا يسن من القوانين الا ما يتفق مع شهواته ، هذا فضلاً عن أن قصوره في المعرفة يفضي الى الخطأ والتطرف . ولكن لما كان الشعب آلة يحركها المشرعون طبق ارادتهم فمن الضروري أن نستخدمه لتأييدنا ، وأن نحمله على بغض كل ما نرمي الى هدمه ، وأن نغذيه بالخيالات والاوهام . كذلك يجب أن نشتري كل الاقلام المرتزقة التي تبث مبادئنا ، والتي تعرف الشعب باعدائنا الذين نهاجمهم . فرجال الدين مثلا وهم أقوى الطوائف تأثيراً في الرأي العام لا يمكن هدمهم الا بالسخرية من الدين والتشهير بأقطابه ، وتصويرهم أوغاداً منافقين ، ذلك لان محمداً مهد لانشاء دينه بالطعن في الوثنية



ميرابو

التي كان يعتنقها العرب ، ومن الواجب أن تقوم النشرات القاذفة في كل وقت بحملات جديدة على رجال الدين ، فنبالغ في تصوير ثرائهم ونعيمهم ، وننسب اليهم كل الرذائل والمفاسد ، فالقذف والقتل والكفر كلها مباحة في أوقات الثورة

« ثم يجب أن نشين من قدر النبلاء وأن نرجعهم الى أصل ساقط ، وأن نبث فكرة مساواة لا يمكن تحقيقها ولكنها تكون ملقاً للشعب . كذلك يجب أن نطارد المتعنتين وأن نحرقهم وان نحطم ثرواتهم حتى نردع الباقين ، فاذا لم تنز بسحق هذه

النزعة فانا نضعفها ، والشعب ينتقم لكبريائه وغيرته بارتكاب صنوف الافراط والتطرف التي تجره الى الخضوع والاستسلام »

ثم تأتي الوثيقة بعد ذلك على دور الجند فتصف كيف يجب اغراؤهم وحملهم على العصيان . ثم تصف القضاة بأنهم ظلمة فجار . وتقرر عن مناهج الثورة ما يأتي :

« ماذا تهم الفرائس وعددها ؟ وماذا يهم التخريب والاحراق والنهب والسفك وكل ما تقتضيه الثورة ؟ يجب ألا نقدس شيئاً ، وان نأتم بقول مكيافيللي « بماذا تهم الوسائل ما دامت تفضي الى الغاية ؟ »

ليس ثمة ما يؤيد هذه الوثيقة من الوجهة التاريخية ولا ما يؤكد نسبتها الى ميرابو ، ولكن أليس فيما ورد فيها كثيراً مما نستشف من حوادث الثورة من مناهج وخطط ؟

على أن هنالك ما يدل على أن هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق التي وجدت بين اوراق ميرابو والتي تلقي ضياء كبيراً على اتصاله بالشعلة الباقارية ، والبناء الحر ، تؤيد أنه كان ثمة مؤامرة كبيرة دبرت في أقبية الجمعيات السرية لاضرام نار ثورة عامة تكون فرنسا مهدها ومسرحها الاول فقد ذكر ديشان مثلا ان ادريان ديبور تلا في ٢١ مايو سنة ١٧٩٠ على لجنة الدعوة مشروعاً هائلاً للهدم جاء فيه : « لقد قرر المسيو دي ميرابو ان الثورة السعيدة التي وقعت في فرنسا يجب أن تكون بالنسبة لجميع شعوب اوربا يقظة الحرية وللملوك سبات الموت ، وان ديبور لم يرَ رأي ميرابو في الاقتصار مؤقتاً على الاهتمام بما يدور في فرنسا من الحوادث ، بل قرر انه يعتقد ان ظفر الثورة الفرنسية يجب ان يفضي حتماً « الى هدم كل العروش . . . وعلى ذلك فيجب ان نسارع الى ان نضرم لدى جيراننا ثورة كالتي تسير الا ن في فرنسا » ويصف ديشان ادريان ديبور هذا بأنه من اقطاب اعضاء الجمعيات السرية وممن يقبضون على جميع خيوط مؤامرات البناء الحر (١)

أليست هذه فكرة الثورة العالمية بعينها ؟

واليك ما يقوله لومبار دي لانجر مؤرخ اليعقوبيين عن علاقة الثورة وزعمائها بالجمعيات السرية : « كان في فرنسا في سنة ١٧٩٠ نيف والفا محفل تنتمي الى المشرق الاعظم وتضم من الاعضاء اكثر من مائة الف . وكانت الحوادث الاولى من سنة

---

(١) ديشان « الجمعيات السرية والمجتمع » Les Sociétés Secrètes et la Société ويرجع هذا الكاتب في روايته هذه الى وثائق وجدت بين اوراق الكردينال برنيس

١٧٨٩ ترجع الى تدبير البناء الحر وحده . وكان جميع ثوار الجمعية الدستورية من أعضاء المرتبة الثالثة التي تضع بين اعضائها : الدوق دورليان ، ڤالانس ، سيلري ، لاكلو ، بيسيون ، مينو ، بيرون ، فوشيه ، كوندرسيه ، لافاييت ، ميرابو ، رابو ، دبوا كرانسيه ، تيبو ، لاروشفوكول وغيرهم » [(١)] ومن هؤلاء الغير بريسو وزملاؤه الذين كانوا نواة الجيرونديين ، وكذلك اقطاب الارهاب أعني مارات وروبسبير ودانتون وديمولان

والعناصر المتطرفة الممعنة في الهدم او بالحري اقطاب الارهاب هم الذين غلبوا العناصر المعتدلة الخيالية من البناء الحر على أمرها وأخضعوها لصولة النزعة الوثابة الكاسحة . ويروي دي لانجر أيضاً ان اولئك الزعماء الثوريين عملاً بتقاليد الشعلة كانوا ينتحلون لانفسهم أسماء قديمة فكان شوميت يعرف بانا كساجوراس ، وكلوتس بانا كراسيس ، ودانتون بهوراس ، ولا كروا بيوبليكولا ونحوها كما كان فيسهاوبت ينتحل اسم سبارتا كوس، وسفاك اسم كاتو ، والبارون فون كنيجه اسم فيلو وهلم جرا فأقطاب الارهاب وقادة الهدم في الثورة الفرنسية هم كما ترى أبناء الشعلة قولاً وفعلا

بيد ان المدهش ما يقرره دي لانجر ايضاً من ان اولئك القادة الهدامين لم ينفذوا على ما يظهر الى اعماق اسرار الشعلة والى غاياتها القصوى والاخيرة ، وانهم مع تحقيقهم لكثير مما احتواه برنامجها العملي لم يكونوا سوى منفذيه الخارجين ، وان وراء المؤتمر الوطني ، والمحكمة الثورية ، ولجنة السلام العام وغيرها من آلات الثورة والارهاب « كانت تجثم جمعية تمعن في الاختفاء والتكتم Convention Sécrétissime هي التي كانت تدبر الامور منذ بداية الثورة ، وكانت هذه قوة سرية هائلة قوامها اعظم دعاة الشعلة ، ولم يكن المؤتمر الثوري سوى عبد لها وآلة في يدها . وكانت فوق روبسبير وفوق كل لجان الحكومة . . وهذه القوة الخفية هي التي استولت على أموال الامة وقسمتها بين الاخوة والاصدقاء الذين عضدوا العلم العظيم » [(١)]

واذا كانت أقوال مؤرخ اليعقوبيين هذه تنم عن مبالغة ، فان فيها ايضاً ما يلقي ضياء واضحاً على الدور الذي قامت به الجمعيات السرية ولا سيما الشعلة البافارية والبناء الحر في اضرام نار الثورة الفرنسية . أما نحن فلا نميل الى المبالغة في تقدير هذا الدور الى الحد الذي يذهب اليه لومبار دي لانجر من تجريد الثورة الفرنسية من كل صفة قومية ، واعتبارها ثمرة خالصة لجهود الشعلة البافارية والبناء الحر ، واعتبار

---

(١) تاريخ اليعقوبيين Hist. des Jacobins

قادتها وزعمائها وهيئاتها الثورية آلات محضة في يد هذه القوة الخفية التي يشير اليها . اما انه كان لتعاليم فيسهاوبت وجهوده الهدامة ومبادىء البناء الحر ومساعيه الثورية أثر كبير في تحريك الثورة الفرنسية وفي اذكاء حمية زعمائها وقادتها وتوجيه جهودهم ووثباتهم الهدامة فما لا ريب فيه ، ولكن هذا الأثر الخفي لم يكن أصلاً في بعث فورة كانت تختمر في المجتمع الفرنسي قبل انفجارها بأعوام مديدة ، بل كان عرضاً تبعياً أعني ان الشعلة والبناء الحر وغيرهما من الجمعيات السرية رأت في المجتمع الفرنسي مهاداً خصيبة لبث دعوات الثورة والهدم ، واستطاعت منذ اللحظة الاولى ان تستثمر ما كانت تجيش به نفوس الشعب الفرنسي من سخط وبغض ، وما كان يعانيه من بأساء وعسف ، وان توجه جهود الثورة بعد انفجارها على يد قادتها وزعمائها ومعظمهم كما رأيت من اعضائها ودعاتها

في ضوء هذه الاعتبارات يجب ان ندرس تاريخ الثورة الفرنسية . وقد انتهزنا هذه الفرصة لنعنى بوجه من وجوه الثورة الفرنسية لم يعن به كاتب عربي تعرض لهذا الموضوع . ومما يؤسف له ان كل ما اخرج بالعربية حتى الآن عن الثورة الفرنسية ما يزال يعالج أسبابها وحوادثها بأساليب عتيقة بتراء لا تعطي للقارىء او المتعلم أية فكرة حقيقية عن اعظم حركة هدامة عرفها التاريخ

الكتاب الرابع

الجمعيات السرية في عصر التحرير

تمهيد

كان لمبادىء الثورة الفرنسية وتعاليمها صدى قوياً في معظم المجتمعات الاوربية الاخرى ، وقد غشيت الحروب النابوليونية هذا الاثر مدى حين ، ولكن تعاليم الثورة لم تذهب بانقضائها . بل كانت الحروب النابوليونية ذاتها عاملاً من عوامل بث هذه المبادىء على يد الجيش الذي اخرجته الثورة وقاده نابوليون الى فتح اوربا . وكان سقوط هذا الطاغية وانتهاء المأساة الهائلة التي حولت أوربا الى ميدان حرب عامة ، وخضبت بسائطها بالدماء مدى عشرين سنة ، مؤذناً بيقظة المبادىء والنزعات الحرة الكامنة ، التي لبثت تضطرم خفية في صدور الشعوب ، فتعالت صيحات الجماعات من كل صوب في طلب الاصلاحات الدستورية والحقوق السياسية ، وقامت هنا وهنالك اضطرابات وثورات محلية . وارتاع الطغاة لهذه الاعراض فائتمروا بالشعوب واعتزموا سحق كل نزعة او وثبة حرة ، واخفات كل صوت يرتفع لتأييد الحقوق العامة ، وتحقيقاً لهذه الغاية الشائنة عقدت المعاهدة المقدسة في اواخر سنة ١٨١٥ بين اقطاب الطغيان في اوربا وهم اسكندر الاول قيصر روسيا ، وفردريك ولهلم الثاني ملك بروسيا ، وفرنسيس الاول امبراطور النمسا

غير ان عهد استرقاق الشعوب كان قد اخذ في الانحلال ، وحبل الطغيان في التصرم ، فلبثت اوربا مدى نصف قرن مسرحاً لوثبات وفورات متعاقبة في سبيل التحرير والوحدة القومية واسترداد الحقوق السياسية والاجتماعية . وكان بدء هذه الحركة قبل سقوط نابوليون نفسه حيث اتخذت في المانيا في المبدأ صورة حركة قومية عامة ترمي الى تحطيم النير الاجنبي قبل كل شيء ، وقد فازت هنالك ، وساعدت على تحطيم الجيوش الامبراطورية ، وانقاذ المانيا من النير الاجنبي . ثم اتخذت من بعد ذلك في ايطاليا صورة ثورة شعبية عامة تجتمع فيها كل الاماني القومية في استخلاص حريات ايطاليا من قبضة الاجنبي الغاصب ، واتخذت في فرنسا صورة نضال الشعب في سبيل احياء المبادىء الثورية القديمة ومحاربة الملكية وتحطيمها واستبدال طغيانها بالنظم الجمهورية ، واتخذت في روسيا صورة نزعة عامة في سبيل الاصلاح والتجديد واسترداد الحقوق السياسية والاجتماعية ، واتخذت صوراً شتى في معظم البلاد

الاوربية الاخرى بيد أن غايتها كانت واحدة في كل الاحوال ، وهي تأييد الحريات العامة وسيادة الشعب

وقد كان للجمعيات السرية في اضرام معظم هذه الحركات أثر بعيد وهو ما يعنينا هنا من أمر هذه الحركات . ويكفي لكي نقدر بعد هذا الاثر أن نتأمل ما قاله الوزير الانجليزي الشهير دزرائيلي عن هـذه الجمعيات السرية في احدى خطبه في مجلس النواب ، اذ يقول ما يأتي : « توجد في ايطاليا قوة قلما نذكرها في هذا المجلس ... أعني الجمعيات السرية . . . من العبث ان تنكر ومن المستحيل ان نخفي ان جزءاً كبيراً من اوربا ــ كل ايطاليا وفرنسا وجزءاً كبيراً من المانيا اذا لم نرد أن نقول شيئاً عن البلاد الاخرى ــ قد غطي بشباك من هذه الجمعيات السرية ، كما يغطى سطح الارض الآن بالسكك الحديدية . فما هي اغراض هـذه الجمعيات ؟ انها لا تحاول اخفاءها ، فهي لا تريد الحكومة الدستورية ، وهي لا تريد النظم المتفتحة . . . ولكنها تريد أن تغير ملكية الارض ، وأن ترفع عنها يد ملاكها الحاليين ، وأن تسحق المعاهد الدينية . وقد يذهب بعضها الى ابعد من هذا الحد . . . »(١)

وليس المقام بمتسع هنا لكي نسرد بالتفصيل سير كل الجمعيات السرية التي قامت في ذلك العصر بكثرة في جميع الدول الاوربية ، بيد انا نأتي على سيرة أهمها وابعدها أثراً في تاريخ اوربا في ذلك الحين ، وفي وسع القارىء أن يلاحظ من تلاوة تاريخها الوجهة الجديدة التي اتجهت اليها جهود الجمعيات السرية في النصف الاول من القرن التاسع عشر

---

(١) دزرائيلي في خطابه في مجلس النواب في ١٤ يوليه سنة ١٨٥٦

الفصل الاول

جمعية الكربوناري

I Carbonari

(١) أصل الكربوناري وغايتها . موزات والكربوناري . الكربوناري والبناء الحر . رموزها وقوانينها ومراتبها (٢) وصف رسوم الالتحاق . شعار الكربوناري . خطاب « الكوكب » . صيغة القسم الاعظم (٣) جهود الكربوناري الثورية . الكربوناري الفرنسية . نظمها ومراتبها . انتشار دعوتها . جهودها الثورية (٤) عود الكربوناري الايطالية الى العمل . مطاردة البابوية للكربوناري . جمعية الايمان المقدس . الثورة في الولايات البابوية . الكربوناري والوحدة الايطالية

١ ـ من أهم الجمعيات السرية التي ازدهرت وبلغت ذروة نفوذها وبأسها في النصف الاول من القرن التاسع عشر جمعية الكربوناري أو « حارقو الفحم » . وأصل هذه الجمعية محوط بالغموض والجدل الكثير ، فبعض الباحثين يرجع أصلها الى عصر فرنسوا الاول ، ويرجعه البعض الآخر الى عصر أقدم فيقول بنواست مالون في كتابه تاريخ الاشتراكية : ان أسقفاً من ساربروك يسمى تيوبولد أنشأ في القرن الحادي عشر جمعية سرية من الفحامين والحطابين لتسعى الى « ان تدار الشؤون العامة طبقاً لرغبة الجميع ورأيهم » ، فتصل بذلك الى إقامة ما يسميه تيوبولد بالدولة الديموقراطية العادلة . وكان « يسوع المسيح » هو الرئيس الفخري المختار للجمعية التي قسم اعضاؤها الى جماعات تعرف « بالينبوع » ، وكانت كلمة التعارف هي الامل والايمان ، كذلك كان التعارف يجري طبقاً لعبارات سرية ورموز خفية . ويقول آخرون ان ايطاليا هي موطن الكربوناري ، وان أصل الكلمة يرجع الى ان « الجلفيين » كانوا يفرون من مطاردة أعدائهم « الجيلان » ويجتمعون في بطن الغابات في أكواخ الفحامين والحطابين . بيد انه مهما كان الجدل الذي يدور حول اصل الكربوناري ، فانها لم تلعب دورها الهام الذي يسجل لها مكانة عظيمة في صحف الجمعيات السرية الا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت غايتها من هذا الدور سياسية محضة ، حيث عول انصارها على محاربة الاستبداد بجميع صوره ، والوصول الى ان يهبوا الى امتهم نظماً ديموقراطية حرة

وكان مورات ملك نابولي يؤيد دعوة الكربوناري في المبدأ باعتبارها مثقفة مهذبة غير انه ارتاع حينما شهد ذيوع المبادىء الجديدة بين جميع طبقات الشعب ، فثال على الكربوناري وجردهم من السلاح ، وأقصاهم عن أرضه ، فساروا وراء زعيمهم كابوبيانكو الى كلابريا . وكان أعضاء الجمعية في ذلك الحين لا يتجاوزون بضعة آلاف ، غير أن دعوتها ما لبثت في أعوام قليلة ان اجتاحت كل ايطاليا ، وذاعت في فرنسا واسبانيا ، واقتحمت نهر الرين ، وأخذت تبعث الجزع والرعب الى كل العروش الاوربية

وقد خلط بعض الباحثين بين الكربوناري والبناء الحر ، ولكن الواقع أن الكربوناري اشتقت من البناء الحر وكان لها مثل البناء الحر ورسومها الخاصة ولغتها الرمزية التي استعيرت من تعبيرات تجارة الفحم ، فسميت قاعة الاجتماع « بالكوخ » baracca ، والمكان الذي يعقد الاجتماع فيه بالغابة والاجتماع ذاته بالبيع Vendita ، واطلقت كلمة الجمهورية على مجموعة القاعات ، وأشير بعبارة « تطهير الغابة من الذئاب » الى انقاذ الوطن من جميع الطغاة والظلمة ومن ثم كان نداء الاجتماع عند الكربوناري « الانتقام للحمل الذي اضطهده الذئب ! » . وكانت قوانين الالتحاق شديدة صارمة ، وعقوبات الخارجين والخونة هائلة رائعة ، بل كان العقاب يوقع للرعونة والخطأ . وكان العضو الملتحق يقسم بأن يكتم سر وجود الجمعية ، وأسرار رموزها ولوائحها وعبارات تعارفها ، وأن يطيع كل الاوامر الصادرة من « البيع الاسمى » طاعة عمياء لا حد لها لان الامور المنكرة تغدو مشروعة سائغة متى كانت وسيلة لتحقيق السعادة والغايات العامة ، وأن يهب كل ثروته وحياته في سبيل الحرية والوطن . ويجب فضلا عن ذلك على كل عضو أن يجهز نفسه من ماله الخاص ببندقية وخمسين رصاصة ليكون بذلك على أهبة لان يقاوم الجور ويشد أزر اخوته الذين يسمون « بأبناء الاعمام الفضلاء » . وكان عقاب الخروج الموت . أما الدرجات التي يجب ان يحوزها العضو الملتحق فهي على التوالي : المتمرن ، فالاستاذ ، فالمختار الاعظم

٢ ـ واليك تفاصيل رسوم الالتحاق بالدرجة الثالثة طبقاً لما رواه سان أمده في كتابه عن الكربوناري : يجتمع « البيع » بعيداً عن الادناس في غار مظلم ، لا يعرفه سوى الكربوناري الذين وصلوا الى درجة المختار الاعظم وهذا الغار مثلث الجوانب ويجلس المختار الاعظم الذي يرأس الاجتماع على عرش يوضع في شرق الغار

في مكان يسمى بالزاوية العليا ، وأمامه في الغرب ، وفي منتصف قاعدة المثلث يوجد باب الغار ، يحرسه حارسان يعرفان « باللهبين » يحمل كل منهما سيفاً صنع على شكل اللهب . وينتظم المجتمعون الى صفين عن يمين الرئيس وعن يساره ، ويتجهون جميعاً بأبصارهم نحوه ليتبعوا كل اشاراته. ويسمى الاثنان اللذان يجلسان في نهايتي الصفين ، الطليعة الاول ، والطليعة الثاني ، ويسمى خطيب الاجتماع « بالكوكب » ، وينير القاعة ثلاثة مصابيح صنعت على مثل الشمس والقمر والنجم ويوضع كل منها في احدى الزوايا ، ويغطى عرش الرئيس ومقاعد الاعضاء بقماش احمر. ويرتدي الجميع ثياب الجمعية وهي عبارة عن قميص ازرق فوقه رداء طويل اسود قد عقد من الوسط بحزام من الصوف الاحمر علق فيه فأس صغير وخنجر ، ونعل مكشوف أزرق ، ومنديل كبير احمر يلف حول الجبين على مثل العمامة . ثم يبدأ الرئيس بقوله :

يا ابن العم الفاضل ، والطليعة الاول كم الساعة الآن

الطليعة الاول — أيها المختار الاعظم المبجل ان الناقوس يدق في كل ناحية ، فينفذ صداه حتى اعماق غارنا ، وأرى ان هذه هي اشارة اليقظة العامة للرجال الاحرار

المختار الاعظم — يا ابن العم الفاضل والطليعة الثاني متى يجب ان نفتتح أعمالنا السرية

الطليعة الثاني — في منتصف الليل أيها المختار الاعظم المبجل ، وذلك حينما تحتشد الجماهير العامة وراء اخواننا المدربين من ابناء الاعمام ، وتنتظم ، وتتحفز لتحطيم الاستبداد ، وتتأهب لان تضرب الضربات الكبرى

المختار الاعظم — ابني عمي الفاضلين ، اللهبين ، وحارسي ذمار مأوانا هل أنتما على يقين من أنه لم يندس بيننا أي دنس ، وان جميع الكربوناري الذين يجتمعون في هذه « الفندتيا » (البيع) هم جميعاً أساتذة عظام ومختارون عظام ؟

أحد اللهبين — بلى أيها المختار الاعظم الاجل ، فليس بيننا دنس ، ولا أخ من مرتبة صغرى

المختار الاعظم — هل اتخذ جميع المدربين لدرجات الكربوناري المختلفة الذين عينوا لقيادة الحركة العامة التي ستبدأ ، مراكزهم ، وجهزوا انفسهم بالسلاح جيداً ، يا ابن العم الطليعة الاول والطليعة الثاني

الطليعتان معاً — بلى أيها المختار الاعظم الاجل ، لقد ذهبوا جميعاً بعد ان اقسموا القسم المقدس أن يموتوا او يظفروا

المختار الاعظم — ما دامت الامور قد تمت على هذا النحو الحسن ابناء الاعمام

الفضلاء ، فاني ادعوكم الى مساعدتي في افتتاح اعمالنا الليلية بالقاء الشعار السباعي الذي أبدأه الآن ، هيا ابناء الاعمام الفضلاء :

« الى بادىء الكون ، الى المسيح رسوله على الارض ليعيد صروح الفلسفة والحرية والمساواة ، الى رسله ومبشريه ، الى القديس تبالدو مؤسس الكربوناري ، الى فرانسوا الاول حامينا ومبيد أعدائنا الاول ، الى السقوط الخالد لكل أنواع الظلم ، الى اقامة حرية حكيمة لا حد لها على الانقاض الخالدة لاعداء الشعوب » ويقام هذا الاجراء مقروناً بالهتاف العادي ، ثم يتلى محضر الجلسة السابقة ، ثم يأذن المختار الاعظم « للكوكب » بالكلام ، فيبدأ هذا بوصف العصر الذهبي الذي كان يخضع فيه البشر لقوانين الطبيعة ، وكانوا يتحلون بالفضائل والخلال الحسنة ، ويصف الحالة التعيسة حتى تعاني منها « اوسوني » (ايطاليا) الحسناء ، ويصور قضاءها الرائع ، بعبارات مؤثرة ، ثم يقول : « انها تخضع اليوم لثلاثين شخصاً يسمون بالملوك ، يلوذون بما يسمونه أملاكهم ، ويسومون بمر الخسف كل الشعوب المنكودة التي ترزح تحت سلطانهم الجائر المتخاذل . فلاجل انقاذ الوطن منهم ، انشأ أبناء أعمامنا الاول ، أسلافنا ، الكربوناري المحترمة ، وقد نفيت الحرية والمساواة من العالم فلا تجرؤان أن تظهرا في وضح النهار ، بل تلتجئان الى الغابات ، وتختفيان في « الينبوع » ، وفي الكهوف السحيقة حيث ترهف فؤوسها وخناجرها وتقسم أن تسحق في يوم واحد كل الطغاة الذين يرهقون كل هذه البلاد الجميلة ، وقد اقسمنا نحن جميعاً على اشارة منقذ العالم بأن نعيد الى الارض فلسفته المقدسة ، وقد حلت الساعة أبناء العم الاعزاء ودق ناقوس الثورة العامة ، وزحفت الشعوب المسلحة ، واذا ما لاحت تباشير الصباح هلك الظلمة وظفرت الحرية ، فلنستعمل الساعات الباقية القليلة التي تمضي قبل ان نصل الى دقائق انتقام قصير هائل ، في قراءة واعلان القوانين الجديدة التي ستحكم « اوسوني » الحسناء ، وتدمجها في شعب واحد ، في حدودها الطبيعية ، وتجعلها حرة ، سعيدة ، مزدهرة كباقي أمم العالم »

وبعد أن ينتهي « الكوكب » من القاء هذا الخطاب ، يتلو المختار الاعظم الرئيس صيغة القسم بصوت عال وهي : « أنا ، الوطني الحر « ابن اوسوني » الحسناء ، مجتمعاً مع اخوتي في ظل نفس الحكومة ، ونفس القوانين العامة التي اعمل لاقامتها ولو كلفتني حياتي ، اقسم بحضور أستاذ الكون الاعظم ، والمختار الاعظم ابن عمي الفاضل ، ان استخدم كل دقائق حياتي في اعلاء شأن مبادىء الحرية ، والمساواة ، ومقت

الظلم، التي هي روح جميع الاعمال العامة السرية لجمعية الكربوناري ، وأتعهد أن أبث حب المساواة في كل الانفس التي استطيع ان أؤثر عليها ، وأتعهد أن أقاتل حتى النهاية اذا لم يمكن اقامة الحرية بلا نضال ، واتقبل اذا نكبت بالحنث في قسمي كل ما يوقعه عليّ أبناء عمي المختارين العظماء من العقوبات مهما كانت من الصرامة والشدة ، واستعد ان اصلب عارياً في وسط « فنديتا » ، متوجاً بالشوك كما توج المسيح منقذنا وقدوتنا ، واقبل أن يبقر بطني حياً ، وأن ينزع قلبي وامعائي لتحرق ، وأن تقطع أوصالي وتشرد ، وأن تلقى جثتي بلا دفن ، هذه تعهداتنا التي نلزم بها الجميع أبناء العم الفضلاء ، فهل تقسمون باتباعها ؟

كل الحضور معاً ـ بلى نقسم

المختار الاعظم ـ أجاب الله دعاءكم أبناء العم الفضلاء ! ان رعده يدوي ، وقد قبلت ايمانكم والشعب على أهبة القتال ، وسوف يفوز ! فالويل لكم اذا ختنموه !

ثم يتلو الخطيب بعد ذلك نص الميثاق الدستوري الذي وضع «لاوسوني» والذي يجب أن يطرح لمصادقة الامة الحرة المتحدة

٣ ـ وقد تقدمت الكربوناري في ايطاليا بخطوات سريعة واستطاعت منذ سنة ١٨٢٠ أن تضرم في نابولي نار حركة ثورية اضطر الملك معها أن يذعن لرغبات الشعب وأن يقسم باتباع دستور حر ، غير ان فرديناند لم يكن مخلصاً في قسمه وما لبث أن نكث بجميع عهوده ، واستعان بالجنود النمسوية على تمزيق الكربوناري في نابولي ، وكذلك مزقت الكربوناري في بيمون حيث تغلب الرجعيون بمؤازرة النمسويين على الاحرار ، وركدت ريح الكربوناري حيناً في ايطاليا ، غير انها كانت قد جازت جبال الالب وأخذت تبث مبادئها في فرنسا

وفي شهر يوليه سنة ١٨٢٠ ذهب فتيان من أعضاء البناء الحر الفرنسي هما دوجيد وجوبير الى نابولي وتطوعا لخدمة الحكومة الجمهورية ، فانضم جوبير الى الجيش المقاتل للنمسويين ، والتحق دوجيد بالكربوناري وتدرج في مراتبها وأسرارها ثم عاد الى باريس وجمع نفراً من أصدقائه وأسس شعبة فرنسية للكربوناري. ويقول لوي بلان انه لم يكن لهذه الشعبة غرض معين ، وكل ما تقرر من مبادئها يتلخص فيما يأتي : « وحيث ان القوة ليست حقاً ، وان البوربون استقدموا بواسطة الاجنبي ، فان ابناء الكربوناري (الفحامين) قد اجتمعوا ليردوا الى الامة الفرنسية حقها الحر في اختيار الحكومة التي تلائمها » . ويقرر المسيو جان فيت احد اعضاء الشعبة الفرنسية

عن أصلها ما يأتي : « في سنة ١٨٢١ اجتمع الزعماء الاحد عشر في كابوا ، وقرروا ان يوفدوا الى الخارج عضوين يتفاهمان مع زعماء البرج الاعظم (وهو ما يقابل المشرق الاعظم في البناء الحر) ، وليبحثا ما اذا كان الافضل ان ينقل مركز ادارة الكربوناري . وقد رؤي من المناسب نقله الى باريس لانها اكثر العواصم الاوربية اتصالا بمدن القارة ، هذا فضلا عن انها مقر اعظم أعضاء الجمعية ، وفيها اخصب موارد للمال . وعلى ذلك اعد كل شيء لادماج « البيع القديم » (Alta Vendita) مع البرج الاعظم ، الذي كان يشرف وقتئذ على ادارة الجمعيات السرية في باريس »

وقد عدلت الكربوناري الفرنسية مبادىء الكربوناري الايطالية وقوانينها لتوافق الآراء والمشارب الفرنسية . وقسمت الى اربع دوائر او بيوع . البيوع الخاصة ، والبيوع المركزية ، والبيوع الراقية ، والبيوع العليا ، وبسطت اجراءات القبول ، ووضعت قواعد حصيفة لاتصال المراتب الاربع دون لفت نظر السلطات ، فجعل لكل بيع تتكون من عشرين شخصاً نائباً ، وجعل من عشرين نائباً ينوبون عن عشرين بيع مختلفة بيعاً مركزياً يختار أيضاً نائبه ليتصل بالبيع الراقي ، وهذا يختار له نائباً يتصل بالمرتبة الاخيرة أي البيع الاعلى ، وبهذه الوسيلة يجهل أعضاء البيوع المختلفة بعضهم بعضاً ، هذا الى أنه حظر على كل « فحام » أن يحاول التعرف بأبناء عمومته ، وحظر التفاهم أو التخاطب بالكتابة ، وجعل بواسطة النواب فقط ، ومن ذلك نرى أن الجمعية كانت وقت الخطر الداهم تستطيع بأيسر أمر أن تقطع كل حلقة للاتصال ، وأن تغدوا أفراداً عاديين لا تربطهم رابطة ، ولا تثقلهم مسئولية . وكان العضو يقسم عند التحاقه بكتمان وجود الجمعية وأسرارها وأعمالها وأن يجهز نفسه ببندقية وخمسة وعشرين طلقة . وكان رسم الالتحاق خمسة فرنكات وعلى العضو أن يدفع فرنكا في كل شهر

والى جانب الكربوناري المدنية أنشئت شعبة عسكرية في الجيش وقسمت الى مراتب (بيوع) مختلفة أيضاً ، غير أنها لم تكن تظهر اوقات السكينة العامة أو بالحري كانت تدمج في الشعبة المدنية . اما في اوقات الاضطراب والتمهيد للثورة فكانت تثب الى الطليعة وتقود الحركة وتقوم بالادوار الهامة

ولم تلبث الكربوناري الفرنسية أن غدت قوة عظيمة اذ شد أزرها أقطاب الحزب الحر مثل لافاييت ، ودي كورسيل ، وجاك كشلان وهم من النواب ودي شوان المستشار في البلاط الملكي ، وجماعة من أعلام المحامين وغيرهم . وانتخب لافاييت

رئيساً لها . وعهد الى الاعضاء الفتيان ببث دعوة الجمعية في جميع الانحاء الفرنسية ، فلم تلبث أن استفحلت وتكاثر الاعضاء حتى بلغوا زهاء اربعين الفاً . ولما حان وقت العمل ، عملت الكربوناري بمهارة وعزم حتى قال مؤرخ ان تاريخ الجمعيات السرية هو تاريخ فرنسا في هذا العصر . وقال جان راينو : « ربما لم تكن الكربوناري حركة سياسية كبيرة ، غير أنها كانت على الاقل عرضاً سياسياً كبيراً ، ومن هذه الوجهة تستحق البحث والدرس . وهي ان لم تكن قد فازت بتحرير فرنسا من النير الذي فرضه الاجنبي عليها ، فقد ساعدت على الاقل في اظهار تعلق الشعب الفرنسي بمبادىء الثورة »

على أن الكربوناري الفرنسية لم تكن كما رأينا تعتنق مبادىء محدودة وغايات معينة ، وكانت هذه الغايات والمبادىء تنحصر عند معظم اليسوع في اعادة حقوق الامة اليها وفي المطالبة بانشاء جمعية دستورية . وكانت أول وثبة عملية قامت بها في سنة ١٨٢١ ولكنها أخفقت لتردد لافاييت . ثم دبرت عدة مؤامرات واضطرابات فشلت كلها وانتهت بمصرع نفر من اعضائها يقول لوي بلان: «ثم أضحت الكربوناري من بعد ذلك تجرر أذيالها فوق دماء شهدائها »

٤ ـ أما الكربوناري الايطالية فلبثت حيناً تجثم في الخفاء ، ثم عادت الى نشاطها ولا سيما في الولايات البابوية فارتاع البابوات لذلك ، ونشط البابا ليون الثاني عشر الى محاربة الجمعيات السرية فأذاع منشوراً أخذ فيه عليها تعرضها لسلطة الامراء وسلطة الكنيسة ، ثم أعقبه بقرار يحظر انشاء الجمعيات السرية ووجودها في رومة والولايات البابوية ، ويفرض الموت عقوبة لكل من ينتمي الى احدى هذه الجمعيات او يؤازرها. على ان المنشور والقرار لم يكفيا لاخماد جذوة الكربوناري ، فسلك البابا طريقاً أخرى للنضال وأنشأ لمحاربة الكربوناري جمعية سرية كاثوليكية هي : « الايمان المقدس » تؤلف من أبناء البلاط وكبار القسس ورئيسها الاعلى هو البابا ، وأعظم دعاتها اليسوعيون ، ولها مثل الكربوناري مراتب ولوائح ورموز . وكانت تزعم أنها تعمل لاستقلال ايطاليا كسباً لعطف البسطاء وستراً لغايتها الحقيقية وهي إعادة النظام الكاثوليكي والاقطاعي . ومبادىء الجمعية وغاياتها واضحة في القسم الذي يفرض تأديته على الملتحق وهو: « أقسم بأني أثبت في الدفاع عن القضية المقدسة التي اعتنقتها ، وألا أبقي على فرد ممن ينتمون الى طائفة الاحرار الشائنة مهما كان مولده أو قرابته أو ثروته ، وألا اشفق ذرة على دموع الاطفال أو الشيوخ ، وان أسفك حتى آخر قطرة

دم الاحرار الاوغاد دون اعتبار للجنس أو السن او المقام . وأقسم أيضاً بالبغضاء الخالدة لكل أعداء ديننا المقدس دين الكثلكة الرومانية الذي هو الدين الحق الوحيد »

وحاولت الكربوناري ان تثير الثورة في نابولي سنة ١٨٢٨ فاخفقت . وفي سنة ١٨٢٩ عقب وفاة ليون الثاني عشر وقبل انتخاب خلفه بيوس الثامن قامت في الولايات البابوية عدة ثورات محلية دبرتها الكربوناري وكان أثر الكربوناري يظهر أينما ظهر علم الاستقلال والحرية . وبعد ذلك بقليل تحالفت الكربوناري مع الجمعيات السرية الاخرى التي أنشأها ماتسيني والتي كان أهمها جمعية ايطاليا الفتاة وعكفت جميعها على العمل لانشاء الوحدة الايطالية . وكان البرنس لويس بونابارت الذي حكم فرنسا بعد باسم نابوليون الثالث من اعضاء الكربوناري ، وقد اشترك في كثير من الحركات الثورية التي قامت في الولايات البابوية لتحطيم النير البابوي . وكذلك كان اللورد بيرون الشاعر الانجليزي

وقد أدت الكربوناري دوراً هاماً في حركة الاحياء والوحدة الايطالية ، وإذا لم تكن قد اشتركت فعلا في سلسلة الحروب والثورات الايطالية التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر وانتهت بتحرير ايطاليا فلا ريب أنها عملت كثيراً للتمهيد اليها . وقد كان من حسناتها أن الفت بين الايطاليين من جميع الطبقات والمقاطعات وعلمتهم أن يعملوا يداً واحدة على سحق الاستبداد والنير الاجنبي

الفصل الثاني

النهليزم والنهليست

Nihilism

(١) أصل النهليزم. ترجنيف والمجتمع الجديد . نزعة النهليزم وغاياتها . ذيوع دعوتها (٢) القيصر ينكث بوعوده . نشاطه في مطاردة النهليست . النهليزم مثل الاشتراكية . أقوال المؤرخ شتبنياك . تطور النهليزم (٣) بدء النضال الثوري . تعريف صوفيا باردين للنهليزم . المعركة الدموية . جرائم القيصرية وانتقاء النهليست . اتحاد الشعب الثورية . مقتل القيصر اسكندر الثاني . انحلال النهليست واشتداد المطاردة . حوادث الانتقاء الاخيرة . عود النهليست الى العمل . أثر النهليزم في تحريك الدعوة الشيوعية

١ـ لعل أصح ما توصف به النهليزم أنها طور من اطوار الحركة الثورية في روسيا بيد انها بدأت دعوة سلمية ولم تكن اكثر من نزعة الى الاصلاح والتجدد ملكت عقول الشبيبة الروسية ، ثم استحالت بعد ذلك الى نزعة ثورية ، وانتهت الى الانتظام إلى طائفة ثورية سرية تعمل لتحقيق غاياتها بالوسائل الثورية المعتادة أي بالعنف والنضال الدموي ، ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتبر النهليست جمعية سرية بالمعنى الذي نطلقه على الشعلة الباقارية أو الكربوناري

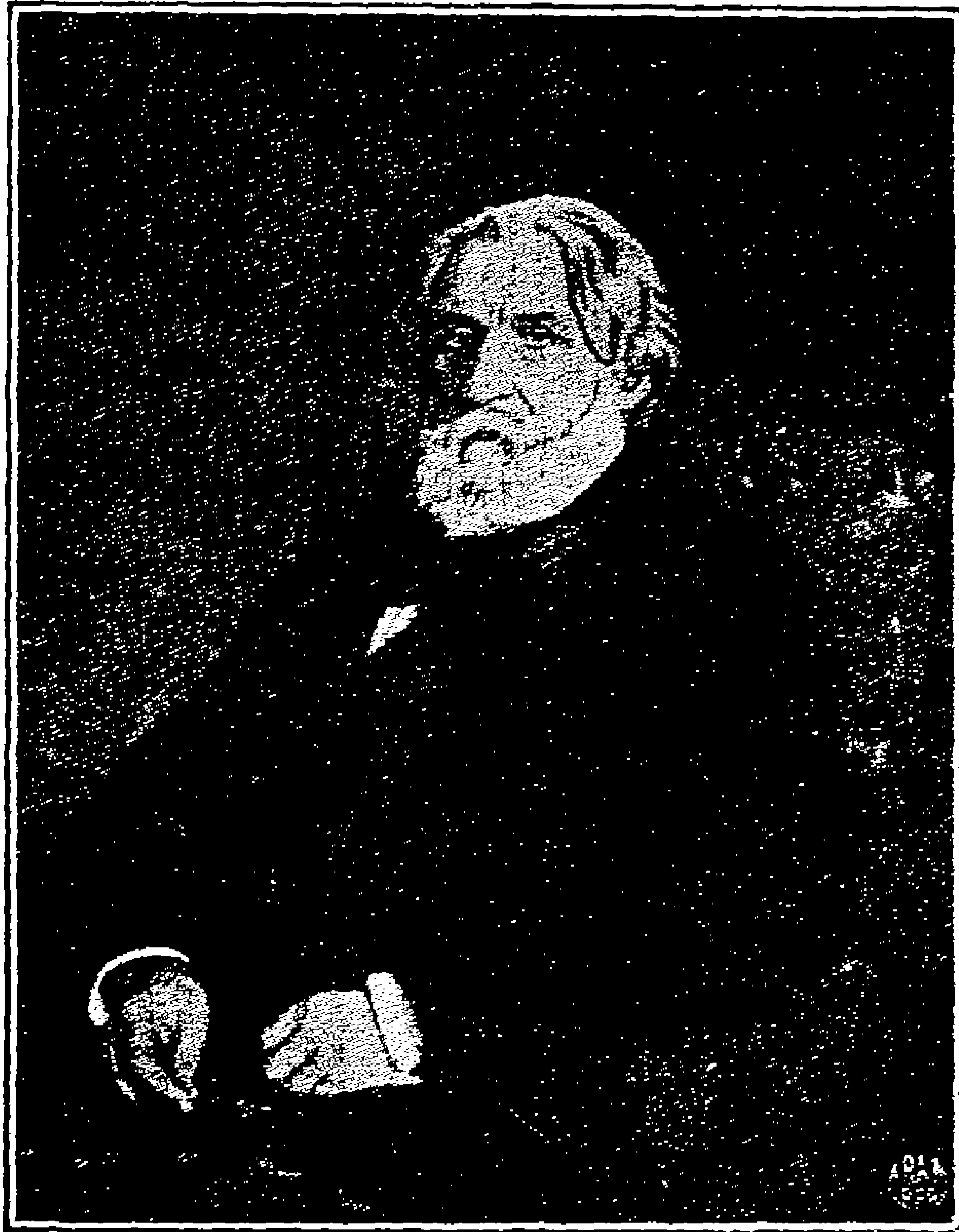
وأصل الكلمة يرجع إلى أوائل عهد اسكندر الثاني ، وكان أول من استعملها الروائي الروسي ترجنيف في قصته المعروفة « الآباء والابناء » التي ظهرت سنة ١٨٦٢ . ففيها يصف ترجنيف طرازاً جديداً من الشبيبة لاحظ أنه يخرج على العرف والمعتقدات العامة ، ويسخر من جميع التقاليد الاجتماعية ، ويتحدث عن قلب المجتمع وتنظيمه على أساليب علمية محضة ، ويغير مظاهر الحياة العامة حتى في أتفه الشؤون فيطلق الفتيان شعورهم ويقص الفتيات شعورهن . وهذا الفريق من الشبيبة لا يعبأ بما تثيره آراؤه وتصرفاته في عامة الناس من الدهشة والسخط لأنه يعتبر نفسه فوق الرأي العام ، ويسخر من كل ما هو معتبر ومقبول لدى العامة ، ويزدري كل ضروب الثقافة والشعور والرقي المعروفة ، ويؤثر النظريات المادية المحضة ، وهو الفريق الذي عناه ترجنيف في قصته بالنهليست او « العنصر المعدوم » . على انه لا ريب في ان هذا الفريق الذي لم ينل عطف ترجنيف لم يكن سوى نذير حركة تجديد عقلي هامة اجتاحت كل الطبقات الروسية المستنيرة ، وبدأت عهداً جديداً في تاريخ روسيا الحديث

وكانت النزعة الغالبة في هذه الحركة الجديدة ترى في النظم القديمة كالدين ، وحياة الاسرة ، والملكية الشخصية ، والادارة المركزية ، عقبات في سبيل النهوض والتقدم ، وترمي الى محوها واستبدالها بالعلوم والحب الحر ، والملكية العامة ، والحكم الديموقراطي . وكانت الدعوة الى مثل هذه النظريات المتطرفة في حكومة طاغية كحكومة القيصر لا تذاع إلا بواسطة الآداب المستورة ، والنقد المعنوي ، وخاصة بواسطة القصص التي كان يكتبها اعلام هذا العصر ممن تفاءلوا خيراً بالحركة الجديدة ، ومن أعظم هذه القصص وأبلغها أثراً في النزعة الجديدة قصة تشرنشفسكي التي كتبها في السجن وعنوانها « ماذا يجب أن نفعل ؟ »

ذاعت النظريات والآراء الجديدة بسرعة مدهشة وخصوصاً بين جميع الطبقات المتنورة كالنبلاء والموظفين ورجال الجيش وأبناء التجار وأبناء الكهنة . وكان القيصر الجديد منذ ارتقاء العرش يعد باجراء كثير من الاصلاحات المنشودة ، واستفادت الحركة الجديدة كثيراً من تسامحه في إخماد الدعوات والآراء الحرة ، وازدهر في عهده طائفة من أعلام الكتاب الاحرار مثل تشرنشفسكي ، ودبروليوبوف ، ولافروف وكروبتكين وغيرهم وخاضوا المعركة جميعاً بأقلامهم وألسنتهم . وكان أخص ما يميز الدعوة الجديدة على قول شتبنياك هو « إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً يستند إلى الحرية الفردية ، وقد كانت النهليزم ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسي ، ولكن على الطغيان المعنوي الذي يرهق حياة الفرد الخاصة » . وسددت السهام الاولى نحو الدين الذي اخذ الروس المتنورون يتحررون من فروضه وتقاليده ، ثم سددت بعد ذلك الى نظام الاسرة حيث أخذت المرأة الروسية تتحرر من رقها القديم لتغدو قرينة الرجل ، مساوية له في معظم الحقوق الاجتماعية

٢ ـ ولم تأت سنة ١٨٧٠ حتى كانت النهليزم قد جازت مرحلتها الاولى ، وخرجت من طور الكلام والدعوة الى طور العمل . ذلك ان اسكندر الثاني لم يحقق كل وعوده في الاصلاح ، ولم يفض ما حققه منها إلى تخفيف الويل الذي كانت ريحه تهب على جميع الطبقات ، ولم يخرج الفلاحون من غمار الرق إلا ليقعوا بين براثن المولين والمرابين ، هذا إلى أن القيصر نفسه ارتاع لتقدم الحركة الثورية فوقف سير الاصلاح الحر فجأة ، وارتد إلى النضال ونشطت شرطة البلاط الى القمع والمطاردة . وكانت الثورة البولونية التي قامت في سنة ١٨٦٤ أول نذير بالشقاق والخصومة التي اخذ يذكو أوارها ، فاخذت النهليزم تشق لنفسها سبلا أخرى . وكانت الحركة

الاشتراكية التي انتهت بقيام « الكومون » في باريس قد تسربت آثارها إلى معظم المجتمعات الاوربية وغدت الاماني الاشتراكية الاجتماعية كتحرير العمال، وانقاذ الطبقات العامة مما تعانيه من البأساء والحرمان على يد الطبقات الخاصة المنعمة التي تستغل كدها وتستثمر عملها، ومحو الفوارق الاجتماعية التي تجعل من سواد المجتمع



ترجنييف

رقيقاً مضطهداً وأمثالها، قبلة لكل الدعوات الاشتراكية والثورية. يقول شتبنياك في كتابه « روسيا الدفينة »، « هذان هما المرحلتان اللتان عثلت فيهما الحركة العقلية الروسية، وقد لبثت إحداهما عشرة أعوام من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٧٠. وبدأت الاخرى من سنة ١٨٧١. فأي فرق بينهما؟ كانت النهليزم تبحث عن سعادتها الخاصة بأي الأثمان، وتجعل منها مثلاً معقولاً حقيقياً للحياة. اما الثائر فيبحث عن

سعادة غيره ، ويريدها بأي الأثمان ، ويضحي من اجلها سعادته الخاصة ، ومثله الاعلى هي حياة فيضها العناء ، وموت شهيد . ومع ذلك فقد شاء القدر ألا يترك الاولون الذين غلوا في بذهم الخاص ذكراً في اوربا ، في حين ان الآخرين قد نُصّروا باسم اولئك الاسلاف المجهولين بعد أن غنموا اسماً قرينه الرعب والروع »

خرجت النهلزم اذن الى طور الدعوة الثورية واندس دعاتها وسوادهم من ابناء الاشراف والبورجوازي الى جميع انحاء روسيا،واخذوا يبثون دعوتهم بين الفلاحين والعمال بواسطة النشرات والخطب والاجتماعات والمحادثات . ونشط المنفيون من الدعاة الى العمل في الخارج وخصوصاً في سويسرا التي كانت مهبط الطلبة الروس من فتية وفتيات . وكان اولئك الطلبة الذين تخرجوا في الاجواء الحرة يعودون الى بلادهم يضطرمون بالنظريات والتعاليم الحديثة ، وينشطون الى بثها بين مواطنيهم . يقول شتبنياك ، « كانت هذه رسالة اكثر منها دعوة ، كان ثمة ما يشبه صرخة لا ندري من اين أتت تدعو كل روح حي الى افتداء الوطن وافتداء الجنس البشري ، وكانت الارواح لدى هذه الصرخة تنهض متعثرة باذيال عار الحياة الماضية وآلامها » . ثم يقول:«ولكن هذه النزعة النبيلة ما لبثت أن تكسرت على صخرة الحقيقة ، ذلك ان الدعاة استطاعوا ان يحشدوا جيشاً أعزل من انصار النظريات الجديدة ، ولكنهم رأوا انهم انما يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد ، ولا سبيل لهم أن يحركوا كتلة الشعب التي ترزح في أغلال الرق والذلة ، سيما وقد ضوعفت اجراءات القمع ، ومالت الحكومة بالمطاردة والاضطهاد على اولئك الرجال والنساء والفتية الذين يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية » . وهنا تحرك المضطهدون ليأخذوا بالثأر ، « وانقلبت الاحمال ذئاباً » على قول أحد الكتاب ، وبدأ عهد القتل السياسي الذي اقترن باسم النهلزم

٣ ـ وكان اول مظهر عنيف للخصومة بين القيصرية والنهلزم هو اقدام القيصرية في سنة ١٨٧٧ على القبض على خمسين شخصاً من انصار النهلزم ومحاكمتهم في موسكو بتهمة التآمر . وكان بينهم كثير من الطلبة الذين تخرجوا في سويسرا، ومن هؤلاء صوفيا باردين التي عرفت مثل النهلزم امام قضاتها فيما يلي : « ان الجماعة التي انتمي اليها هي جماعة الدعاة السلميين . ان غايتنا هي أن نبعث الى نفس الشعب مثل نظام أفضل واقرب للعدالة ، او بالحري ان نوقظ المثل الغامض الذي يجثم في نفسه ، وان نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود في المستقبل الى الوقوع في نفس الاخطاء ،

ولـكن متى تدق ساعة هذا المستقبل الحميد ؟ هذا ما نجهله ، وليس علينا نحن ان نعين هذه الساعة »

ولما رأت الحكومة ما يهددها من أخطار الدعوات الحرة التي تقتصر على المطالبة بالاصلاحات الدستورية ، والدعوات الثورية التي ترمي الى تحقيق مثلها بالعنف جنحت الى مقاومة الاثنين معاً ، فجدت في مطاردة الاحرار والثوريين ، وقابلها اولئك بالارهاب الثوري والاغتيال المنظم . وبدأت بين الفريقين معركة هائلة ، فامعنت الحكومة من ناحيتها في القبض على النهليست وسجنهم ، وتشريدهم ، ونفيهم الى سيبيريا ، وشنق كثيرين منهم دون محاكمة ، وأمعن النهليست من ناحيتهم في اغتيال رجال الشرطة والقضاء والنيابة ومن اليهم من مطارديهم . ولما تفاقم الصراع ، واشتدت وطأة القيصرية على الاحرار والثوار اعتزم النهليست ان يستأصلوا الشر من جذوره بقتل اسكندر الثاني مضطهد كل دعوة حرة ، وخصيم كل نصير للاصلاح والتجدد . ففي اوائل سنة ١٨٧٨ قبض على مائة وثلاثة وتسعين من النهليست وقدموا الى المحاكمة في بطرسبرج (لتنجراد) ، فهلك في بدء المحاكمة من المتهمين ثلاثة وتسعون بالانتحار ، والتعذيب ، وقتل النهليست اثنى عشر جاسوساً وجلد الشرطة طالباً متهماً يسمى بوجولوبوف لانه لم يحي الجنرال تريبوف مدير الشرطة ، وأطلقت فتاة تدعى فيرا زاسولتش النار على تريبوف فجرحته جرحاً خطيراً (فبراير سنة ١٨٧٨) ، وقدمت الى المحاكمة فبرئت ، وحملت على الاعناق بين الضجيج والهتاف ، ثم فرت خوفاً من المطاردة والانتقام . وفي اغسطس سنة ١٨٧٨ اعدم الاشترا كي كرفالسكي بالرصاص في اودسا ، فلم تمض بضعة ايام حتى انتقم الثوار له بقتل رئيس الشرطة مزنتزيف . وفي فبراير سنة ١٨٧٩ قتلوا في خاركوف حاكم المقاطعة البرنس الـكسيس كروبتكين ، وفي ابريل حاولوا قتل مدير الشرطة الجديد درنتلين . وفي مايو شنقت الشرطة فاليريان اوسنسكي أحد اقطاب حزب الثورة واثنين من رفاقه في كيف

لبثت هذه الحوادث الدموية بضعة أعوام تضج لها روسيا ، ويضج العالم . وفي ٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية اعدام القيصر اسكندر الثاني . وهنا اتحدت شعب الحزب الثوري بعد التفرق ، وانتظمت بعد الاختلال ، وعقد مؤتمر عام في زجيرس . ونظم النهليست شعباً متحركة للنضال لكي تستطيع مغالبة الشرطة ومجانبة مطارداتها ، يتألف سوادها من الفدائيين الذين وهبوا حياتهم للثورة . ومع ذلك فقد أخفقت عدة مشاريع لقتل القيصر ، حدث في اولها ان اللغم الذي وضع

تحت القطار الذي يسافر فيه القيصر لم ينفجر ، وحدث في ثانيها ان القنابل انفجرت ولكن القيصر لم يكن في القطار الذي أصابته القنابل (ديسمبر سنة ١٨٧٩) ، وحدث في الثالث ان القيصر لم يكن بالمصادفة في قاعة الطعام الشتوية التي نسفها خولوترين (فبراير سنة ١٨٨٠) . وكانت مدبرة المشاريع الاولى امرأة تدعى صوفيا بيروفسكايا بمساعدة زميلين هما تيرايف وهارتمان . وفي اول مارس سنة ١٨٨١ وقع القضاء وجرح اسكندر الثاني جرحاً ذهب بحياته من شظايا قنابل القاها عليه ريساكوف وجرمفتسكي على ضفة ترعة سانت كاترين . فقبض على ملقي القنبلة وعلى اربعة آخرين من النهليست ومنهم بيروفسكايا وشنقوا بعد ذلك بايام قليلة . ثم شنق من النهليست عشرة آخرون في سنة ١٨٨٢

وعلى أثر مقتل اسكندر الثاني وجهت اللجنة التنفيذية منشوراً الى خلفه القيصر الجديد ، اقترحت عليه فيه المهادنة . وكانت الجماعة الثورية قد اضمحلت كثيراً من جراء النضال والمطاردة ، وهلك صفوة النهليست ، وشرد المرهبون والمتآمرون ، ولم تجن الحركة الثورية شيئاً من وراء الاغتيالات الفردية ، وضاعفت الشرطة الرقابة والتجسس ، واستطاعت أن تدس بعض رجالها الى صميم الشعب الثورية . ومن ثم قلت حوادث القتل المنظم . وكان أهم هذه الحوادث بعد مقتل اسكندر الثاني ، مقتل سترلنكوف النائب العام لمحكمة كييف العسكرية في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، ومقتل رئيس الشرطة سوندكين في ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، وحدث اعتداءان على حياة القيصر اسكندر الثالث ، أحدهما في مارس سنة ١٨٨٧ ، والآخر في اكتوبر سنة ١٨٨٩ حيث حاول النهليست أن ينسفوا القطار الذي يقل الاسرة القيصرية كلها في بوركي (القوقاز) . ثم هبطت الحركة تدريجياً وركدت ريح النهلزم ، بعدما صادفت من خيبة ، وما لقيت من اصرار القيصرية على مطاردتها وسحقها بيد من حديد ، وبعد ان هلكت زهرة دعاتها وأنصارها

ثم استعادت النهلزم شيئاً من نشاطها في أوائل هذا القرن ، ففي سنة ١٩٠١ حدث شغب في الجامعات الروسية وفي سنة ١٩٠٢ حدثت اضطرابات خطيرة بين الفلاحين في كثير من الانحاء ، ثم قتل على أثر ذلك وزير الداخلية سيباجين . على ان المثل التي اعتنقتها الشبيبة الروسية في عهد اسكندر الثاني تحطمت كلها على صخور الحقائق المادية . وفي اوائل عهد القيصر نيقولا الثاني اضطرمت الحركة الثورية من

جديد غير انهـا أخذت تهبط امام الاصلاحات الدستورية التي انتهت باقامة النظم البرلمانية في روسيا

على ان النهلزم اذا كانت قد أخفقت في اغراضها الثورية فقد مهدت السبيل الى وثوب دعوة ثورية جديدة كانت تجثم في الخفاء في صدور دعاة يعملون لبثها في خفاء وسكينة ، دعوة ذات مثل شاملة شاسعة ، لا تقف عند تغيير نظام او حكومة ، بل ترمي الى سحق النظم القديمة من الاساس

هذه الدعوة هي الشيوعية التي سنعنى بها في فصل قادم

الفصل الثالث

التوجندبند

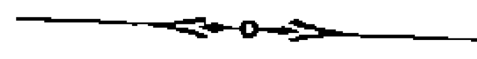
Der Tugendbund

لم تخمد الشعلة البافارية بمطاردة المختار لها وتمزيقها في بلاده ، على انها لم تلتئم على نحوها القديم ، بل كانت مبعثاً لطائفة من الجمعيات السرية الاخرى. ففي سنة ۱۷۹۰ وثبت من مهد الشعلة جمعية سرية وطنية قوامها الشباب والطلبة تعرف بالتوجندبند او مجمع الفضيلة . وكانت تقصد قبل كل شيء الى التأثير في نظم المانيا السياسية والى توجيه سياسة الملوك والوزراء . وقد ظهر نشاطها واضحاً في عهد الحروب النابوليونية التي مزقت الامارات الالمانية وحطمت عظمة بروسيا . ففي سنة ۱۸۰۷ عقدت جمعية عامة من اعضاء التوجندبند في كينجزبرج ، فاقترح نفر من أقطابها ومنهم البارون شتاين ، والكونت شتاديون والجنرال بليخر ان تعدل غايات الجمعية وان تعنى قبل كل شيء بانهاض نشاط الشعب وشجاعته لكي يتابع النضال ، واغاثة سكان المقاطعات التي عسف بها الغزو الفرنسي . فصادقت الجمعية على هذا الاقتراح ، وعقد على أثر ذلك بين التوجندبند وبين الوزارة الالمانية التي كانت تعرف مقدار نفوذ الجمعية وتوغلها بين شباب البلاد اتفاق سري لم يلبث ان انتهى بتحطيم المشروعات النابوليونية ، وعهد الى لجنة من ستة اعضاء مركزها كينجزبرج ان تدير اعمال الجمعية ، والفت في المقاطعات لجان محلية تعمل تحت اشراف اللجنة الرئيسية وهذه اللجان بدورها تشرف على اعمال القاعات او الدوائر ، وتتحرى في سياستها وتعاليمها ان تثير حماسة الشعب ، وان تعمل على تشجيعه ومساعدته العقلية والمادية بجميع الوسائل . وكان يقبل في سلكها كل عضو يمكن ان يعمل على تحقيق هذه الغايات مهما كان مركزه وظروفه ، ولا يقصى عنها سوى القصر وذوي الخلال الفاسدة . ولم تلبث التوجندبند ان غدت قوة هائلة تنفذ الى جميع اركان المانيا ، وتعمل بجميع الوسائل على بث روح وثبة عامة تقصد الى تحرير المانيا من نير المغير ، والى صون كرامتها من عبث المعتدي . وقد ارتاع نابوليون لنشاط هذه الجمعية وعظم تأثيرها في عقلية الشعب الالماني وفي تحريكه وتحريضه ، فطلب الى الحكومة البروسية ان تضع حداً لمساعيها الخفية ،

وتظاهرت الحكومة البروسية باجابة مطلبه فاتخذت بعض اجراءات لحل الجمعية وتشريد نفر من أقطابها ، ولكن معظمهم بقي على رأس الجمعية يدير أعمالها وجهودها. وفي سنة ١٨١٠ أرغم البوليس الحربي الفرنسي الحكومة البروسية على القبض على نفر من زعمائها، وضبط أوراقهم . وحينئذ ركد نشاط التوجندبند حيناً غير انها استأنفت نشاطها في أواخر سنة ١٨١٢ ، واشتدت دعوتها ، وتقدم لتأييدها نفر من كبار القواد والساسة ، وبلغ من نفوذها ان كانت تفاوض الامراء المحالفين لبروسيا ، وتتعهد أن تضع رهن تصرفهم خدمات كل أعضائها وموارده اذا منحوا شعوبهم نظماً ديموقراطية حرة . وقد برت بوعودها في ذلك وساعدت كثيراً من أولئك الامراء على تحرير بلادهم ، ولكن الامراء لم يفوا بعهودهم في تشكيل الحكومات والنظم الحرة . وفي أواخر سنة ١٨١٣ اخذت التوجندبند في الانحلال بعد انتصار المانيا في الحرب التحريرية الاولى ، والتحق معظم أعضائها بجمعيات سرية أخرى كانت تعمل على حلها السلطات تباعاً

وكان لدعوة التوجندبند أثر عظيم في سياسة بروسيا لهذا العهد ، وفي التشريع البروسي الذي تلا وثبة بروسيا وتحريرها ولا سيما في تنظيم الجيش البروسي واصلاحه

الكتاب الخامس



حركات الهدم الظاهرة

تمهيد

ننتقل الآن من عالم الخفاء الى عالم الوضوح ، ومن عالم السر الى عالم الجهر. أن المبادىء والمشاريع الهدامة التي رأيناها قبلة الهيئات الخفية والجمعيات السرية على اختلاف نحلها ومذاهبها ، والتي ابثت هذه الهيئات والجمعيات تبثها من وراء حجاب على كر العصور في مختلف المجتمعات قد وثبت من مهادها الخفية ، وبرزت من غمار الظلمات الى عالم الوضوح ، واتخذت صبغات وأوضاعاً جديدة تناسب روح العصر الحديث وظروفه ، واستحال الكثير منها الى مذاهب اقتصادية واجتماعية أضحت من أعقد مسائل العصر . ألم تر فيما مر بك مثلا ان الغايات التي تسمى الاشتراكية والشيوعية واللاحكومية اليوم الى تحقيقها قد أدمجت في مبادىء معظم الجمعيات السرية، واختلطت بالغايات التي قصدتها معظم الحركات الثورية ؟ أليست الثورة العالمية وما تقصد اليه من سحق المجتمع الحاضر، وابادة نظمه ومدنيته وتقاليده ، ذروة الغايات والمثل السرية الهدامة ؟ ألم تعمل الجمعيات السرية ، والفرق الثورية الاسلامية منذ عبد الله بن ميمون الى الحسن الصباح ومنذ القرامطة الى الاسماعيلية على هدم كل التعاليم الدينية اسلامية او غيرها من الاساس ، وهدم كل النظم الاجتماعية والتقاليد الاخلاقية ؟ ثم ألم تعمل الجمعيات السرية الغربية منذ فرسان المعبد ، الى الشعلة البافارية والبناء الحر ، على هدم جميع الاديان والمعتقدات الدينية ، وهدم جميع النظم الاجتماعية القائمة ؟ وأخيراً ألم يكن مجتمعاً حراً تزال فيه معظم الفوارق المادية والاجتماعية ، وتسوده أوسع ضروب المساواة والحرية والاخاء ، ويسحق فيه الايثار ، هو المثل الاعلى للبرامج الانشائية التي نادت بها معظم الجمعيات والطوائف السرية وأصحاب المذاهب والدعوات الحرة ورسل التحرير العقلي والاجتماعي ؟ هذه المبادىء الهدامة هي اليوم دين طائفة من الحركات العلنية الظاهرة ، وهذه الغايات هي مطلبها وقبلتها ، وذاك هو مثلها الاعلى

فالشيوعية ، والاشتراكية الثورية ، واللاحكومية ، دعوات هدم ظاهرة ، تعمل كثيراً في العلانية وان كانت لا تغفل الوسائل السرية مع ذلك ، ولا يخفي دعاتها وأنصارهم براجهم وغاياتهم الهادمة ، بل يعلنونها في كل وقت بالقول والكتابة ، ويعملون على تنفيذها بجميع الوسائل المستورة والظاهرة ، من الحملات القلمية الى الثورات الدموية

هذا التطور في تاريخ الدعوات الهادمة والثورية من الخفاء الى الجهر يرجع الى تطور في عقليات الشعوب التي كانت وما زالت مهاداً لبث هـذه الدعوات ، والى انقلاب في النظم الحكومية واصطباغها بألوان من التسامح الديني والفكري كانت ثمرة للثورات السياسـية والفورات التحريرية العـديدة التي حطمت نظم الاقطاع ، ودكت عروش الحكومة الاتوقراطية في معظم البـلاد ، وكذلك الى الانقلابات الاجتماعية والاقتصادية التي هبت ريحها على المجتمعات الغربية منذ أوائل القرن الاخير

لذلك كان حقاً على مؤرخ الجمعيات السرية والحركات الثورية الهدامة أن يعني بشرح حركات الهدم العلنية هذه خصوصاً وقد أضحت في يومنا أهم المعضلات الاجتماعية، وغدت عاملا بعيد الأثر في سير الشئون العالمية وفي توجيه مصائر الشعوب والدول . هذا الى أننا نرحب بسنوح هذه الفرصة للـكتابة عن طائفة من الموضوعات التي قلما ألقيت الى العالم العربي بصورة صحيحة ، وأن نلقي بعض الضياء على مبادىء ومذاهب ما زال سواد المفكرين في مصر وغيرها من البلاد العربية يذهب في تعريفها وتأويلها أغرب المذاهب وأبعدها عن الحقيقة . ولما كنا نكتب عن هذه الموضوعات للحقيقة والتاريخ فحسب فانا نؤثر أن نبتعد عنها بالتعليق والنقد وأن نكتفي بالتحليل والعرض تاركين الحكم على خيرها وشرها للقارىء

الفصل الاول

الاشتراكية

Le Socialisme

(١) الاشتراكية حركة علمية تستند الى التطور البشري . النظرية الاشتراكيه في قيام الدولة. النضال بين الملكية والرأسمالية . تعريف الاشتراكية . الغايات الاشتراكية (٢) تحليل النظرية الاشتراكية . عناصر رأس المال . العمل قوة اجتماعية . غايات الرأسمالية ووسائلها . العامل سلعة. الرأسمالية تقبض على جميع القوى (٣) اشتراكية المصلحين وجهودهم في الاصلاح . منح ديموقراطية (٤) انحلال الرأسمالية . برنامج الاشتراكية الثورية (٥) الغاء الملكية الفردية غاية جوهرية للاشتراكية . مدى هذا الالغاء . الوراثة في ظل الاشتراكية (٦) الوسائل الاشتراكية . التطور والثورة. النظرية المركسية . الفرق بين الشيوعية واللاحكومية

١ ـ الاشتراكية الحديثة [1] حركة علمية بنيت على التطور التاريخي للماضي والظروف الاقتصادية للحاضر ، فهي ليست مثلا من مثل الخيال العليا وان كانت قد بدأت كذلك . وقد بدأ الخيال الاشتراكي يجول بذهن الانسان منذ قرون طويلة ، ففي جمهورية افلاطون مثلا نجد لمحة من مثل الاشتراكية الخيالية ، ونجدها أيضاً في نظريات كثير من الفلاسفة المتقدمين . ولكن الاشتراكية الحديثة ترجع مشاريعها الهدامة وبرامجها الانشائية الى أسس اقتصادية واجتماعية ، وتدرس تطورات المجتمع بالاستناد الى وقائع التاريخ وحقائق الاقتصاد . فترى في الجدل الاشتراكي كيف بدأ المجتمع في غمار التوحش ثم تطور الى الهمجية ، ثم استحال الى الرق ، فانتقل الى الاقطاع ، واستقر اليوم في ظل النظم الرأسمالية ، وترى فيه كيف نشأت الملكية الشخصية فوق أنقاض الشيوعية ، ونشأت بذلك علائق جديدة بين الافراد ، وقامت نظم جديدة او بعبارة أخرى كيف أفضت الظروف الاقتصادية الجديدة الى نظم اجتماعية جديدة

تقول النظرية الاشتراكية ان قيام الملكية الشخصية أفضى الى تضارب حاد بين مصالح الافراد ، بين الغني والفقير ، بين القوي بثروته والضعيف بحرمانه ، وان

(١) أعتقد أن التعبير بالاشتراكية والشيوعية لا يؤدي المعنى المقصود ، وان هذه الترجمة العربية لمقابلها بالافرنجية لفظية خاطئة ، ولكن العبارات المستحدثة قد غلت بكل أسف ذائعة جداً ومن المجازفة أن يعدل عنها الى غيرها من التعبيرات التي لم يألفها السماع

هذا النضال بين الافراد قد استحال الى نضال بين الطوائف ، وان الطبقة المالكة احتفاظاً بثروتها ومصالحها لجأت الى قوتها الاقتصادية في وضع نظم اجتماعية تلائمها ، وجعلت الملكية الشخصية أساساً للسلطة السياسية ، ومن ثم استأثرت الطبقة المالكة بالحكم والتشريع ، وحشدت القوات المسلحة لفرض ارادتها على المجتمع ، وهذا هو أصل الدولة السياسية . وهكذا أنشىء النظام الاجتماعي لصالح الطبقة الحاكمة ، وغدت الدولة سلاحاً في يدها تؤيد به سيادتها الاقتصادية ، وتفرض ارادتها على الطبقات المحكومة المسترقة ، ومن ثم كانت مهمة الحكومة منذ قيام الملكية الفردية والدولة هي أن تسير المجتمع لصالح الملكية ، لا ان تنظمه لصالح البشر كافة

لبثت الملكية ومن ورائها الارستوقراطية وملاك الارض يستعملون الدولة آلة لتأييد سيادتهم ونظمهم بارهاق القوى المنتجة ، وطبقة اصحاب الاموال التي أخذت تنمو على كر العصور وتناوىء سلطات الملكية والارستوقراطية وتقبض على زمام القوى الاقتصادية ، فلما اشتد ساعد الرأسمالية مالت على الملكية المضمحلة فحطمتها وأبادت نظم الاقطاع ، ومزقت الطبقات الممتازة ، واستولت على مقاليد الامور واستأثرت كسابقتها بالسلطان السياسي والسيادة الاقتصادية ، واستخدمت قوى الدولة لفرض ارادتها على الطبقات العاملة

هذا النظام ، وهو النظام الحاضر نظام الايثار وتحكم الطبقات ، ونعيم الاقلية الغنية ، وبأساء الاغلبية المحرومة هو الذي تقصده الاشتراكية بالهدم والمحو

ترمي الثورة الاجتماعية التي تعمل لاضرامها الاشتراكية الى محو الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وثرواته ، أو بعبارة أخرى تقصد الى هدم حكم الطبقات الذي تستخدمه طبقة الممولين وسيلة لاستعباد الكافة

وقد عرفت الاشتراكية في بعض مؤتمراتها الرسمية بما يأتي : « هي الاتفاق والعمل الدولي بين العمال ، وتنظيم الكتلة العاملة سياسياً واقتصادياً الى حزب طائفي لانتزاع السلطة ، وتوحيد وسائل الانتاج والمقايضة (جعلها عامة مشتركة) أو بعبارة اخرى تحويل المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي أو شيوعي »

ولما كان الجدل حول تعريف الاشتراكية وتحديد غاياتها كثيراً لا سبيل الى استقصائه في هذا المقام الضيق فانا نكتفي بايراد النظريات والغايات الاشتراكية على سبيل التعميم لا التخصيص

ترمي جميع المذاهب والمدارس الاشتراكية على اختلاف نزعاتها ووسائلها الى تحقيق ما يأتي :

(١) المساواة الاقتصادية بين جميع الافراد بلا تمييز في القومية أو الجنس أو السن . ويقولون ان ألوان الحرية التي منحتها كثير من الدساتير الحالية كلها ألفاظ خيالية لأنها لم تقرن بالمساواة الاقتصادية وهـذا هو شأنها في سويسرا وفرنسا والولايات المتحدة

(٢) سحق استغلال الفرد أو الجماعة أو الدولة للفرد. ولا تتحقق حرية أو مساواة دون نفاذ ذلك الشرط لان العامل المأجور في مجتمع أساسه « نظام الاجور » يبقى ابداً تحت رحمة مخدومه سواء كان الفرد أو الجماعة أو الدولة ومهما قلت ساعات العمل وزيدت أنصبة الربح

(٣) توحيد ملكية الارض (الغاء الملكية الفردية) بما عليها وما فيها من كنوز وأرزاق ويدخل في ذلك الابنيـة العامة والمصانع وآلات الانتـاج لان الاستعباد السياسي والاخلاقي والفكري الذي ساد الشعوب في العهد الاخير أساسه نظام الملكية الفردية

(٤) استبدال الدولة العسكرية الحاضرة باتحاد من المجتمعات الحرة او بمجتمع كالذي وصفه سان سيمون بما يأتي : « كرتنا الارضية تنمو فيها بذور اتحاد حر من الجماعات البشرية »

(٥) منح الحق لكل انسان ، بلا تمييز في القومية او الجنس او السن ، ان يستخدم كل وسائل الانتاج علمية كانت أو فنية ، وأن ينتفع بجميع الانظمة الاجتماعية ، وأن يشترك في جميع أعمال المجتمع

(٦) التعليم الحر العام ، وعول المجتمع للضعيف والمريض والشيخ

هذه هي القواعد والغايات الاساسية للمبادىء الاشتراكية التي يصر على تحقيقها كل من يعتنق هذه المبادىء على خلاف في وسائل تحققها ، ومدى تطبيقها كما سنرى

٢ ـ واليك تحليل النظرية الاشتراكية من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية طبقاً لما يقرره أئمتها وصفوة دعاتها

يقولون ان عملية الانتاج لا تقتصر على عمل الانسان في الطبيعة بل تقتضي أن يعتمد على غيره من الافراد ، ولا ينتج الافراد الا اذا عملوا معاً ، وتبادلوا نشاطهم بطرق معينة . وهم من أجل الانتاج يتعاملون ويرتبطون ولا تؤثر جهودهم في الطبيعة

أو بالحري لا ينتجون الا بعقد هذه الروابط والعلائق الاجتماعية . ولا ريب في أن الروابط الاجتماعية بين المنتجين والظروف التي يتبادلون فيها نشاطهم ويقتسمون ثمرة جهودهم تختلف باختلاف الوسائل المادية وتطورها وتقدمها

وما المال الا علاقة اجتماعية للانتاج لان وسائل العيش وآلات العمل والمواد الاولية التي يتكون منها رأس المال لم تخلقها وتنميها الا ظروف وعلائق اجتماعية معينة . ثم هي بعد ذلك تستخدم للانتاج من جديد بتأثير ظروف وعلائق اجتماعية جديدة . وهذه الصفة الاجتماعية المعينة هي التي تطبع الانتاج بطابع رأس المال

وفوق ذلك فان جميع العناصر المنتجة التي يتكون منها رأس المـال ليست الا حاجات تعيش وتنمو بالتبادل والتعاون مع قوة اجتماعية مستقلة أخرى ، هي العمل . وكلا القوتين لا تنتج احداهما دون الاخرى . ولـكن مما لا شك فيه انهما ليستا في درجة واحدة من الجلد والتكافؤ ، اذ العامل يأخذ من صاحب المال بعض وسائل العيش مقابل عمله ، ولـكن صاحب المال يغنم نظير ذلك قوة العامل المنتجة التي لا تقتصر على سد ما يستهلكه بل تسبغ الى جانب ذلك على العمل المتكدس قيمة مضاعفة ، فالفلاح الذي يعمل طول يومه في الحقول نظير بضعة قروش ينتج للمالك أضعاف هذه القيمة ، وبذلك يستهلك المالك أجر العمل بطريقة نافعة مثمرة لأنه استطاع أن يشتري عمل العامل بما يوازي الضعف والاضعاف أحياناً في حين أن العامل يشتري بما ينقده من الاجر الزهيد وسائل للعيش يستهلكها عاجلا ، ولا يستطيع الحصول على غيرها الا اذا قدم عمله الى السيد ثانية . والعامل الذي يشتغل في مصنع للقطن لا يقتصر عمله على انتاج المصنوعات القطنية ولـكنه يخلق المال أيضاً أو بعبارة أخرى يخلق قيما تستلزم عمله من جديد ليخلق مكانها قيما جديدة وهكذا يستطيع المال أن يضاعف نفسه بمبادلة العمل المأجور واستدعائه لمعاونته ، ولا يمكن أن يتقدم العمل الى معاونة رأس المـال الا لمضاعفته او بالحري الى إدعام القوى التي تعمل على تسخيره واستغلاله

ويقول خصوم الاشتراكية ان مصلحة العامل وصاحب المال موحدة مشتركة لان العامل يهلك اذا لم يستخدمه رأس المال ، ويهلك رأس المال اذا لم يؤازره العامل بعمله

ورد الاشتراكيون على ذلك بأن رأس المـال ليس قوة شخصية بل هو قوة اجتماعية لا يمكن استثمارها الا بتسخير أعضاء الهيئة الاجتماعية ، وان الرأسمالية نظام

اجتماعي يقوم على امتلاك وسائل الانتاج التي تستثمر اجتماعياً بواسطة العمل ، وان كانت ملكا للافراد

يقولون ، والرأسمالية لا غاية لها سوى تحصيل الربح ، وليس من غاية للصناعة الكبرى الا أن تنتج سلعاً تجر الغنم ، وهي من أجل ذلك تستخدم الكتلة العاملة التي لا تملك سوى قواها العقلية والجسمية ، فيبيع العامل قوة عمله بثمن معين هو الاجر ، وإذاً فقوة العامل سلعة من السلع ، ولما كان من المستحيل أن تفصل هذه القوة عن شخصه فهو اذاً يبيع نفسه ساعات معينة بثمن معين ، وبذلك تجعل الرأسمالية من الفرد سلعة محضة تباع وتشترى وتخضع ثمنها للقانون العام أي لقانون العرض والطلب . ومن خواص هذه القاعدة انها تتأثر بقانون التنافس الذي يرد قيم الحاجات الى ثمن انتاجها ، فكذلك التنافس بين العمال يرد ثمنهم (أجورهم) الى ذلك المستوى أي المستوى الذي يمكنهم من الحياة المجردة

اذا ما تقرر ذلك ففي وسع العمل أن يرفع من ثمنه بالانسحاب من السوق ، أو بعبارة أخرى بالاضراب

في وسع العمال أن يضربوا وأن يؤسسوا النقابات والاحزاب والجماعات التعاونية ولكن هل يسمح لهم بذلك دائماً ، وهل في استطاعتهم أن يثبتوا طويلا والنظم الرأسمالية تسلط عليهم جنودها ومدافعها ؟

ان الرأسماليين في كل بلد أقلية صغيرة ، ولكنها تقبض كما قلنا على جميع وسائل الانتاج ، وتسيطر على جميع الطبقات الاخرى ، وتقبض على زمام القوى السياسية والعسكرية والتشريعية ، فانقاذ الكتلة العاملة التي تؤلف سواد المجتمع لا يمكن تحققه طبقاً للنظرية الاشتراكية الا بهدم النظم الحالية واحلال النظم الاشتراكية مكانها

٣ ـ ولكن نفراً من خصوم الاشتراكية الخالصة ، ممن يؤمنون في نفس الوقت بوجوب اصلاح النظم الرأسمالية والعمل على تخفيف عسفها وويلها اذا كان لها أن تبقى خالية من الاخطار والمنازعات المضطرمة ، يرون استبقاء المجتمع الحاضر بعد حمايته من العناصر الهادمة ، والعمل على استبعاد العوامل والاسباب التي تغذي هذه العناصر بأسباب الهياج والقوة ، أو بعبارة أخرى يريدون اجراء طائفة من ضروب الاصلاح على قاعدة الانتاج الرأسمالي ، وأولئك هم أنصار الاشتراكية « الرأسمالية » على قول ماركس وهم في رأيه ألد خصوم الاشتراكية الحقة

وقد كان قيام أولئك المصلحون (أو المحافظون على قول ماركس) نتيجة

للاضطراب الاقتصادي الذي أحدثته ثورة الانتاج والصناعة الكبرى في أوائل القرن التاسع عشر، تلك الثورة التي دهمت الطبقات العاملة بضروب شنيعة من البأساء والحرمان أفضت الى اشتداد ساعد الاشتراكية الثورية . عندئذ برز أولئك المصلحون من بين الرأسماليين ليعملوا على تخفيف ويلات الكتلة العاملة . وسواء أكان قيامهم لتوطيد النظم الرجعية المحافظة كما يقول ماركس أو لتحقيق غايات انسانية محضة فان جهودهم في ذلك السبيل قد أسبغت على الكتلة العاملة منحاً كثيرة يعتبرها بعض الاشتراكيين السلميين ظفراً للاشتراكية ونواة للصراع الاخير بينها وبين الرأسمالية

على أن هذه الجهود الاصلاحية وما أفضت اليه من منح للكتلة العاملة كانت عاملا في تهدئة الفورة الاشتراكية الى حين وحرمانها من مؤازرة فريق ممن لا يرى التطور والتدرج في مهاد الاصلاح ، وكانت ثورات التحرير التي هزت أسس الحكم في أوربا في منتصف القرن التاسع عشر هي التي أوحت الى الطبقة الحاكمة أن تفكر في التنازل للطبقات المستعبدة عن بعض المنح احتفاظاً بسيادتها وامتيازاتها ، وحملت الجهود الرجعية او الاصلاحية وما أسفرت عنه من تحسين في شؤون الطبقات العاملة زعماء الديموقراطية على أن يعتبروا هذه المنح خطوة كبيرة في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية

فماذا كانت تلك المنح ؟ كانت سياسية كمنح حق الانتخاب لافراد حرموا منه من قبل أو تعميمه في بعض الدول، واقتصادية اجتماعية كالاعتراف بحق تأليف الجماعات وتنظيم الاعتصابات بشروط وقيود معينة ، وتقصير ساعات العمل ، وتفتيش المعامل ، وعول العجزة والشيوخ ، وتقرير التعليم الابتدائي المجاني

وقد اشترك في العمل على تحقيق مثل هذه المنح اشتراكيون مثل تلاميذ روبرت أوين ، على أن هؤلاء لم يعتبروها الا مزايا وخطوات تمهيدية لتحقيق برنامجهم . واذا كان تحقيقها قد اعتبر في وقت ما ظفراً للديموقراطية ولقضية العمل فان الثورة الهائلة التي حدثت في وسائل الانتاج باكتشاف البخار والكهرباء واشتداد ساعد رأس المال والمالية العليا قد أوضحت ضآلة هذا الظفر، وبعثت الى الفورة الاشتراكية روحاً جديداً . فاشتد ساعدها أيضاً وذكا أوار النضال بينها وبين النظم التي تعمل لسحقها

٤ ـ يقول الاشتراكيون ان النظم الرأسمالية الباغية قد دخلت في طور الانحلال وأن نظما يعاني سواد البشر في ظلها صنوف البؤس والشقاء ويرسفون في أغلال العبودية والذل لتنعم أقلية صغيرة بصنوف الترف ، وألوان الحرية ، وتستأثر بالسيادة

والجاه والغنى، هي نظم جائرة يجب تحطيمها لتنجو الكتلة العاملة من ذلك الكابوس الرائع، كابوس الراسمالية والمالية العليا . ويقولون ان كل نظام اجتماعي يحمل في ثناياه نفس العناصر التي تؤدي الى هلاكه وفنائه ، والنظم الاجتماعية تنحدر الى هاوية الانحلال متى حملت من المتناقضات ما يقف عثرة في سبيل التطور الاقتصادي . وعلى ذلك فان الراسمالية الحديثة قد اضحت نظاماً مقضياً عليه ، فقد وضحت مفاسدها ومتناقضاتها الاجتماعية ، وكلما جازت مرحلة اجتماعية جديدة كلما ازداد هذا التناقض وضوحاً ، وكلما اشتدت عوامل الانحلال

هذا وكلما اشتد تقدم الراسمالية ، وازداد انتاج الطبقات العاملة في العالم من جراء الوسائل الصناعية المحدثة ، كلما تعاقبت الازمات التجارية بسرعة . بل الواقع ان الراسمالية تسير اليوم الى أزمة هائلة . والازمات التجارية دليل على ان ناتج العمل الاجتماعي عظيم بحيث يرهق المجتمع ، واذاً فالراسمالية تسير الى التحطم بتقدم قواها الاقتصادية ذاتها ، وسوف نشير الى رأي ماركس في هذه الظاهرة في كلامنا عن الشيوعية

فالاشتراكية الحقة او الاشتراكية الثورية ترى بالاستناد الى ان العمل يخلق كل الثروات الاقتصادية أن لا سبيل الى حل هذه المعضلة الاجتماعية الا باعادة تنظيم المجتمع على قاعدة الملكية الاشتراكية (الاجتماعية) لجميع ثروات الانتاج . وهذه خطة لا يملي بها الاشفاق ولا العواطف ، بل تملي بها الضرورة الاقتصادية ، هي حل علمي محض ، وما دامت الثروة تخلقها الجهود المشتركة ، فيجب ان تكون ملكيتها مشتركة ايضاً ، وان تدار بطريقة مشتركة . وطالما حيل دون تحقق هذه الغاية فان الراسمالية تسير من عثرة الى عثرة ، ومن ازمة الى ازمة اشد ، ومن معركة الى معركة اخطر واذكى سعيراً

٥ ــ ومن ذلك نرى ان الغاء الملكية الفردية او الملكية الشخصية هي الغاية الجوهرية الاشتراكية ، وهي قبلتها الاولى ، وعماد نظمها . ولكن الى اي مدى تريد الاشتراكية ان تحقق هذا الالغاء ؟ هنا يشتد الجدل بين اقطاب الاشتراكية انفسهم ، غير ان اهم الآراء وارجحها هو ان الالغاء ليس على اطلاقه ، وانه يقصد الى انتزاع آلات الانتاج ووسائله العامة كالأرض والمناجم والغابات ورأس المال من الملكية الخاصة ، على خلاف في تعيين وتحديد هذه الآلات والوسائل ايضاً ، وتوضع هذه وتلك في ملكية الدولة لتستثمر للصالح العام . ويعبر الاشتراكيون عن ذلك

بقولهم : « ما هو ضروري من الوجهة الاجتماعية يجب ان يقع في الملكية الاجتماعية الاشتراكية » ، ويقول اصحاب هذا الرأي ان ملكية الاشياء تبقى دائماً وسيلة للاعراب عن الشخصية ، بل ان منهم من افتى مثل كارل كاوتسكي الزعيم الاشتراكي الالماني بجواز امتلاك الفرد لمنزله وحديقته في ظل الاشتراكية وبأن ليس في ذلك ما ينافي الغاية الاشتراكية ما دامت تفرض على الايراد المتحصل من غير العمل ضريبة مناسبة تمنع تكدسه وتضخمه . ويقول هؤلاء ان احداً من اشد انصار ملكية الدولة لا ينازع في ان تمتلك المرأة آلة للخياطة أو الرجل معول حديقة ، وان الاشتراكية لا تعارض في استعمال الفرد هذه الآلات لشخصه ولمنفعته ، ولكنها تعارض في استعمالها لتحصيل ثمرة عمل الغير . وتذهب الجمعية الفابية ، وهي جمعية اشتراكية بريطانية ، الى ابعد من ذلك في تحديد الغاية الاشتراكية ، وتقييد الغاء الملكية فتقتصر على المطالبة بالغاء ملكية الرأسمال الصناعي ، ووضعه دون غيره في الملكية القومية

ويترتب على ذلك ، في نظر اصحاب هذا الرأي ، ان حظر الوراثة ليس جوهرياً في النظام الاشتراكي فليس على الاشتراكي ان يعترض على الوصية بالثروة الخاصة اللهم الا اذا حدثت في ظروف تفضي الى استئثار الاقلية بالميراث والثروة وحرمان السواد الاعظم كما هو الشأن اليوم . وعلى اي حال فلا بد ان يخضع الميراث لضرائب مناسبة تحد من فداحته وتحول دون اتخاذه آلة للاستغلال وسلب الغير

ولا تراعي الاشتراكية في كل ذلك سوى غايتين جوهريتين ، الاولى معنوية اجتماعية وهي تقرير الحرية الفردية الصحيحة ، وانقاذها من كل الاغلال والقيود التي يفرضها عليها المجتمع الرأسمالي ، والثانية اقتصادية وهي وضع حد للاستغلال ، وهذه الغاية الاخيرة هي التي تستوجب في نظر الاشتراكية الغاء الملكية الشخصية بالمعنى الذي بيناه

٦ ـ ويختلف دعاة الاشتراكية ايضاً بالنسبة للوسيلة التي يجب الالتجاء اليها لتحقيق الغايات الاشتراكية ، على ان اوجه الخلاف يمكن حصرها في طريقتين : الاولى طريقة التطور ، والثانية طريقة الثورة . والاولى وسيلة المصلحين ومن نحا نحوهم كالفابيين . ومؤداها انه يمكن الوصول الى اعادة تنظيم المجتمع على الاسس الاشتراكية بالتعاون السلمي بين الكتلة العاملة والطبقات الاخرى ومؤازرة الاحزاب وتأييد الاجراءات التي تجنح الى تحقيق المثل الاشتراكية ، او بعبارة أخرى

يرى انصار التطور امكان الوصول الى الغايات الاشتراكية من طريق النظم البرلمانية والكفاح الحزبي ، وهذه هي الطريقة الغالبة في بريطانيا العظمى . بيد انا نستطيع ان نقدر ضعف هذه الوسيلة متى ذكرنا ان حزب العمال الانجليزي استولى في سنة ١٩٢٤ على مقاليد الحكم ولم يستطع ان يحقق ذرة من المثل الاشتراكية التي ينادي بها وهو خارج الحكم . واما طريقة الثورة فهي نظرية ماركس وتلاميذه ، وهي النظرية التي شرحها في البيان الشيوعي في سنة ١٨٤٨ ، ومؤداها ان المثل الاشتراكية لا تتحقق الا بثورة الكتلة العاملة على طبقة البورجوا (اصحاب الاموال) وانتزاع السلطة من يدها ، وتحطيمها بالعنف والقوة وسفك الدماء . وقد اضحت هذه النظرية هي الغالبة اليوم بين دعاة الاشتراكية حتى ان اصحاب نظرية التطور اصبحوا يرمون بالرجعية والمروق ، وقلما يعتبرون من الاشتراكيين الخلص . وسنعود الى شرح هذه النظرية باسهاب في كلامنا عن الشيوعية

هذا ونرى من واجبنا قبل أن نختم كلمتنا عن الاشتراكية أن نبين الفرق بينهما وبين دعوتين أخريين من دعوات الهدم الظاهرة هما الشيوعية واللاحكومية (Anarchie)

فأما الشيوعية فتفترض جميع الثروات الاجتماعية مجموعاً يستهلك الفرد منه لا الى ما يناسب خدماته للمجتمع فقط ، ولكن الى ما يسد جميع حاجاته ، ويفي بحقه البشري في العول والكفاية . على أن هذا الحق في الاستهلاك يتوقف عند الشيوعيين على واجب العمل للانتاج ، ويجب أن ينفى من المجتمع الشيوعي كل فرد تخلف عن أداء هذا الواجب ، فمن لا يعمل لا يأكل على قولهم . هذه هي النظرية الشيوعية في توزيع الثمرات ، وهي ما يعبر عنه بقولهم « من كل طبقاً لكفايته ، ولكل طبقاً لحاجاته » . أما الاشتراكية فتتفق مع الشيوعية في وجوب انشاء المجموع العام من الثروات ، ولكنها تخالفها في طريقة التوزيع ، فتسمح لكل فرد من الثمرات العامة الى ما يناسب عمله وجهوده لا ما يناسب حاجاته ، واذاً فقاعدة التوزيع عند الاشتراكيين هي الايراد الشخصي ، وعند الشيوعيين هي الحق البشري في الحياة ، وتحيط الاشتراكية قاعدتها بضمانين : الاول هو أن يكون الايراد الشخصي كافياً للاتفاق على معيار لائق من العيش ، والثاني هو أن يمثل الخدمات التي أديت فحسب ولا يمثل القدرة على استغلال الغير . أما الشيوعية ، فلا تعتبر الا المقدار الذي يلزم لسد حاجات الفرد ، ولا تقيد الاستهلاك الا بالناحية التي ينصرف اليها

ثم ان الاشتراكية والشيوعية كثيراً ما تخلطان باللاحكومية ، وهذا خطأ بين ، فاللاحكومية دعوة هدم سياسية تنصب على نظم الحكم وتنظيم الدولة ، وتنكر قيام الدولة وتأليف الحكم على أسس النصب والقوة كما هو شأن الدولة الحالية . وغايتها هي اما هدم الدولة أصلا ، واما انشاء دولة لا تقوم الا على العوامل الاجتماعية والمعنوية وتسيرها العلائق المختارة ، هذا في حين ان الاشتراكية تقر الدولة القائمة على القوة ما دامت تطبق المبادىء الاشتراكية وتقر الشرائع الملزمة . وأخيراً تقوم اللاحكومية على اعتقاد في خير الطبيعة البشرية ، ولكن الاشتراكية الحديثة لا تقوم على فكرة الخير البشرية وانما على مدنية الطبيعة البشرية . هذا وسوف نعود الى الافاضة في خواص اللاحكومية في فصل قادم

هذه هي خواص الدعوة الاشتراكية وغاياتها أوردناها قاصرة على الشرح ، بعيدة عن التعليق بقدر ما سمح لنا المقام الضيق ، ولعلنا نكون قد استطعنا بهذه الخلاصة أن نقدم الى القارىء فكرة صحيحة واضحة عن الاشتراكية الحديثة وأن نرفع كثيراً من أسباب الغموض التي أحاطت بها

الفصل الثاني

الشيوعية

Le Communisme

(١) الشيوعية نزعة قديمة . الشيوع غاية الاشتراكية الخالصة . كارل ماركس رسول الشيوعية الحديثة (٢) حياة ماركس . نشأته وجهوده الثورية . مؤتمر العمال الدولي . تحليل ماركس للمجتمع . مذهبه في انحلال الرأسمالية . الصبغة العملية لنظريات ماركس (٣) نظرية ماركس في شرح التاريخ . المجتمع ثمرة لنضال الطوائف . البورجوازي وعسفها . شره الرأسمالية وعدوانها . (٤) شرح ماركس لتطور الرأسمالية . نضال الطوائف . تكديس المال نذير بنكبة الرأسمالية (٥) غايات الشيوعية . الغاء الملكية البورجوازية . ماركس يدافع عن نظريته . محو الاسرة الرأسمالية (٦) ماركس يدفع بعض التهم . شيوع النساء . الغاء الجنسية والوطنية . العامل لا وطن له . اتهامات الدين والفلسفة . (٧) برنامج الشيوعية الانشائي . اتحاد نضال الطوائف . الشيوعية لا تحقق الا بسحق النظم الحاضرة (٨) الشيوعية رمز الثورة العالمية . مدى فوز الشيوعية وقوتها . انضواء الاحزاب الشيوعية تحت لواء الدولية

١ ــ الشيوعية كالاشتراكية دعوة هدامة تستند الى أسس اجتماعية واقتصادية ، وهي قديمة جداً غير انها لم تنتظم الى مذهب ثوري ذي قواعد ونظم معينة الا في فاتحة القرن التاسع عشر . وقد كان الشيوع نظام المجتمعات البشرية في طورها الاول ، وفي مهاده قامت الملكية الشخصية ، ثم كان مثلا تبشر به بعض المذاهب الفلسفية والدينية ، وغاية يدعو اليها بعض الطوائف الدينية والثورية ، ولعلنا نذكر ان بعض الفرق الاسلامية الثورية كانت تعتنق الشيوع وتدعو اليه ، بل تطبقه وتعيش في ظله كما فعل القرامطة اذا صدقنا أقوال مؤرخي السنة . والغاية الشيوعية تكاد تطابق الغاية الاشتراكية ولا تخالفها الا في بعض الاجراءات التفصيلية التي بيناها ، بل يمكن أن يقال دون خوف الشطط ان كل اشتراكية خالصة ترمي في النهاية الى الشيوع ، وان الاشتراكية الثورية هي الشيوعية بذاتها . بيد ان الشيوعية ثورية في جوهرها وفي وسائلها وهي أشد امعاناً في الهدم من أية حركة ثورية أخرى ، وأذكى عداوة لكل ما يعتنقه المجتمع من تعاليم سياسية ودينية وأخلاقية . وعناصرها ووسائلها السرية وافرة الحول والنشاط الى جانب عناصرها ووسائلها الظاهرة ، وقد غدت قوة هائلة منذ أن ظفرت بسحق دولة القياصرة في روسيا ، وغدا شبحها يروع جميع المجتمعات والدول الغربية

وقد بدأ نشاط الشيوعية كدعوة ثورية هدامة في منتصف القرن التاسع عشر ، وجنحت الى الوسائل والجهود السرية بادىء بدء ، وكان منظم هذه الجهود رجل من أئمة الثورة وأقطاب الهدم هو هينريخ كارل ماركس ، وهو أعظم دعاة الشيوعية بلا مراء ، بل هو واضع أصولها العلمية الحدثة ، ومنظم أساليبها الثورية ، ومنشىء برامجها الهدامة والانشائية ، وهو المرجع والحجة لكل جدل شيوعي ، حتى أن الشيوعية تنعت باسمه فتسمى بالمركسية . ولما كانت جهود الدعوة الشيوعية الاولى تقترن كلها باسم ماركس ، فأنه يجدر بنا أن نبدأ بذكر لمحة من سيرته وجهوده ، ثم نعطف بعد ذلك على شرح الدعوة الشيوعية طبقاً لنظرياته وشروحه

٢ ـ ماركس يهودي الماني ولد في تريف في مايو سنة ١٨١٨ ، ودرس القانون في بون وبرلين بالروح والاساليب الهجلية ، ثم درس الاقتصاد السياسي ومبادىء شيوخه مثل آدم سميث . وبدأ حياته العملية فيسنة ١٨٤٢ بالتحرير في غازيتة الرين Die Reinische Zeitung فافضت شدته واقواله الثورية الى تعطيلها ، فانتقل الى باريس واتصل بالاشتراكيين الفرنسيين ودرس مبادئهم درساً مستفيضاً ، واصدر منذ اول يناير سنة ١٨٤٤ صحيفة الفورفيرتس Vorwarts (الى الامام !) الاشتراكية ، غير انه ما لبث ان نفي من فرنسا في يناير سنة ١٨٤٥ ، فانتقل الى بروكسل ، وهنالك التقى بفردريخ انجلز الذي غدا صديقه وزميله في بث الدعوة الشيوعية حتى موته . فاخذا يعملان على تأليف جمعية سرية شيوعية ، وفي سنة ١٨٤٨ ، نشرا بيانهما الشهير المعروف ببيان الحزب الشيوعي Manifest der kommunistischen Partei ، وهو متن الشيوعية ومرجعها الى يومنا . ولبث ماركس حيناً في بروكسل يدير شؤون الجماعة السرية التي أنشأها حتى نفي من البلجيك أيضاً ، فعبر الحدود الى المانيا ، وخاض غمار ثورتها التي كانت مستعرة اذ ذاك وتولى زعامة الحركة الثورية في ولايات الرين وأصدر في كلونيا « غازيتة الرين الجديدة » ، ولكنه لم يلبث حتى نفي مرة أخرى ، ففر الى دوقية باد ، ثم الى باريس ، ولكنه أخرج منها ثانية ، فعبر البحر الى انجلترا واستقر بمدينة لوندره التي كانت كعبة المنفيين والمبعدين السياسيين عندئذ . وهنالك اتصل بالمنفيين ودعاة الثورة من جميع الاقطار ، وانقطع الى نشر الدعوة الشيوعية بقلمه ولسانه ، ونشر عدة رسائل فلسفية واقتصادية ، وكتب بين براثن الفاقة والبأساء الطاحنة كتابه الجامع « رأس المال » Das Kapital ، وهو من أجل كتب الاجتماع

والاقتصاد ، وأعظم ما كتب في الاشتراكية حتى انه لينعت بانجيلها

عكف ماركس من ذلك الحين على بث آرائه وإذاعة دعوته ، ثم انتقل الى طور العمل فدعا مندوبي العمال الانجليز والفرنسيين والبلجيكيين الى الاجتماع في لوندره سنة ١٨٦٢ سعياً الى توحيد حركة العمال الدولية ، وقدم لهم بياناً أسست طبق نصوصه « جماعة العمل الدولية » سنة ١٨٦٤ ، فكانت نواة الهيئة أو الجمعية التي تعرف اليوم « بالدولية الشيوعية » أو الدولية الثالثة كما سنبين بعد . وتولى ماركس ادارتها حتى سنة ١٨٧٢ ، ولكن الخلاف ما لبث أن تسرب اليها ولا سيما منذ أن انضم اليها باكونين الداعية اللاحكومي الروسي وتلاميذه ، وما لبثت أن استثارت ريب الحكومات المختلفة بما كانت تبذله من الجهود في مؤازرة الحركات الثورية، فمالت عليها السلطات ، وأرهقتها المطاردة، ومزقها النزاع بين ماركس وتلاميذه ، وبين باكونين وبرودون وأنصارهما فانحلت في سنة ١٨٧٢، غير أنها تركت وراءها أحزاباً اشتراكية سياسية في المانيا وفرنسا وبلجيكا وسويسرا ، وجماعات ثورية لاحكومية تعتنق آراء باكونين ، وكانت ثمرتها العملية بث المبادىء المركسية بين جماعات العمال والديموقراطيين وفصل الشيوعيين اللاحكوميين عن باقي الهيئات الشيوعية

وقد طبعت نظريات كارل ماركس بطابع الفلسفة الهجلية (نسبة الى هجل) ولا سيما ما تعلق منها بسير التاريخ وتكوين المجتمع . ويرى هجل أنه يجب علينا أن نتدبر الضرورات الطبيعية الخفية التي تحرك المعترك التاريخي وألا نتقد نتائج التاريخ وأحوال المجتمع بروح العواطف الفردية ، وان ميول التطور الاجتماعي صائرة بالتدريج الى تحقيق مبادىء الحرية ، وان الحرية لم تمنح أصلا للانسان بل هي عمل التاريخ وثمرة النظام الاجتماعي أو غرس الدولة.وقد أثرت فلسفة هجل وسيسموندي وسان سيمون في نظريات ماركس تأثيراً عظيما . دعا ماركس الى تنظيم الكتلة العاملة الى حزب سياسي يعمل على تحقيق المبادىء الشيوعية ، ونادى بضرورة اضرام ثورة عالمية . وتلك نظرية الثوار الفرنسيين الذين قالوا كما رأيت بوجوب قيام كل شعب في وجه حكومته وفي وجه كل الطبقات الحاكمة . ونظر ماركس الى المجتمع باعتباره كلاً لا يتجزأ ورأى أن الانظمة ثمار الحوادث التاريخية ، وأن الخير والشر هما من صنع الانسان ، وان البأساء التي تسحق الجماعات من حوله لا يدرؤها سوى انقلاب اجتماعي هائل

ويرجع الفضل الى ماركس في أنه استعرض آراء المتقدمين من فلاسفة

واشتراكيين ، وهذبها ودعمها بنظرياته الشخصية ، وأخرج منها مذهباً عملياً منطقياً هو أن النظام الرأسمالي يسير بنفسه الى نكبة نفسه ومن ثم الى تحقيق انظم الشيوعية وهو ما يسمى في الاشتراكية المركسية بقانون البأساء المتراكمة . يسمو غنى الاغنياء ،



كارل ماركس

ويشتد بؤس الفقراء ، وتتكدس الثروة في يد أقلية ضئيلة ، وتتمركز رءوس الاموال فيؤدي ذلك الى أن تفتك البأساء والفاقة بالجماعات العاملة، فيثب العمال عندئذ ويؤلف الحرمان والبؤس بين قلوبهم، وتجتمع كلمتهم على تحطيم نظام يسومهم الخسف والارهاق

ويبطش بأجسامهم وأرواحهم وعقولهم ، وينشب الصراع الاخير ، ويحل الانقلاب ، فتنهار أسس المجتمع الحاضر لتقوم على انقاضها صروح المجتمع الشيوعي

وهذه بدعة في المبادىء المركسية تميزها عن كل ما تقدمها من النظريات التي ترمي الى التوفيق بين الاشتراكية وفكرة التطور . ويقرن ماركس نظريته هذه برأي طريف في تفسير سير المجتمع ، فيقول : ان كل تطور سياسي أو اجتماعي أو أخلاقي إنما هو ثمرة التطور الاقتصادي وهو رأي يعارض به أيضاً كل المتقدمين من دعاة الاشتراكية

وقد أفهم ماركس وانجلز العالم أن الاشتراكية ليست عطفاً على بأساء المجتمع من ذوي الافئدة الرقيقة والطبائع البارة بل هي بالعكس انقلاب اجتماعي هائل ، وأنه لا خلاص للكتلة العاملة ولا فوز الا بصراع هائل ينشب بينها وبين الطبقات الحاكمة المستأثرة بالثروة والسيادة . كانت آراء ماركس وانجلز العملية المنطقية ضربة ساحقة « للمثل العليا » والاماني الخيالية ، فامتنعت الاشتراكية واشتد ساعدها مذ أصبحت صراعاً مادياً واضحاً بين الطبقات ، وارتفع ما حاق بها من الغموض ، وأصبحت قضية يدركها الفرد العادي ، ويستطيع أن يدعو اليها ويشد أزرها أوضع عامل ، وتحدت الاشتراكية سلطان الرأسمالية تحدياً واضحاً في الحركات والفورات العديدة التي قامت خلال القرن الماضي فشعر العامل بقوة في التضامن مع رفاقه من أي البلاد ودوت في أذنه صرخة ماركس وانجلز التي اختتما بها البيان الشيوعي : « أيها العمال من أي البلاد اتحدوا ! »

والخلاصة أن ماركس كان يعمل للغايات العملية المحققة لا للخيال البعيد . وقد أثار بدعوته جيشاً هائلا من الطبقات العاملة وبعث اليها عزماً للجهاد والنضال ، وأدى بذلك الى قضية العمل ما لم تؤده الجيوش الجرارة ، ونظم الكتلة العاملة فاصطبغت لاول مرة بالصبغة السياسية ، وجمع تحت لوائها كلمة الديموقراطية فصدع بذلك من صرح الرأسمالية ، وتقوضت منه دعائم شامخة ما لبثت أن أسفرت عن وثوب روسيا الاشتراكية

٣ ـ وبعد فما هي الشيوعية كدعوة هدامة ، وما هي غاياتها ووسائلها ؟ هذا ما فصله ماركس وانجلز في البيان الشيوعي ، متن الشيوعية ، ومرجعها . ونرى نحن أيضاً أن نرجع في شرحنا الى هذا البيان ، وأن نقدم الى القارىء من فقراته وعباراته الواضحة القوية ما يقرب اليه فهم الفلسفة المركسية وتصويرها للدعوة الشيوعية

يبدأ ماركس ببسط نظريته المادية في شرح التاريخ فيقول :

« ليس تاريخ أي مجتمع الى عصرنا بأكثر من تاريخ لنضال الطوائف

« لقد أشهر الاحرار والارقاء ، والنبلاء والعامة ، والسادة والخدم ، والرؤساء والمرءوسون ، وبالجملة كل ظالم وكل مظلوم كل على الآخر حرباً مستمرة تارة في الجهر وأخرى في الخفاء : حرب كانت تنتهي دائماً إما بثورة تقلب نظام المجتمع بأسره وإما بانحلال الطائفتين المتحاربتين

« ونلاحظ في عصور التاريخ الاولى أن المجتمع كان دائماً ينقسم الى طبقات تتدرج في الامتياز والرفعة . ففي رومة القديمة مثلا كان من طبقات الشعب نبلاء وفرسان وعامة وأرقاء ، وكان منها في القرون الوسطى سادة وأتباع ورؤساء وأشياع وعبيد

« ولم تمح أنظمة البورجوازي (طبقة اصحاب الاموال) الحديثة التي قامت على أنقاض الاقطاع أسباب البغضاء من بين الطوائف بل استبدلت الطوائف القديمة بأخرى ، وخلقت طبقات جديدة وظروفاً جديدة للاضطهاد ، وضروباً جديدة للنضال

« على أن عصرنا الحديث يمتاز منذ عهد البورجوازي بتخفيف عوامل البغضاء بين الطوائف لان المجتمع البشري قد انقسم الى شطرين عظيمين متخاصمين أو الى طائفتين عدوتين هما البورجوازي ، والكتلة العاملة »

فنضال الطوائف Klassenkampf ، في رأي ماركس ، هو المحور الخالد الذي تدور حوله حوادث التاريخ ، وهو الذي تسبغ نتائجه على المجتمعات أشكالها وأنظمتها

يقول ماركس : ان طائفة البورجوازي ليست الا ثمرة لسلسلة من الثورات التي عصفت بطرق الانتاج والمواصلات ، وان كل تطور في مركز البورجوازي كان يقترن به تطور مماثل في أحوال المجتمع ونظمه ، فمن دولة هاضها عسف الاقطاع الى جماعة مسلحة تدفع بنفسها الى أحضان الشيوع : هنا حكومة جمهورية ، وهنالك حكومة ملكية . فلما حل عهد الصناعة الكبرى استلبت البورجوازي القوة السياسية وحرمت منها بقية الطوائف . وهذا ما حدث في الحكومة النيابية الحديثة التي ليست في رأي ماركس سوى لجنة ادارية ترعى شؤون الرأسماليين

ثم يقول : ان هذه البورجوازي التي تستأثر بالسلطان والثروة هي التي ترهق المجتمع بجورها وأثرتها وجشعها ، وهي التي فازت باغتصاب السلطة ، ووطئت بأقدامها الانظمة الاقطاعية والتقاليد الاخلاقية ، ومزقت بلا رأفة جميع العلائق التي تربط أفراد المجتمع

لتسود مكانها علاقة المصلحة الجامدة ، أو العلاقة المالية ، وأسدلت حجب الاثرة الباردة على الايمان الديني وحماسة الفروسية ورقة المشاعر التي كانت تزدان بها البورجوازي الصغيرة (الطبقة المتوسطة) وحولت الغيرة الشخصية الى مسألة مادية محضة ، واحلت محل الحقوق التحررية العدة التي كافحت الشعوب كثيراً من أجلها حرية واحدة هي الحرية التجارية القاسية الباغية ، وعلى الجملة فقد استبدلت الاستغلال المستتر بالاساطير الدينية والسياسية باستغلال ظاهر وحشي شائن

« وقد سلبت الرأسمالية بهاء المهن الشريفة المحترمة فحولت الطبيب والمفتن والكاهن والشاعر والعالم الى عمال مأجورين ، وانتهكت حجب العواطف التي كانت تحيط علائق الاسرة وحولتها الى علائق مالية محضة

« وقد غاضت جميع العلائق البشرية القديمة ، واختفت الافكار والعقائد المحترمة فحلت مكانها علائق ومبادىء لا تكاد تبدو حتى تسحق ، وأصبح يهتز كل ما هو ثابت وطيد ، وشمل الرجس كل ما هو مقدس ، وأرغم الانسان على أن يتأمل ظروف الحياة وعلائق المجتمع بأعين ذاهلة

« ان ظمأ الرأسمالية الى الثروة وحاجتها الى افتتاح الاسواق الجديدة يدفعانها دائماً الى غزو العالم بأسره » هكذا يحمل ماركس على طبقة البورجوازي ، وهكذا يصف عسف النظم الرأسمالية بهيكل المجتمع البشري

٤ ـ يصف ماركس بعد ذلك التطور الاقتصادي للنظم الرأسمالية ، وهو تطور يفضي في رأيه الى هلاك هـذه النظم ، فيقول ان المجتمع الرأسمالي الحديث بما ابتدعه من وسائل هائلة للانتاج والمبادلة ذلك الساحر الذي لم يعد في وسعه أن يسيطر على القوى الجهنمية التي أثارها . ففي وقت ما يجد المجتمع نفسه قد ارتد فجأة الى حالة من الاضطراب والفوضى ، ويخيل للناس أن قحطاً أو ان حرب فناء قد ذهبت بموارد حياته ، وتبدو أمارات الخذلان على الصناعة والتجارة . فلم هـذا ؟ ذلك لان المجتمع قد استسلم الى حضارة وافرة ، وبالغ في ابتداع أساليب العيش والصناعة والتجارة ، وغدت قواه المنتجة لا تتناسب مع اتساع وسائل الملكية الرأسمالية بل غدت هذه الوسائل ذاتها عثرات في وجه الرأسمالية . وكلما اجتاحت القوى الاجتماعية المنتجة هذه العثرات ألقت بالمجتمع في أحضان الفوضى وأنذرت بالفناء ملكية البورجوازي ، وبعبارة أخرى أصبحت النظم الرأسمالية أضيق من أن تسيطر على الموارد التي خلقت في ظلها

ثم ان نضال الكتلة العاملة للبورجوازي يبدأ منذ نشأتها ، ويتطور من نضال الفرد الى نضال الجماعة ثم الى نضال الكتلة العاملة بأسرها . وكلما تقدمت الصناعة كلما ازداد أبناء الكتلة عدداً ، وانتظمت جماعاتهم واشتد ساعدهم ، وشعروا بقوتهم فاذا ذكا نضال الطوائف ودنت المعركة الحاسمة ، فان انحلال الطبقة الغالبة ، أو



فردريك انجلز

بعبارة اخرى انحلال المجتمع الذي شادته يتخذ شكلا عنيفاً رائعاً ينتهي بأن تنفصل بعض عناصر الطبقة الغالبة عنها لتتحد مع العناصر الثائرة أو العناصر التي تمثل المستقبل . وكما أن فريقاً من النبلاء انضم من قبل الى الرأسمالية في حربها للملكية كذلك ينضم اليوم فريق من الرأسمالية الى صف الكتلة العاملة التي هي العنصر الثوري الوحيد دون غيرها من الطبقات

وقد حاولت جميع الطوائف الثائرة التي استأثرت بالسلطان والملك أن تؤيد سيادتها المغصوبة باخضاع المجتمع الى نظم تبتدعها لا كتساب الملك ، فلا يستطيع اخوان العمل أن يملكوا شيئاً من قوى الانتاج العامة . ومن ثم كانت جميع النهضات التاريخية الى عصرنا نهضات الاقليات لمصلحة الاقليات . أما نهضة الكتلة العاملة فهي النهضة المختارة للسواد الاعظم ، ولمصلحة السواد الاعظم

« ان قوام حياة الرأسمالية وقوام سيادتها تكديس الثروة في ايد معينة ، وتنمية رأس المال . والاجور صنيعة رأس المال ، وهي تتحدد بتزاحم العمال فيما بينهم . على أن تقدم الصناعة الذي تؤيده البورجوازي يعمل دون شعورها على توحيد كلمة العمال تحت لواء الثورة ، وعلى أن يحفر أمام قدمي البورجوازي ، وتحت البسيط الذي شادت فوقه نظم انتاجها وملكيتها هاوية سحيقة رائعة

« ان الرأسمالية تعد الاولى يحفرون قبرها قبل كل شيء ، ولا مندوحة من إبادتها وظفر الكتلة العاملة ! »

٥ ـ وبعد فما هي غاية الشيوعية ، او بعبارة اخرى ما هو برنامجها في الهدم وبرنامجها في البناء ؟ يجيب ماركس عن ذلك في وضوح وجلاء :

« ان غرض الشيوعيين المباشر هو نفس الغرض الذي ترمي اليه كل طائفة عاملة ، وهو تنظيم صفوف العمال وسحق سيادة اصحاب الاموال ، والقبض على زمام السلطة السياسية

« وليس مميز الشيوعية الخاص الغاء الملكية الغاءً عاماً مطلقاً ، ولكنه الغاء ملكية المولين (البورجوا)

« ان الملكية الخاصة أو الملكية البورجوازية الحديثة هي آخر وأدق مظهر لوسائل الانتاج والتملك المؤسس على نضال الطوائف واستغلال بعضها لبعض . وعلى ذلك ففي وسع الشيوعيين ان يلخصوا مبادئهم في تلك العبارة : الغاء الملكية الشخصية (الفردية) »

ثم يدفع ماركس اعتراضات المعترضين على النحو الآتي :

« ينعون علينا اننا ننادي بالغاء الملكية الشخصية التي هي ثمرة العمل الشاق ، والتي يزعمون أنها ركن كل حرية وكل نشاط ، وكل استقلال فردي

« الملكية الشخصية ثمرة عمل انسان ! فهل يريدون ملكية المول الصغير ، او المزارع الصغير ؟ ان هذه ليس علينا الغاؤها وقد الغاها تقدم الصناعة أو كاد . أم يريدون التحدث عن الملكية الخاصة او الملكية البورجوازية الحديثة ؟

« هل يؤدي العمل المأجور الى حيازة الملكية بالنسبة للعامل ؟ كلا ، ولكنه ينتج رأس المال او بالحري ينتج الملك الذي يعمل على استغلال العمل المأجور والذي لا ينمو الا بانتاج عمل مأجور جديد يرمي الى استغلاله من جديد

« ان المول لا يشغل مركزاً شخصياً فحسب، بل يشغل كذلك مركزاً اجتماعياً

في نظم الانتاج . ورأس المال ثمرة لجهد مشترك ، ولا يمكن استثماره الا بالجهود المشتركة لكثير من أعضاء المجتمع ، بل يصح القول ايضاً بأنه يسخر جميع افراد الهيئة الاجتماعية

« فرأس المال اذاً ليس قوة شخصية ، بل هو قوة اجتماعية

« وعلى ذلك فاذا صار رأس المال ملكا شائعاً لجميع افراد المجتمع فلا يقال ان الملكية الشخصية قد حولت الى ملكية اجتماعية ، اذ لم يتغير سوى صفة الملك الاجتماعية التي تفقد عندئذ صفتها كملكية للطوائف

« ولقد يروعك أنا نريد الغاء الملكية الشخصية . بيد انها ملغاة في مجتمعك بالنسبة لتسعة أعشار البشر . ولا تمتع بها انت الا لان تلك الاغلبية محرومة منها . فكيف تلومنا اذا اردنا ان نسحق نظاماً للملكية يحتم تطبيقه حرمان الاغلبية الساحقة من جميع اصناف الملك ؟

« ان الشيوعية لا تسلب الفرد حق الفوز بنصيبه من الثمرات الاجتماعية ، ولا تقصد بالسحق سوى القوى التي تسترق العمل بموازرة وسائل الملكية

« يقولون ان الغاء الملكية الشخصية يفضي الى قتل النشاط فيسود الخمول العالم بأسره ، ولو كان ذلك حقاً لكان المجتمع الرأسمالي قد ساده الخمول لان العاملين فيه لا يغنمون ، ويغنم فيه من لا يعملون

«وبعد فانا نسعى الى محو الاسرة ! إذ علامَ تستند الاسرة الرأسمالية في عصرنا ؟ انها تستند الى الرأسمال ، الى الربح الشخصي . اما الاسرة كاملة فلا توجد في ظل الرأسمالية ، بل انك لتجد عوامل هذا المحو ظاهرة في القضاء على كل أثر للاسرة بالنسبة للعامل ، وفي البغاء والفجور العام

« فهل تنعي علينا أنا نريد محو استغلال الآباء للابناء ؟ انا نقر بذاك الجرم

« تقول انا نمزق اطهر العلائق وأبرها اذا ما استبدلنا التربية العائلية بالتربية الاجتماعية ، ولكن أليست تربيتك الشخصية تخضع لاحكام المجتمع ؟ أليست تخضع للظروف الاجتماعية التي تربي فيها أولادك بوساطة المجتمع وساطة مباشرة او غيرها ، بمعاونة المدارس او غيرها ؟ ان الشيوعيين لا يبتدعون ذلك التدخل الاجتماعي في التربية ، ولكنهم يريدون فقط ان يغيروا من وجهته ، وأن ينتزعوا التربية من براثن الطبقة الحاكمة

« ان النظريات الرأسمالية بشأن الاسرة والتربية ، وبشأن تلك العلائق المقدسة

التي تربط الولد بأبويه تفقد عناصرها القلبية كلما عصفت الصناعة الكبرى بعلائق الاسرة العاملة وصيرت من اولادها سلعاً تجارية وآلات صماء »

هذا هو برنامج الهدم للدعوة الشيوعية آثرنا ان نورده على لسان امام الدعوة من وثيقة تاريخية يعتبرها تلاميذ المدرسة المركسية مرجعهم الاخير في حسم كل جدل شيوعي ، وفي وضع البرامج والنظم الشيوعية ، وفي رأينا أن في وضوحه وجلائه ما يغني عن كل افاضة واستزادة

٦ ـ يدفع ماركس بعد ذلك عن الشيوعية تهمة كثيراً ما وجهت اليها ، وما زالت توجه اليها وهي كون الشيوعية تقرر شيوع النساء فيقول :

« ان المرأة في نظر الرأسمالي ليست الا آلة للانتاج ، وهو يريد أن يفهم من وجوب وضع وسائل الانتاج في الشيوع أن النساء بالطبع سيخضعن كذلك لانظمة الشيوع

« فلشد ما يضحكنا هذا ! بل لشد ما يدعو الى السلوى حرص الرأسماليين على الفضيلة وخوفهم أن تنهار دولتها بسبب دعوة الشيوعيين المزعومة الى تقرير شيوع النساء بصفة رسمية . على أن الشيوعيين ليسوا في حاجة الى النداء بشيوع المرأة اذ هو أمر وجد تقريباً في جميع العصور

« لم يقنع الرأسماليون بالتصرف في عفاف نسوة العمال وبناتهم فوق ما أنشأوا من أنظمة البغاء الرسمي ، بل تراهم كذلك يأنسون لذة كبرى في تبادل الافتتات على نسائهم

« وليس الزواج بين الرأسماليين في الواقع الا شيوعاً بين النساء المتزوجات . وأسوأ ما يرمي به الشيوعيون هو أنهم يريدون أن يحلوا محل شيوع النساء بأساليب خبيثة مستترة شيوعاً رسمياً صريحاً . هذا الى أن الغاء وسائل الانتاج الحالية سيفضي بلا ريب الى الغاء شيوع النساء الذي هو نتيجة لازمة له ، ويقضي على الفجور المستتر والبغاء الرسمي »

أما القول بأن الشيوعيين يقصدون الى الغاء الوطنية والجنسية فيجيب عنه ماركس بما يلي :

« ليس للعمال وطن ما ، ليس في الاستطاعة أن نهبهم ما ليس لهم . وما دام انه واجب على الكتلة العاملة في كل بلد من البلاد أن تسعى أولا في انتزاع السلطة

السياسية وإخضاع الامة لسلطتها فان في هذا معنى الوطنية بذاتها ولو أنه ليس كذلك في عرف الرأسماليين

« ان الخصومات والاحقاد الوطنية بين مختلف الشعوب تذهب بالتدريج كلما ارتقت البورجوازي ، وتقدمت الحرية التجارية والاسواق الوطنية ، ونما التوفيق بين الانتاج الصناعي وظروف العيش المرتبطة به . ثم ان ظفر الكتلة العاملة سيؤدي الى سحقها بسرعة . والعمل المشترك بين الجماعات العاملة المختلفة على الاقل في الامم المتمدينة ، وسيلة من أهم الوسائل التي تؤدي الى تحرير هذه الجماعات

« إسحقوا استغلال الانسان للانسان ، فتصلوا الى سحق استغلال أمة لامة ، واذا ما ذهب عداء الطبقات داخل الامم ، ذهب عداء أمة لاخرى »

وأخيراً يجيب ماركس عن التهم التي ترمى بها الشيوعية باسم الدين والفلسفة فيقول :

« هل من حاجة لان يفهم النابهون أن الآراء والمعتقدات والنظريات ، أو بعبارة أخرى أن ضمير الانسان يتغير لكل تغير يصيب علائقه الاجتماعية أو حياته الاجتماعية ؟

« وهل تاريخ التفكير الا أن الانتاج العقلي يتطور بتطور الانتاج المادي ؟ ان الافكار السائدة في عصر من العصور لم تكن سوى أفكار الطبقة السائدة

« إنا اذا تحدثنا عن الافكار التي تقلب مجتمعاً بأسره فانا لا نذكر سوى أنه في مهاد المجتمع القديم تنشأ عناصر مجتمع جديد وان انحلال النظريات القديمة يتمشى مع انحلال العلائق الاجتماعية القديمة ، فالعالم القديم حينما صار الى الاضمحلال غلبت النصرانية على الاديان القديمة . وفي القرن الثامن عشر حينما غلبت النظريات الفلسفية على النصرانية أشهر المجتمع الاقطاعي آخر حرب له على البورجوازي التي كانت تنزع الى الثورة عندئذ ، ولم تفض نظريات الحرية الدينية وحرية الضمائر الا الى سيادة التنافس الحر في ميدان العلوم والمعارف

« سوف يقولون بلا ريب ان المبادىء الدينية والاخلاقية والفلسفية والسياسية والقضائية تتطور بتطور التاريخ ولكن الدين والاخلاق والفلسفة تحتفظ بثباتها دائماً أثناء ذلك التطور ، وانه توجد فوق ذلك حقائق خالدة مثل الحرية والعدالة وغيرها تغشي جميع الظروف الاجتماعية، والشيوعية تهدم الحقائق الخالدة لانها تهدم

الدين والاخلاق بدلاً من تشييدها على دعائم جديدة ، وهذا مناقض لكل تطور تاريخي سابق

« فما قيمة هذا الاعتراض ؟ ليس تاريخ أي مجتمع سوى تطور نزاع الطبقات، وهو نزاع كان يتخذ صوراً تختلف باختلاف العصور

« ولكن مهما كان من أمر الصور التي كان يتخذها هذا النزاع ، فان استغلال جماعة من المجتمع لاخرى حقيقة لم يخل منها عصر من العصور البائدة، فليس بغريب إذاً أن ضمير المجتمع في كل العصور كان يتخذ رغم كل خلاف ونزاع صوراً عامة معينة لا يمكن ازالتها الا أن يزول نزاع الطبقات »

٧ ـ واليك أخيراً برنامج الشيوعية الانشائي ، أو بالحري وسائل التنفيذ التي ترى اتخاذها لقلب المجتمع الحالي الى مجتمع شيوعي

يقول ماركس ، ان أول خطوة في نشوب ثورة العمل هي تنظيم الكتلة العاملة، وانتزاعها للسلطة ، وسيطرة الديموقراطية على السلطة العامة . ولا ريب أن ذلك لا يمكن تنفيذه في المبدأ دون انتهاك لحقوق الملك وعلائق الانتاج الرأسمالية أو بالحري دون الالتجاء الى وسائل اقتصادية تبدو أولا ناقصة منحرفة ثم تتقدم أثناء التطور من تلقاء نفسها . ولا مندوحة من تطبيقها لقلب وسائل الانتاج رأساً على عقب

ولا ريب أيضاً أن تلك الوسائل تختلف باختلاف البلدان . على أن الوسائل الآتية يمكن تطبيقها بصفة عامة على البلاد التي سبقت غيرها في ميدان التقدم والحضارة ، وهي :

(١) نزع الاملاك العقارية ، ومصادرة الايرادات العقارية لمصلحة الدولة

(٢) فرض ضرائب فادحة ، متدرجة في الضخامة

(٣) الغاء الوراثة

(٤) مصادرة أملاك جميع المهاجرين والعصاة

(٥) حصر الثقة المالية في الدولة بواسطة انشاء بنك أهلي ذي رأسمال أهلي له الاحتكار التام

(٦) وضع جميع وسائل المواصلات والنقل في يد الدولة

(٧) زيادة المصانع الوطنية وآلات الانتاج ، واستصلاح الاراضي المجدبة ، وتحسين المزروعة منها طبقاً لمشروع عام

(٨) فرض العمل الاجباري على جميع الافراد، وتنظيم جيش صناعي وخصوصاً لاداء الزراعة

(٩) وصل العمل الزراعي بالعمل الصناعي ، واتخاذ الوسائل لازالة الفروق بين الحقل والمدينة

(١٠) التعليم المجاني العام لجميع الاطفال ، والغاء عمل الصبية في المصانع ، ووصل التربية بالانتاج المادي ، وغير ذلك

ثم يقول ماركس ، ومتى زال نزاع الطبقات أثناء التطور ، وحصر الانتاج كله في أيدي الافراد ، فقدت السلطة العامة صفتها السياسية . والقوة السياسية انما هي في الحقيقة تسلط جماعة لاضطهاد أخرى ، فاذا انتظمت الكتلة العاملة أثناء صراعها للبورجوازي الى طائفة ، وانتزعت السلطة بواسطة الثورة فانها ، وقد غدت صاحبة السيادة ، تحطم بالقوة علائق الانتاج القديمة ، وتقضي في نفس الوقت على ظروف الحياة الفياضة بنضال الطوائف وبالجملة فانها تقضي على الطوائف ، ومن ثم تهدم سلطانها كطائفة . وعندئذ ينهض مكان المجتمع الرأسمالي القديم بطوائفه ونضاله مجتمع شعاره أن حرية التقدم لكل فرد شرط لحرية تقدم الجميع

ويختم ماركس بيانه بما يأتي : « وعلى الجملة فان الشيوعيين يؤيدون في كل مكان كل ثورة على النظم الاجتماعية والسياسية الحاضرة ، ويضعون في تلك الثورات مسألة الملكية في الطليعة (باعتبار أنها عماد الثورة الاساسي) مهما كان من تقدم الوضع الذي اتخذت أو تأخره

« ويعمل الشيوعيون أخيراً بالاتحاد والوفاق مع كل الاحزاب الديموقراطية في جميع بلاد العالم

« ولا يحاول الشيوعيون اخفاء مبادئهم وغاياتهم ، بل يجاهرون بمنتهى الصراحة أن غاياتهم لا يمكن تحققها دون قلب كل النظم الاجتماعية الحاضرة بطريق العنف والثورة . فويل للطبقات الحاكمة من فكرة الثورة الشيوعية ، فان العمال متى حطمت أصفادهم فلن تفوتهم بادرة من بوادر هذه الثورة ، ولا غرو فعليهم أن يغنموا عالماً بأسره !

« أيها العمال من أي البلاد اتحدوا ! »

٨ ـ وقد غدت الشيوعية منذ عهد ماركس رمزاً للثورة العالمية ، وانضوت تحت لوائها العناصر الخارجة والناقمة في معظم الامم المتمدينة ، فالى اي مدى استطاعت

الشيوعية كدعوة هدامة ان تصدع من صروح النظم التي تقصدها بالهدم والمحو؟ الواقع ان الشيوعية استطاعت ان تخطو الى الامام خطوات واسعة خصوصاً منذ خاتمة الحرب الكبرى، وأن تستغل لفائدتها وقوتها كل الازمات الاقتصادية والاجتماعية وكل ضروب البؤس والفاقة التي عصفت بالمجتمعات الاوربية في الاعوام الاخيرة. بيد ان اكبر ظفر نالته الشيوعية بل اعظم فتح في التاريخ فازت به حركة ثورية هدامة هو سحق الشيوعية لدولة القياصرة، وإقامتها هنالك فوق انقاض النظم القديمة مجتمعاً جديداً يستند في جوهره الى المبادىء الشيوعية، وهو ما سنعنى به في كلامنا عن البلشفية. هذا الى ان الشيوعية اصبحت عاملا خطير الأثر في السياسة الداخلية لمعظم الدول الكبرى، وفي السياسة الدولية عامة. ففي بعض الدول الكبرى مثل فرنسا والمانيا نرى الشيوعية قد انتظمت الى احزاب قوية منظمة، ونراها ماثلة في الهيئات النيابية التي تسيطر على مقاليد السياسة والحكم في تلك الدول، تؤثر أثراً واضحاً في تشريع هذه الهيئات وتصرفاتها. وكثيراً ما نشهد النضال يستعر بين الاحزاب الشيوعية والاحزاب الرجعية الخصيمة لها داخل الهيئات النيابية وخارجها خصوصاً اذا تعلق الامر بما يمس موقف العمال أو حقوقهم، او بالمسائل الخارجية التي يرى ان يشهر بها الشيوعيون اذاعة لدعوتهم، كما حدث اخيراً (في صيف سنة ١٩٢٥) في مجلس النواب الفرنسي من وقفة الشيوعيين الفرنسيين في وجه الحكومة الفرنسية لاشهار الحرب على الشعب الريفي، ومعارضتهم في اقرار الاعتمادات المالية التي طلبتها الحكومة للمضي في الحرب المراكشية، وتشهيرهم بجرائم العسكريين الفرنسيين في مراكش وأمثال ذلك من المصادمات العنيفة التي كثيراً ما تؤثر في موقف الحكومات وتصرفاتها الداخلية والخارجية

هذا وقد أسبغ انضواء الاحزاب الشيوعية في مختلف الامم تحت لواء الدولية الشيوعية في موسكو، على جهود الدعوة الشيوعية قوة عملية، فوحدت هذه الجهود اليوم وأصبح نفوذ الدولية الشيوعية يمتد بواسطة الاحزاب الشيوعية الى اقاصي العالم، بل ان أمة من الامم المتمدينة لا تكاد تخلو من أثر لهذه الجهود، وليس من حكومة منظمة الا وتشعر بأصبع الدولية يحيك في الخفاء بعض مشاريع التقويض والهدم لنظمها، ويندس من وراء ستار الى اعمق شؤونها. وسترى في ما نكتبه عن هذه الدولية الشيوعية مدى سيطرتها على شؤون روسيا، وقبضها على زمام الدعوات الثورية المختلفة، ومدى نشاطها في بث دعوة الثورة والهدم في جميع اقاصي العالم

الفصل الثالث

البلشفية — الدولية الشيوعية

(١) أصل التسمية . البلشفيكي والمنشفيكي . انتظام الحركة العاملة الروسية . مؤتمر ستوكهلم . مطاردة القيصرية للثوار . البلاشفة والحرب (٢) الحرب تمهد لوثوب البلشفية . العوامل التي أدت الى انفجار البلشفية . ثورة مارس سنة ١٩١٧ . عودة الزعماء البلاشفة الى روسيا . هل حرض البلاشفة من قبل المانيا . انتشار الثورة . فوز البلاشفة (٣) البرنامج البلشفي . تنفيذ المبادىء الشيوعية . عقد الصلح وانشاء الجيش الاحمر . الخوارج على الثورة (٤) لنين . نشأته وحياته . انشاؤه جمهورية السوفييت . نشاطه وبراعته الخارقة . عدول الدول الغربية عن عدائها الظاهر . أقوال لويد جورج . مكسيم جوركي يصف لنين . وفاة لنين (٥) النظم الحالية في روسيا . عنف الوثبة الشيوعية وهبوطها . توالي المصائب على روسيا . تعديل التجربة الشيوعية . عود الى معاملة الرأسمالية . الروسيا تطبق نوعاً من اشتراكية الدولة . الخلاف على السياسة الجديدة . الروسيا مبعث الروح الثورية (٦) الدولية الشيوعية . نشأتها وتطورها . لنين مؤسس الدولية الثالثة (٧) ماذا تعمل الدولية . الدولية جمعية سرية . غايتها الهدامة . مدى فوزها وتفوذها (٨) الدولية تقود الثورة في أنحاء العالم . الدولية وأمم المشرق . أقوال تسينوفييف رئيس الدولية . أقوال تشتشرين . الدولية تعمل في الظلام

١ـ نريد أن نلفت نظر القارىء بادىء بدء الى أن البلشفية ليست دعوة ثورية مستقلة بذاتها أو قائمة على مبادىء خاصة بها ، ولكنها مظهر معين فقط من مظاهر الدعوات الهدامة العلنية ، ونزعة من نزعاتها ، ففيها تمثل التهلزم ، والاشتراكية الثورية والشيوعية وكل ما تحتويه من مبادىء تقويض وهدم ، وهي صورة من صور الثورة العالمية ، أما تسميتها بالبلشفية فترجع الى حادث تاريخي في سيرة الحركة الاشتراكية الروسية ، وذلك أن مؤتمراً من حزب العمال الاشتراكي الروسي عقد في لندرة في صيف سنة ١٩٠٣ ، ونوقشت فيه مبادىء الحزب فاقترح واحد من أعلام أعضائه وهو مارتوف تعريفاً للعضو أنه هو الذي يقر برنامج الحزب ، ويساعده بماله ، ويشترك دائماً في أعماله تحت اشراف لجنة من لجانه . وكان لنين من شهود هذا المؤتمر ومن اقطاب هذا الحزب فاقترح تعديلا لتعريف مارتوف ان العضو فضلا عن اقرار برنامج الحزب ومساعدته بالمال يجب أن يقوم بدور فعلي في احدى جماعاته فوافقت على هذا التعديل أغلبية من ثلاثة ، وأطلق على هذه الاغلبية كلمة « البلشفيكي » (بالروسية الاغلبية) ، وأطلق على الاقلية « المنشفيكي » (الاقلية)

هكذا كان مولد الكلمة التي طبقت شهرتها انحاء العالم في الاعوام الاخيرة ، وقد غدا اولئك البلاشفة (البلشفيكي) الذين التفوا حول لنين قادة الثورة الروسية الاخيرة ، وعرفت مبادؤهم بالبلشفية ، على انها ليست سوى الشيوعية او الاشتراكية المركسية

وقد رأينا ان النهليزم كانت مهاداً للحركات الثورية الروسية ، وفاتحة لاطوار الثورة الاشتراكية . على ان نشاط الثورة الاشتراكية وتقدمها الحقيقي يبدأ منذ انحلال جماعات النهليست في اواخر القرن التاسع عشر ، فعندئذ نظمت احزاب العمال الروسية ، وبدأت دعوتها وجهودها بنشاط مضاعف ، وبرزت الى قيادتها الشبيبة الروسية المتنورة، ولم تمض على عقد مؤتمر لندرة المذكور اعوام ثلاثة حتى استطاع الزعماء الثوريون ان يضرموا نار ثورة منظمة لقلب الحكومة القيصرية بيد انها اخفقت . فعقد زعماء الثورة في العام التالي مؤتمراً هاماً في ستوكهلم سعى الى توحيد جهود الجماعات الثورية ووضع برنامج عام موحد تهتدي جميعها بمبادئه ، وبحث مسألة الارض في روسيا بحثاً مستفيضاً ، وقرر ان تجتمع كل القوات الثورية الروسية يداً واحدة على القيصر ، وأن تضرم نار ثورة جديدة . وفي مايو سنة ١٩٠٧ عقد الزعماء مؤتمراً ثالثاً في لوندره شهده اكثر من ثلثمائة مندوب ، وصودق فيه على جميع قرارات مؤتمر ستوكهلم

على أن القيصرية لم تكن غافلة عن حركات الثوار الروس ، فنشطت كذلك الى مطاردة الاحزاب والجمعيات الثورية في جميع انحاء روسيا حتى اضطر الزعماء الى نقل مركز الحركة الى الخارج ، واختاروا مدينة جنيف مستقراً لجهودهم ، وهاجر من روسيا عدد جم من الطلبة والثوار فراراً من نقمة الحكومة واتقاءً لغدرها ، وتفرقوا في مختلف العواصم الاوربية وأخذوا يبثون الدعوة ضد القيصرية . وفي جميع هذه الاطوار كان التفريق بين البلشفيكي والمنشفيكي يزداد وضوحاً وقوة ، وان كان الفريقان لم ينقطعا عن العمل لغاية واحدة ، غير ان نشوب الحرب كان نذيراً باشتداد الخلاف بينهما . ذلك أن المنشفيكي كانوا يرون ان الحرب ظاهرة محتومة وقد وقعت فلا سبيل الى وقفها ، اما البلاشفة (البلشفيكي) فكانوا يرون ان الحرب انما اثارها اصحاب الاموال في جميع الدول سعياً الى انتزاع مغانم وأراضي جديدة فهي حرب رأسمالية لا بد من وقفها

٢ ـ وكان للبلاشفة منذ نشوب الحرب برنامج عملي وغايات واضحة ، وقد اشار اليها كاتب عن البلشفية بقوله :

« كان البلاشفة يرون أن بث الاخاء بين اخوان العمل من جميع الامم في أعماق الخنادق وسيلة من أنفذ وسائل السلام وقد استخدموا هذه الوسيلة الى أقصاها ، وهي نفس الوسيلة التي أضرمت نار الحركة الثورية في النمسا والمانيا لسحق ما دبره الرأسماليون فيهما للوثوب لآخر مرة بالمدن الهادئة . ويقول البلاشفة ان هذا الوثوب انما هو أحد الجهود العصبية الاخيرة الرأسمالية »

وعلى أي حال فقد مهدت الحرب الى وثوب البلشفية وظفرها النهائي . ومن الصعب حتى الآن أن نحدد العوامل والظروف التي استطاع البلاشفة أن يستغلوها للقيام بثورتهم وخلق روسيا السوفيتية . بيد أنه يمكن القول بأن البأساء التي جرتها الحرب على الشعب الروسي ، وسخطه من جراء ذلك على الزعماء والقادة ، واعتقاده أن المسئولية في كل ما نزل به من هزائم ومصائب ترجع الى القيصرية وأعوانها ، كانت من أهم العوامل التي استطاع الزعماء الثوريون أن يعتمدوا عليها في اضرام نار الحركة الثورية التي انتهت أولا بعزل القيصر واسقاط حكومته وتأليف حكومة مؤقتة في مارس سنة ١٩١٧ ثم بسقوط هذه الحكومة المؤقتة ، وقيام الحكومة البلشفية في اكتوبر سنة ١٩١٧

على أن الثورة الاولى اي ثورة مارس سنة ١٩١٧ لم تكن ثورة بلشفية لا في أصلها ولا تطورها بل كانت ثورة ديموقراطية يقصد بها قبل كل شيء الى التخلص من النفوذ السري الالماني الذي كان يهيمن على حكومة القيصر اذ ذاك ويشل من حركات الجيوش الروسية ، فلما سقطت حكومة القيصر وتألفت الحكومة المؤقتة برياسة كرنسكي عاد الزعماء البلاشفة من منفاهم الى روسيا . على أن القيصرية ذاتها لم تكن قد سحقت بعد وكان على الشعب أن يسحقها بنفسه ، ولهذه الغاية عاد البلاشفة معتزمين أن ينتهزوا فرصة الثورة العامة ليخرجوا دعوتهم ومبادئهم من حيز القول الى حيز الفعل وليطبقوا النظم التي لبثوا يعملون لبثها مدى الحياة

وكان أشهر أولئك الزعماء البلاشفة لنين (واسمه فلادميرالتش أوليانوف) الذي غدا أول رئيس لجمهورية السوفيت ، وتروتسكي (أو براونشتين) الذي غدا روح الجيش الاحمر ، وتسينوفيف (او ابفلباوم) الذي غدا رئيس الدولة الشيوعية . وقد أذيعت عن مقدمهم الى روسيا في ذلك الظرف روايات كثيرة خصوصاً لانهم

قدموا من طريق المانيا في قطار حربي ، فقيل ان الحكومة القيصرية الالمانية هي التي استقدمتهم من المنفى وأمدتهم بالمال والتعليمات لبث الثورة واحداث الاضطراب في صفوف الجيش الروسي تسهيلا لهزيمته او بعبارة اخرى انهم كانوا خونة مأجورين . على أن فيما تلا من الحوادث ما يدحض من مثل هذا الزعم . صحيح ان البلاشفة جازوا المانيا الى روسيا في قطار حربي الماني . ولكن ذلك لانه لم يك ثمة طريق اخرى توصلهم الى روسيا ، وقد فعلت الحكومة الالمانية ذلك بعد مفاوضات جرت بينها وبين مكتب العمل الدولي في جنيف حيث طلب اليها أن تسمح بمرور الزعماء البلاشفة في ارضها ليصلوا الى وطنهم، وكذلك لعلمها ان البلاشفة يعارضون في استمرار الحرب، فاذا استطاعوا ان يبثوا دعوتهم في روسيا فقد تصل الى عقد صلح منفرد مع روسيا يمكنها من الضغط على الحلفاء في الميادين الاخرى . هذا الى ان نفس الظروف التي كانت سائدة وقتئذ في روسيا كانت مما يقوي هذا الامل ، فقد كانت حكومة كرنسكي ضعيفة متخاذلة ، وكان اليأس قد تسرب الى الطبقات المتنورة ، ودب الاختلال الى صفوف الجيش ، وعصف الجوع بجميع الطبقات وهبت على الشعب الروسي ريح عاتية من الشقاء والبؤس

والحقيقة ان الثورة التي أودت بحكومة القيصر وانتهت بقيام الحكومة المؤقتة برياسة كرنسكي كانت احتجاجاً على الحرب ، وكان قوامها العناصر الاشتراكية والديموقراطية ، على ان هذه الحكومة المؤقتة لم تستطع لضعفها ان تحقق شيئاً من الغايات الثورية التي نادت بها عند تولي الحكم ، ولم تعدل سياسة الحرب ولا غاياتها تعديلا يتفق مع المبادىء الديموقراطية التي نادت بها الثورة ، بل كان من ضعفها ان وافقت اركان حرب الحلفاء على القيام بهجوم يوليه سنة ١٩١٧ وهو الذي انتهى بنكبة تاربنول التي مزقت الجيوش الروسية وقتلت قواها المعنوية . هذا الى أنها لم تفعل شيئاً لتحرير الصناعة الروسية والكتلة العاملة الروسية من عسف أصحاب الاموال والصناعات، ولم تحدث تغييرات اقتصادية تخفف من ويل الفلاحين والطبقات العاملة. فلما يئس الفلاحون من صدور القوانين الزراعية الجديدة وتحقيق الوعود التي قطعتها الحكومة على نفسها ثاروا في أنحاء كثيرة من الاقاليم واستولوا بأنفسهم على الضياع الشاسعة وطردوا وقتلوا أصحابها ، فبعث اليهم كرنسكي بشرادم من قوى الحكومة تمعن فيهم تشريداً وقتلا

وهكذا خابت كل الآمال التي عقدت على قيام حكومة الثورة ، فلم يعقد الصلح ،

ولم يعمل شيء لتخفيف الآلام والبأساء التي يعاني ويلها الشعب . وهنا تعالت الصيحات من كل ناحية « ان الثورة تحتضر ! ، لقد ماتت الثورة ! » وبرز البلاشفة الى الطليعة ، واشتدت الدعوة في الجيش على الحكومة المؤقتة ، وتفاقم الاضطراب في كل ناحية ، وأرعد شبح الجوع وأبرق ، فلم يمض صيف سنة ١٩١٧ حتى كانت الدعوة البلشفية قد اجتاحت صفوف الجيش ، وذاعت في معظم المدن والضياع ، وانهارت صروح حكومة كرنسكي ونظمها في اكتوبر سنة ١٩١٧ ، وقبض البلاشفة على مقاليد الحكم في أوائل شهر نوفمبر وأخذوا في تشييد الجمهورية الاشتراكية التي يعيش الشعب الروسي في ظلها حتى اليوم

٣ ـ كان للبلاشفة ، وهم دعاة الشيوعية كما رأيت ، برنامج ضخم . كان عليهم أن يخرجوا من تلك الكتلة البشرية الهائلة ـ روسيا التي اضناها عسف القياصرة وحكوماتهم مدى القرون ، مجتمعاً جديداً في عقليته يدين بمبادىء جديدة او بعبارة أخرى كان عليهم أن يخرجوا من الشعب الروسي مجتمعاً شيوعياً منظماً هو الاول من نوعه في تاريخ المدنية

وقد نشط البلاشفة الى اجراء هذه التجربة الهائلة بعزم ، فبدأوا عملهم غداة ولايتهم للحكم باصدار قانون هو حجر الزاوية في صرح المبادىء الشيوعية، وهو القاضي « بالغاء الملكية الفردية والضياع الخاصة » ، ونقل ملكية جميع الضياع والاراضي الخاصة والامبراطورية والكنسية بما عليها من عقار وماشية ، وجميع الابنية العامة والخاصة الى اللجان والمجالس المحلية (السوفييت) ، ونزعها جميعاً بلا تعويض لجانب الامة ، ولمصلحة الفلاحين الذين يتولون زرعها واستثمارها اما افراداً او جماعات طبقاً لما تملي به ظروف القرية أو الضيعة وطبقاً لما يقرره المجلس المحلي (السوفييت) ، ونزع المصانع من ايدي اصحابها وتسليمها للعمال لادارتها واستثمارها ، ووضعها تحت ادارة مجلس اقتصادي أعلى ، وتقرير يوم الثمان ساعات ، وتقرير الاجور طبقاً لارفع نسبة من الثمرات ، وتأمين العمال ضد المرض والحوادث ، ونقل جميع البنوك الى ملكية الدولة ، وفصل الكنيسة عن الدولة فصلا تاماً ، وتعميم التعليم المجاني ، والغاء الوراثة، والغاء جميع الفروق الاجتماعية بين الطبقات ، وجميع الالقاب والرتب المدنية ، الى غير ذلك من القوانين التي تستند جميعها الى الروح الشيوعي والى تعاليم ماركس

وسر نجاح البلاشفة في اقامة النظم الجديدة على دعائم متينة يرجع بالاخص الى اسراعهم في عقد معاهدة برست ليتوفسك مع المانيا وانقاذ روسيا بذلك من شبح

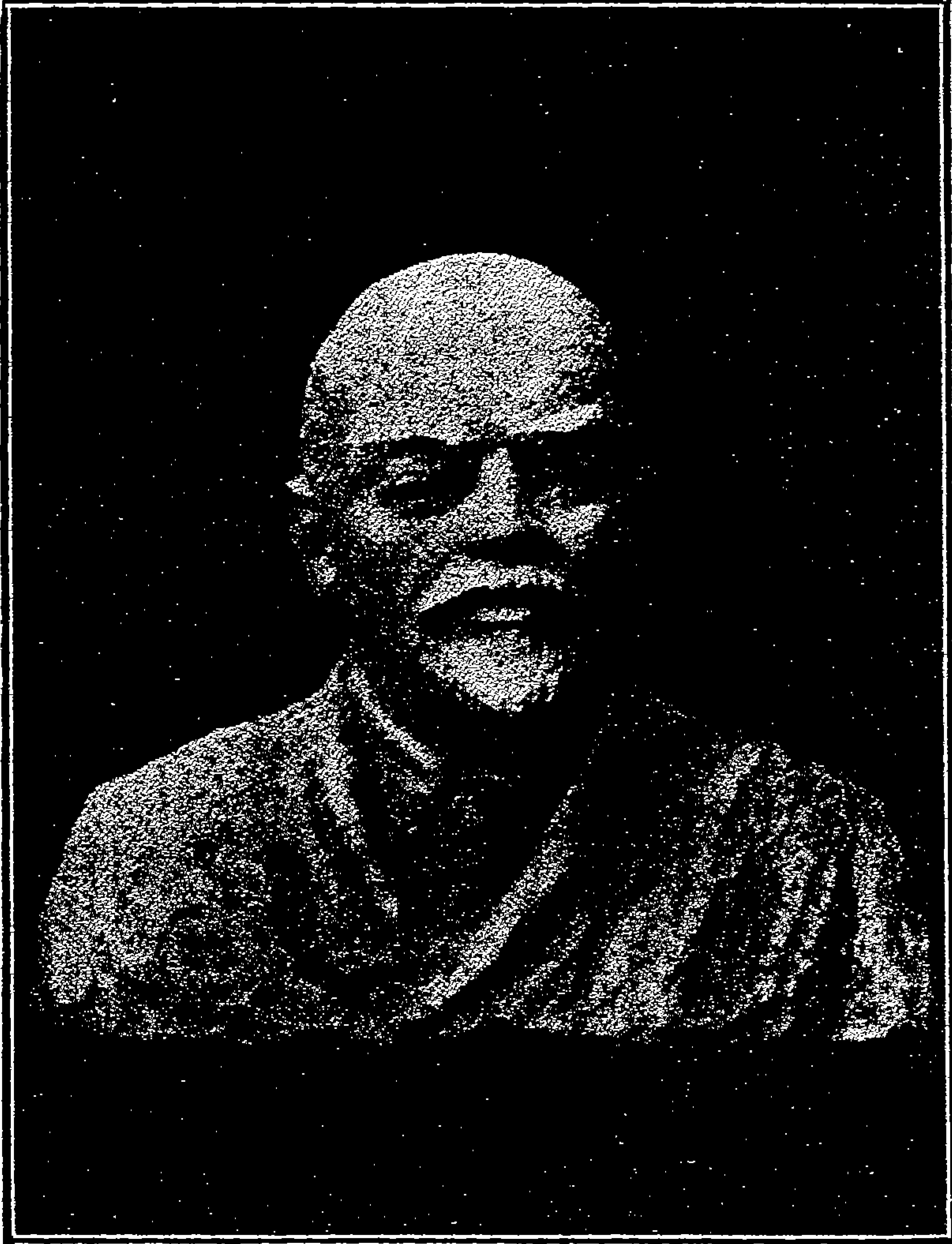
المجاعة الداهمة والانحلال الاخير ، والى تأليف جيش لحماية الثورة فوق أنقاض الجيش القيصري ، وهو الجيش الاحمر الذي كان لتروتسكي أكبر فضل في انشائه وتنظيمه ، والذي يعتبر بحق سياجاً منيعاً للثورة ودعامة أولية لصروح البلشفية . هذا الجيش الاحمر هو الذي سحق الخارجين على الثورة بادىء بدء ، ومزق جيوش المارقين والمأجورين الذين دفعتهم الدول الغربية للقضاء على الجمهورية الوليدة قبل ان يشتد ساعدها _ أولئك امثال كولتشاك ودنيكين ويودنتش وفرانجل الذين حاولوا بمؤازرة الحلفاء وأموالهم وذخائرهم ان يسحقوا الثورة الروسية ، وأن يهدموا صرح البلشفية في مهاده ، فسحقتهم جيوش الثورة وأبادت فلولهم ، وخابت آمال الحلفاء وأعداء الاشتراكية ، وسما شأن البلشفية واشتد ساعدها ، وقامت صروحها شامخة الذرى فوق دعائم ما زالت الى اليوم ثابتة وطيدة

٤ _ لا يسمح لنا المقام بالافاضة في الطرق والاساليب التي سار عليها البلاشفة في تطبيق التجربة الشيوعية ، فتلك مناهج واجراءات ادارية كانت وما زال تتغير وتتطور غير انا نرى من واجبنا أن نقول كلمة موجزة عن الرجل الذي استطاع بعزمه الفياض وذكائه الخارق أن يجعل من مثل ماركس حقيقة واقعة ، وأن يقيم بمؤازرة زملائه الاعلام أول جمهورية اشتراكية في التاريخ

ذلك الرجل هو لنين ، أعظم تلاميذ المدرسة المركسية ، وأعظم دعاة الثورة العالمية ، ومنشىء الدولية الشيوعية الثالثة ، وأول رئيس لجمهورية روسيا الاشتراكية

وُلد لنين في سمبرسك من أعمال الفولجا في ابريل سنة ١٨٧٠ ، وتلقى علومه في جامعة قاظان ودرس القانون ونال اجازته فكان له أن يجني ثمار العمل الفني والمهن الحرة وأن ينعم بحياة الترف والرفاهة . على انه نبذ الحياة الهادئة الناعمة ليخوض غمار الحركة العاملة ، وأسس مع نفر من صحبه حزب العمال الاشتراكي الروسي سنة ١٨٩٧ ، ولكن سرعان ما أصابه ما كتب لكل عامل في حركة التحرير الروسية ، اذ قبض عليه وزج الى ظلمات سيبريا . فلما قضى مدة العقوبة غادر الروسيا وتجول حيناً في لندره وميونيخ وجنيف . واستقر في جنيف منذ سنة ١٩٠١ وأسس هنالك صحيفتين الاسكرا (الشعلة) وتساريا (الفجر) ، ولبث يعمل بقلمه ولسانه لنصرة حركة التحرير الروسية مع رفاق غدوا من أعلام الثورة فيما بعد منهم تروتسكي وتسينوفيف . وفي سنة ١٩٠٥ عاد الى الروسيا حيث خاض غمار الثورة الاشتراكية التي اضطرمت على أثر هزيمة اليابان لروسيا ، وأصدر في بتروجراد (لنتجراد) أول

صحيفة اشتراكية علنية ، ولكن سرعان ما أخمدت الثورة ، ونشطت القيصرية الى مطاردة مضرميها ، ففر لنين الى فنلنده ، ثم غادرها حذراً من عيون القيصر الى



لنين

سويسره . ثم تجول حيناً في غاليسيا. ولما نشبت الحرب الكبرى كان مقيماً في سويسره فنشط مع رفاقه في المنفى الى الدعوة ضد الحرب واستغلال كل مصائبها ونكباتها لايقاظ الحركة الثورية التي كادت ان تخمد جذوتها أمام الفكرة الوطنية التي طغت في

بدء الحرب على كل دعوة ثورية، وصدعت من صفوف الاشتراكية، واصابتها بضربة شديدة . وكان هذا الرجل ، ذو الفكر الثاقب ، والنظر البعيد يكاد يستشف من دخان المدافع ، والتحام الصفوف ، مصائر وطنه روسيا التي كانت تتلقى أشد ضربات العدو ، فيرى نجم القيصرية يتضاءل ، ومصائرها في كفة الميزان ، ويرى المستقبل ينذر بخلق روسيا جديدة تنهار فيها صروح من الطغيان ليقوم فوق أنقاضها مجتمع جديد قد تظفر الثورة بأن تحقق مثلها فيه

وهكذا لبث لنين ورفاقه البلاشفة يرقبون تطور الحوادث في منفاهم حتى أذنت الساعة بانحلال القيصرية وسقوط حكومتها في بتروجراد على يد الاشتراكيين الوطنيين والبورجوازي الصغيرة ، وقيام الحكومة المؤقتة في مارس سنة ١٩١٧ . عندئذ عاد لنين وصحبه الى روسيا كما قدمنا ، وبثوا دعوتهم في الجيش والضياع ، وسحقوا بدورهم حكومة البورجوازي الصغيرة ، وأقاموا حكومة الثورة ، ونادوا باعلان جمهورية السوفييت الاشتراكية

وهنا ظهرت مواهب هذا الرجل العبقري رائعة خارقة ، فقد استطاع في غمار هائلة من الصعاب والخطوب أن يسير دفة المجتمع الجديد ، الفذ في نظمه وغاياته ، بمهارة مدهشة، واستطاع ان يرعى الثورة الفتية ، وان يحيطها بسياج منيع من الحماية المادية والمعنوية ، فلم يمض عام حتى كانت الجمهورية الجديدة قد جازت أشواطاً كبيرة في سبيل النظام والاستقرار وكان الجيش الاحمر الناشىء على أهبة لان يلقى أعداء الثورة في ميدان القتال . وكانت الدول الغربية ترقب تطور الثورة باهتمام ، فلما شاهدت نموها وتقدمها بتلك السرعة الفادحة خشيت أن يمتد لهيبها الى ما وراء روسيا من الشرق او الغرب او الجنوب ، فجردت لسحقها الحملات المتوالية ، وجهزت الخارجين والطامعين بالاموال والذخائر ، وبعثت الى قلب الروسيا بجيوش كولتشاك ودنيكين ويودنتش وفرانجل . فلقيت جميعاً حتفها على يد الجيش الاحمر ، ولجأت الدول الغربية وخصوم الثورة الى سلاح الدعوة أيضاً فأشهروا على البلشفية وزعمائها حملات هائلة وأذاعوا عن مبادئها تهماً رائعة، ومع ذلك فان معاقل البلشفية نجت من عدوانهم ، وقوي مركز الحكومة الاشتراكية ، وسارت الى تذليل مصاعبها بقدم ثابتة ، فاضطرت الدول الغربية أن تغير سياستها ، وان تكف عن عدوانها العلني ، وان تسعى الى مسالمة روسيا ظاهراً صوناً لمصالحها الاقتصادية . وكانت انجلترا أول من آمن بمتانة روسيا الجديدة وصولتها فكانت اول من مد يد التفاق

والموارية لمصالحة لنين وجمهوريته ووقف المستر لويد جورج رئيس حكومتها يومئذ يدافع عن الاتفاق الانجليزي الروسي في مجلس النواب في مارس سنة ١٩٢١ بقوله: « ان حكومة السوفييت تقبض على زمام الحكم في ارجاء روسيا العظيمة بقدر ما تستطيع أن تفعله أية حكومة اخرى في الظروف الحاضرة ، ولا أستطيع الجزم بما اذا كان النظام الحاضر (البلشفية) سيعمر طويلا او يضمحل فان كل تكهن بذلك قد خيبته الحوادث »

وقد برهن لنين منذ الساعة الاولى على انه رجل العقيدة الذي لا ينزل عن عقيدته ، ورجل المبدأ الذي يتفانى في تطبيقه فلم يقبل مساومة في العدول عن تأييد الثورة داخل روسيا وبثها في أركان العالم الخارجي ، وكانت هذه عقبة كؤود في سبيل اتفاق الروسيا مع الدول الرأسمالية وتنظيم شؤونها التجارية والاقتصادية، على ان تتابع الحوادث ، وثبات الجمهورية الجديدة واشتداد ساعدها لم تلبث أن حملت باقي الدول الغربية على اقتفاء أثر انجلترا ومفاوضة روسيا حتى غدت جمهورية السوفييت الآن معترفاً بها من جميع الدول الغربية واستؤنفت بينهما جميع العلائق السياسية والاقتصادية ، وان كانت الحرب الخفية بينهما لم تنقطع لحظة كما سنرى

كان لنين روح الجمهورية الجديدة ، ورأسها المفكر ، ومعقلها المنيع ، وكان أيضاً روح الثورة داخل روسيا وخارجها ، واليك ما وصفه به مواطنه الفيلسوف مكسيم جوركي شيخ أبطال الادب الروسي اليوم : « ان الدور الذي قام به لنين كمصلح روسيا الاجتماعي يتضاءل أمام عظمته كمجاهد في بث الثورة العالمية ، فهو ليس فقط بالرجل الذي اصطفاه التاريخ لتحقيق تلك الغاية الهائلة ، وهي أن يسبر غور هذه الكتلة البشرية الرائعة المختلة الواهية التي تسمى روسيا وان ينفذ الى صميم نظمها ، بل ان ارادته فوق ذلك مورد لا ينضب ، وضرباته القوية تهز أسس الدول الرأسمالية الغربية ذات الابنية الشامخة الى أعماقها ، وتصدع من بنيان تلك الامبراطوريات الشامخة التي قامت بالمشرق على أسس الاستبداد والنصب »

وهكذا لبث لنين يعمل لتعزيز أركان الجمهورية الجديدة بكل ما أوتي من ذكاء وعزم حتى توفي في يناير سنة ١٩٢٤ ، وكانت وفاته ضربة مؤلمة للثورة الفتية يخشى أن تودي بحياتها في المهد ، ولكن الثورة الفت في خلفاء لنين أمثال ريكوف، وتروتسكي وكامنيف وستالين وتسينوفييف وبوخارين وتشتشرين دعائم راسخة تستطيع أن تركن اليها في سلام وأمن

٥ ـ والآن فالامَ آلت التجربة البلشفية ، وما هي حقيقة النظم التي تعيش روسيا في ظلها اليوم ؟ لقد رأيت أن البلاشفة بدأوا بتطبيق المبادىء الشيوعية الخالصة وشادوا مجتمعاً جديداً يقوم في جوهره على التعاليم المركسية . وقد نهض هذا المجتمع الفذ في روحه وغاياته في غمر من الصعاب الفادحة ، ولبث أقطابه يجاهدون في تأييده وحمايته بكل ما استطاعوا من ضروب التعهد والرعاية . ولكن الوثبة كانت هائلة ، وكانت الظروف التي اقترنت بها غاية في الارهاق والشدة ، وكانت تركة الحرب طافحة بصنوف المصائب والبأساء ، وكانت الطبيعة فوق ذلك قاسية ضنينة حيث نكبت بالشرق والجدب أخصب وديان روسيا الشاسعة التي كانت تفيض عليها بوافر قمحها حتى ألفت الحكومة الفتية نفسها لاعوامها الاول وجهاً لوجه أمام شبح الجوع الهائل، كل ذلك والدول الغربية تسلط حملاتها على الروسيا من كل صوب ، وتمعن في حصر شواطئها وحدودها وقطع مواصلاتها مع الخارج حتى تصبح اكثر تعرضاً لمخاطر الجوع وحتى تضمحل الثورة وتنهار صروح البلشفية

ومع ذلك فقد ناضلت روسيا الحمراء ، واحتملت كل مصائبها بشجاعة وجلد ، وخرجت ظافرة من تلك المعركة الهائلة . على أن لنين وصحبه من أقطاب الثورة رأوا أن لا نهوض لروسيا من الوجهة الاقتصادية وأن لا حياة لصناعتها وزراعتها مع العزلة والتجرد من الوسائل المادية وآلات الانتاج ، بل أن لا حياة للثورة ذاتها الا بانتعاش الشؤون الاقتصادية وضمان قوت الشعب وحاجاته الضرورية ، وان الاستمرار في تطبيق التجربة الشيوعية بصورتها المتطرفة في تلك الظروف خطر على الانتاج الزراعي والصناعي . لذلك قرروا تعديل النظم الجديدة ، والوقوف في تطبيق القواعد الشيوعية عند مرحلة معينة ، وبدأت هذه السياسة الجديدة في حياة لنين ذاته ، وكان تطبيقها مشجعاً لكثير من أصحاب الاموال الاجانب على وضع أموالهم في مشاريع الانتاج الروسية ، والدول الغربية على استئناف علائقها الاقتصادية مع روسيا . ثم ان خلفاء لنين دفعوا هذه السياسة التي تسميها موسكو بالسياسة الاقتصادية الجديدة الى حدود بعيدة كادت في الواقع تجعل من النظم الشيوعية شبحاً ليس غير ، ذلك ان حكومة السوفييت قد أعادت نظام الملكية الفردية بصور مخففة وقيود معينة بالنسبة للاراضي والابنية ولم تحتفظ من المرافق العامة للملكية الدولة الا بالمشاريع والاعيان الكبيرة مثل المناجم والغابات والمصانع وبعض الضياع الشاسعة التي تستغلها الدولة لحسابها ، وأجازت الميراث بقيود عديدة ايضاً ، وأجازت التجارة الشخصية الى نسب

ومقادير معينة ، ومنحت كثيراً من الامتيازات للشركات الاجنبية والممولين الاجانب باستثمار مشاريع وأراضي روسية وغير ذلك مما يتنافى مع المبادىء الشيوعية الخالصة . والحقيقة أن روسيا السوفيتية لا تحتفظ اليوم من النظم الشيوعية الا بقسط ضئيل هو أشبه باشتراكية الدولة منه بالشيوعية الخالصة . بيد أن هـذه السياسة الاقتصادية الجديدة ليست في نظر مؤيديها من اقطاب الشيوعية ودعاة الثورة الا ضرورة مؤقتة ، وخطوة لازمة لحماية الثورة في أعوامها الاول ، فاذا بلغت الثورة أشدها استطاعوا تنفيذ البرنامج الشيوعي الى أقصاه . ومع ان هذه السياسة افضت الى تحسين شؤون روسيا الاقتصادية الى حد كبير وكانت عاملا في انهاض صناعتها وزراعتها ، فانها تلقى معارضة كبيرة من الدعاة المتطرفين مثل تسينوفيف رئيس الدولية الشيوعية ، والفيلسوف بوخارين وغيرهما ممن يشفقون على مصير الثورة من هذا التقهقر والرجوع الى النظم القديمة ، ويعتبرون المضي في هذه السياسة خيانة لقضية العمل

ومهما يكن مدى تطبيق النظم الشيوعية في روسيا السوفيتية في الآونة الحاضرة ، ومهما تكن مناقضة سياستها الاقتصادية الجديدة للتعاليم المركسية الخالصة ، فان هنالك حقيقة ثابتة تجثم وراء كل سياسة روسية في الداخل او الخارج هي أن أقطاب الثورة والهدم الذين يقبضون الآن على مصائر روسيا يعملون على بث الروح الثورية في جميع أركان العالم المتمدين بكل ما أوتوا من قوة وموارد ، ولا يغفلون أية فرصة او يحجمون عن أية تضحية في سبيل تحقيق مثلهم الاعلى : ثورة العمل العامة او الثورة العالمية

هذه الجهود الهدامة التي يبذلها دعاة الثورة تنتظم كلها تحت لواء هيئة ثورية هائلة ، لعلها اعظم أداة هدامة عرفها التاريخ : تلك هي الدولية الشيوعية الثالثة

الدولية الشيوعية

٦ ـ ذاع أمر هذه الدولية الشيوعية ، واعتدنا أن نسمع باسمها ماثلا في الشئون الدولية ، واثرها محسوساً في توجيه السياسة العالمية . ومع ذلك فالدولية الشيوعية قوة خفية اكثر منها هيئة ظاهرة ، هي فكرة يحملها جيش هائل من الدعاة يجتاحون أرجاء العالم ، تشهد أعمالهم ولا تراهم ، وتهيمن أشباحهم المظلمة في أفق كل اضطراب او ثورة ، ويهرع الى لوائهم كل ناقم ويائس ومغامر . هذه هي الدولية الشيوعية التي تقبض موسكو على ناصيتها ، ويسيرها خلفاء لنين وتلاميذه دعاة الثورة العالمية

وأصل هذا النظام فكرة مركسية ، ففي سنة ١٨٦٤ أسس كارل ماركس كما قدمنا جماعة العمل الدولية ولكنه لم يوفق الى جعلها هيئة دولية بمعنى الكلمة اذ طاردتها الحكومات المختلفة ومزقها خلاف الزعماء . بيد انها كانت نواة للاحزاب الاشتراكية السياسية في كثير من الدول الاوربية . وهذه هي الدولية الاولى وقد استمرت الى سنة ١٨٧٢

أما الدولية الثانية فقد انتظمت لاول مرة في سنة ١٨٨٩ واستمرت تعقد مؤتمراتها حتى سنة ١٩١٤ ، وكان يغلب عليها الاعتدال والمسالمة في معاملة أصحاب الاموال فكان ذلك سبباً في اضمحلالها وضعف نفوذها . وكان آخر مؤتمر عقدته قبل الحرب في أوائل سنة ١٩١٤ بزعامة نفر من زعماء الاشتراكية المعاصرين مثل الهر كارل كاوتسكي، والمسيو فاندرفلد ، والمستر ماكدونالد . ثم جاءت الحرب فغاضت النزعة الدولية ، وغلبت النزعة القومية على جميع الاحزاب الاشتراكية . ولكن الثورة البلشفية التي سحقت القيصرية والدعوقراطية الرجعية في سنة ١٩١٧ بعثت الى النزعة الدولية روحاً جديداً

أما الدولية الثالثة فقد بدأ البلاشفة بوضع أسسها في اوائل سنة ١٩١٨، واجتمع مؤتمرها الاول في مارس من هذه السنة

وضع لنين وصحبه أسس هذه الدولية الثالثة ، وسميت بالدولية الشيوعية تمييزاً لها من الدولية الثانية التي يعتبرها لنين وأنصاره مروقاً على قضية الشيوعية ، ويعتبر زعماءها خونة مغبين ، وانتخب لرياسة مجلسها التنفيذي داعية من أعظم دعاة الثورة العالمية هو تسينوفيف رفيق لنين في المنفى وساعده الايمن في تنفيذ مشاريعه ومبادئه

يقول لنين في كلامه عن الدولية الشيوعية : « ان هذه الدولية الثالثة هي خليفة الدولية الثانية ، ولكنها قد طهرت نفسها من تلك الادران التي لوثت مُثل الدولية الثانية من أفكار البورجوازي الصغيرة ، والمشاريع الرجعية النفعية . وأهميتها في التاريخ ترجع بالاخص الى أنها قد شرعت في تطبيق نظرية ماركس التاريخية على الكتلة العاملة أعني أن نضال الطوائف ينتهي بنتيجة محققة هي فوز العمال واستئثارهم بالسلطة . وقد انقضى عهد دعوقراطية البورجوازي الصغيرة كما انقضى عهد الدولية الثانية بعد ان ادت كل منهما وظيفتها في ربط حركات الكتلة العاملة ومراحل تقدمها نحو الفوز النهائي »

٧ــ وقد مضت أعوام ودولية لنين تعمل في الظلام والخفاء . فماذا تعمل الدولية

والامَ توجه جهودها القادحة ؟ ان أحداً لا يستطيع ان يزعم ان الدولية الشيوعية التي أضحت تروع دول الاستعمار وحكومات العالم بأسره بجهودها وغاياتها هي فقط تلك الهيئة التي نراها تعقد مؤتمراتها السنوية في موسكو في علانية وجهر ، او يزعم انه يستطيع أن يحصي بالضبط ماذا تقرره الدولية وراء جدران الكرملين ، او ماذا تقوم به في مختلف الميادين السياسية والاجتماعية . وهذا القصور في الالمام بأسرار الدولية طبيعي ، فالدولية جمعية سرية هائلة ، وما كان لاحد ان ينفذ الى اسرار جمعية سرية معاصرة لا ينفذ اليها الا من كان من دعاتها في مرتبة الزعامة والقيادة . بيد أنا مع ذلك نستطيع أن نستشف طرفاً من نظم الدولية وغاياتها الخفية مما نشهده من جهود دعاتها المادية

أما ان الدولية الشيوعية جمعية ثورية هدامة فهذا مما لا ريب فيه . فهي تقصد الى هدم جميع النظم السياسية والاجتماعية الحاضرة من أساسها وسحق جميع التعاليم الدينية والمبادىء الاخلاقية وترمي الى تحقيق ذلك بالثورة والعنف . وهي تعبر عن ذلك في تصريحاتها العلنية بأنها ترمي الى تحرير الكتلة العاملة والجماعات المهيضة من تحكم الارستقراطية وأصحاب الاموال ، والى تحرير الامم المغلوبة والمغتصبة من نير الاستعمار ، وتسند كل غاية لها الى استخلاص الحقوق والحريات من أيدي الغاصبين والظلمة ، وأن تقيم مكان الحكومات والمجتمعات الحاضرة حكومات ومجتمعات شيوعية تكون السيادة فيها للكتلة العاملة . هذا هو برنامج الدولية الذي تصرح به على ألسنة قادتها وزعمائها ، بل هـذا برنامج لتين نفسه . وهو في الواقع برنامج خلاب تثير به الدولية مشاعر السواد الاعظم في كل مجتمع ، وتحفز به كوامن الشعوب المهيضة والامم المغصوبة ، ولكن الدولية لا تستطيع رغم جهودها واضطرام دعوتها أن تقنع هذا السواد باعتناق مثلها الخلابة ، ومثل روسيا قائم يشهد بأن التجربة الشيوعية كانت خيبة ، وان تعاليم ماركس ما زالت حلماً وحشياً لم تحقق منه الا لمحات ضئيلة

بيد انه اذا كانت الدولية لم تفز حتى اليوم بتحقيق برنامجها الانشائي حيثما تبسط سلطانها وحيثما تخضع لصولتها أمماً بأسرها ، فليس من ريب في انها قد فازت بتحقيق كثير من مشاريعها الهدامة . ففي روسيا وفي أواسط آسيا أبادت الدولية نظم المجتمع القديم بأسره ، وسحقت مبادئه وتقاليده الدينية والاخلاقية ، وبثت فيه عقلية جديدة . وما زالت الدولية تبث روح الثورة في جميع الجماعات العاملة على يد الاحزاب الشيوعية والاشتراكية المنتمية اليها . ولا تكاد توجد اليوم هيئة شيوعية او

اشتراكية هامة لا تنتمي الى دولية موسكو الا حزب العمال البريطاني الذي أبى أن يعتنق برنامجها منذ اللحظة الاولى ، والذي ينتمي الى دولية فينا الثانية



تسينوفييف

٨ ـ الدولية الشيوعية اذن هي التي تدير حركة الثورة والهدم في جميع أنحاء العالم ، وهي التي تغذيها بالنصح والمال . وقد شهدت اوربا منذ قيام الدولية الشيوعية عدة فورات ثورية هائلة . في وقت ما سقطت المجر صرعى الدعوة الشيوعية وقامت فيها حكومة شيوعية خالصة ، ولبثت المانيا تصارع الثورة الشيوعية أشهراً ولم تطفئها الا بسيل من الدماء ، وكادت ايطاليا قبيل قيام الفاشست تذهب فريسة الحركة الشيوعية ، وما زالت هذه الحركة تضطرم حتى اليوم في بلغاريا واستونيا واليونان وتنذر كل آونة باقتلاع حكوماتها الحاضرة

وقد وجدت الدولية في أمم الشرق التي يبسط عليها الاستعمار حكمه المفروض ويستثير سخطها ويأسها بعسفه مهاداً خصيبة لبث دعوة الثورة والهدم . ولنا في حوادث الصين دليـل ساطع فقد اضرم دعاة الدولية في جنوب الصين ثورة اكتسحت سلطان الاستعمار ، وحطمت مشاريع التجارة الاجنبية والبريطانية بنوع خاص ، وقضت هنالك على كل نظام وحكم

تثب هذه الفورات بتدبير الدولية وتعضيدها وتأبى الدولية أن تعترف بإثارتها ،

غير ان زعماءها لا يحجمون في تصريحاتهم وأحاديثهم عن تمجيد هذه الحركات واعتبارها نذراً بانفجار الثورة العالمية ، وهذا آخر ما صرح به تسينوفييف رئيس الدولية ، وخطيبها الملتهب حيث قال « ان نذير الثورة العالمية يبدو واضحاً في الاضطرابات التي تجتاح اليوم الصين والهند وسوريا وتونس ومراكش وغيرها من الامم التي سلبها الاستعمار حرياتها وحقوقها »

وذكر تشتشرين وكيل الشؤون الخارجية الروسية في احد تقاريره ما يأتي :
« نلاحظ أينما سرحنا البصر ، في أمم الشرق ، في فارس والصين وكوريا وتركيا ومصر اضطراماً عميقاً يتخذ من يوم الى يوم شكل ثورة منظمة على نير الرأسمالية الاوربية والاميركية . وهذه الحركة ترمي في النهاية الى تحقيق مثلنا العليا »

والخطر كل الخطر في ان الامم التي تخشى على كيانها ونظمها من نشاط الدولية ودعوتها الهادمة تحارب في الواقع اشباحاً غير منظورة ، وجنوداً يعملون في الظلام باسلحة خفية ووسائل تهزم أية رقابة . ومن ثم كانت الدولية الشيوعية جمعية سرية هائلة . وكانت لها مراتبها السرية متدرجة في المعرفة والرياسة ، فالسواد الذين يعملون لتحقيق مشاريعها الهادمة لا يتصلون بالمديرين والقادة ، وقلما يحيط باسرارها الدفينة انسان سوى الخاصة من زعمائها . فللتاريخ وحده ان يهتك ذلك الحجاب الذي يضرب فوق وسائلها وغاياتها الحقيقية ظلمات كثيفة

الفصل الرابع

اللاحكومية

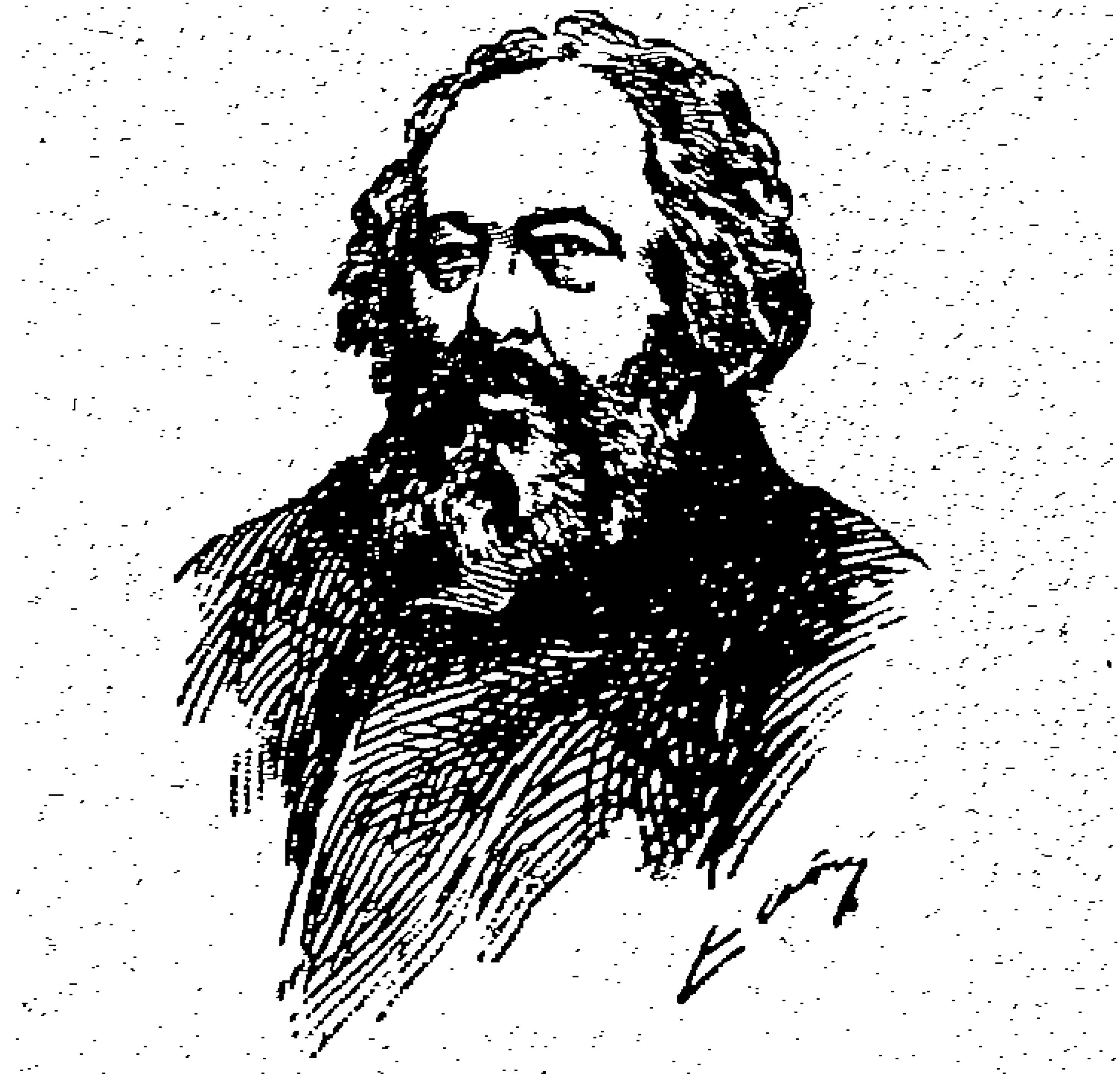
L'Anarchie

(١) معنى اللاحكومية. اللاحكومية والاشتراكية. بدء الحركة اللاحكومية. برودون وباكونين. أنصار اللاحكومية. الارهاب اللاحكومي (٢) الشيوعية اللاحكومية. أقوال البرنس كروبتكين. ضعف الدعوة اللاحكومية

١ ـ اللاحكومية من دعوات الهدم الظاهرة أيضاً، بيد انها تذهب في مُثُلها الى أبعد حدود الهدم. ومن الصعب تعريف اللاحكومية تعريفاً صحيحاً فليس لها من آداب مستفيضة كغيرها من دعوات الهدم الاخرى. ومعظم دعاتها من زعماء العمال الذين لم يتفقهوا في المباحث الاقتصادية والاجتماعية. والكلمة أصلها يوناني ومعناها «لا حكم»، واذاً فيمكن تعريف اللاحكومية بأنها انكار للحكومة، وحالة لمجتمع ليست له حكومة مركزية، يتمتع فيه الفرد بأقصى حدود الحرية الذاتية. ومن الخطأ أن نعتقد أن اللاحكومية تعني مجتمعاً لا قانون له، تسوده الفوضى وتنتهك فيه الحرمات، بيد انها لما كانت تصر على انكار كل سلطة بشرية كانت أو سماوية، سواء في حيز التفكير أو حيز العمل، فكثيراً ما ينسب اليها الخوارج على المجتمع ولو كانت آراؤهم وأفعالهم جرائم يعاقب عليها القانون. وقد حاول انصار هذه الدعوة في العهد الاخير أن يحددوا نظرياتهم بواسطة المؤتمرات الدولية التي كان أهمها مؤتمر امستردام الذي عقد سنة ١٩٠٧. أما خصومتهم للاشتراكية فقد بدت واضحة بفصل باكونين وطائفته اللاحكومية من الدولية الاولى في مؤتمر لاهاي سنة ١٨٧٢. على أنه مهما كان بين المذاهب الاشتراكية المتطرفة وبين اللاحكومية من تباين فان صورها المختلفة تمتزج بأساليب غير محسوسة، وتكون جميعها دعوة واحدة هي مخاصمة النظام الحاضر ولا سيما فيما يتعلق بالملكية الفردية، والواقع أنه لا فرق بين الاشتراكية الثورية واللاحكومية الشيوعية في الغايات والوسائل، فكلتاهما ترمي الى سحق المجتمع الحاضر بجميع نظمه، وكلتاهما ترى أن تحقق مُثُلها بالقوة والعنف. ويرى كل من الاشتراكي واللاحكومي ان استئثار البورجوازي بالملكية يقيد من حرية الفرد ويرغب كلاهما في تحطيم هذا الاستئثار، ولكنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً في تعيين من تؤول اليه

هذه الملكية ، وفي بناء المجتمع الجديد . أما الاشتراكي فيرى العلاج في قيام حكومة اشتراكية تستثمر أرزاق المجتمع لحساب افراده ، وأما اللاحكومي فيرى أن كل حكومة مهما كانت من الخير والكفاية انما هي أداة شريرة تجنح الى الاثرة والارهاق ، وان الفرد يغدو عبداً اذا اضطر الى طاعة الاغلبية كما هو عبد في ظل الحكم الاتوقراطي

ويمكن القول ان حركة اللاحكومية الحديثة قد بدأت بالفيلسوف الاجتماعي الفرنسي بير برودون (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) . وأهم ما كتب برودون كتابه « ما هي الملكية » وهو سؤال يجيب عنه بأن الملكية هي السرقة الصريحة ، ويقدر أن المجتمع الكامل



ميخائيل باكونين

يمكن أن يقوم النظام فيه على ضبط الفرد الحر لاهوائه وعواطفه ضبطاً معقولا . ولكن لعل اكبر داعية في الحركة اللاحكومية هو ميخائيل باكونين الروسي (١٨١٤ـ ٧٦) الذي يسمى نبي اللاحكومية . وقد كتب باكونين عدة مؤلفات أشهرها « الله والدولة » وعرف بالاخص بنضاله الطويل لكارل ماركس ، ومع أن ماركس خرج من هذه المعركة ظافراً كما رأينا فقد خلف باكونين وراءه طائفة كبيرة من الانصار والدعاة خصوصاً في الامم اللاتينية . وأهم ملجأ لانصار الدعوة في عصرنا هو ولاية كاتالونيا الاسبانية وعاصمتها برشلونة أكبر مدن اسبانيا الصناعية ولعل القارىء يذكر ما تحمله الينا أنباء الخارج من وقت لآخر من فورات اللاحكوميين في تلك المدينة وهي فورات لا تخمد دائماً الا بسيل من الدماء

وقد اعتنق اللاحكومية في العصر الاخير ودعا اليها طائفة من الاعلام مثل البرنس

كروبتكين الروسي ، وأريكو مالاتستا الايطالي . ولاولهما كتابات كثيرة عن النهليزم واللاحكومية . كذلك دعا اليها تولستوي فيلسوف روسيا الاكبر في كتاباته وقصصه. وأهم دعاة اللاحكومية في الاعوام الاخيرة هم في فرنسا الزه ركلوس ، وسبستيان



برودون

فور ، وشارل مالاتو ، ولويز ميشيل . وفي ايطاليا اسكاري شبرياني ، وفي أميركا إماجولدمان وبنجامين تروكر . والصحافة اللاحكومية ضعيفة ضئيلة وأهمها صحيفة « الحرية » Freedom البريطانية

وقد ارتكب اللاحكوميون في العهد الاخير طائفة كبيرة من أعمال العنف والسفك وهلك على يدهم جماعة من الحكام والزعماء منهم كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية

(سنة ١٨٩٤) ، والامبراطورة اليزابيث النمسوية (سنة ١٨٩٨) وأومبرتو ملك ايطاليا (سنة ١٩٠٠) وما كنلي رئيس الولايات المتحدة (سنة ١٩٠١) وهلك من اللاحكوميين كثيرون على نطع الجلاد بين سنة ٩٢ و ٩٤ منهم رافاشول وبايان وهنري ، أعدموا لالقائهم القنابل على الجماهير ، وهلك بوردين في لندرة (سنة ١٨٩٤) بانفجار الآلة المدمرة التي وضعها لنسف مرصد جرينوتش . وقتل اللاحكوميون في برشلونة في العامين الماضيين نفراً من الحكام والضباط وهلكت منهم جماعة بيد الجلاد ايضاً ، وكانت لهم في ايطاليا قبل انتصار الفاشزم حوادث ومحاولات عنيفة جمة

٢ ـ ويمكننا أن نلخص غايات الشيوعية اللاحكومية في ثلاث : الاولى تحرير المنتج من نير الممول ، والانتاج العام ، والاستهلاك الحر لثمرات العمل المشترك . والثانية تحرير المجتمع من النير الحكومي ، وتقدم الافراد الحر في شكل جماعات ووحدات تنتظم انتظاماً باهراً يبدأ من البسيط الى المركب طبقاً للحاجات والميول المشتركة . والثالثة التحرر من الخلق الديني واعتاق خلق حر لا اكراه فيه ينمو في ظل الحياة الاجتماعية ويغدو عادة للفرد

يقول البرنس كروبتكين : « هذه الغايات ليست حلماً ، وانما هي نتائج مستخلصة من تحليل ميول المجتمع الحديث ، ذلك أن الشيوعية اللاحكومية هي مزيج من عاطفتين اساسيتين في مجتمعنا، الاولى ميل نحو المساواة الاقتصادية والثانية ميل نحو الحرية السياسية

« ان مثل اللاحكومية تنادي بألا حرية للمجتمع ما دام الفرد ليس حراً ، وتقول لا تحاولوا أن تعدلوا المجتمع بأن تفرضوا عليه سلطة تصلح من كل الامور ، فاذا فعلتم فسوف تفشلون كما فشل البابوات والامبراطرة . ولكن نظموا المجتمع بحيث لا يصبح اخوانكم بعد أعداء لكم بحكم الظروف ، وألغوا النظم التي تسمح لنفر من الناس أن يحتكروا ثمرة عمل الغير ، وبدلا من أن تحاولوا بناء المجتمع من القمة الى أسفل اتركوه ينمو بذاته حراً من البسيط الى المركب بتضافر الجماعات الحرة . ان هذه الطريق التي تغص اليوم بالعثرات هي السبيل السوي لسير المجتمع ، فلا تحاولوا اعتراضه ، ولا ترتدوا بظهوركم نحو التقدم بل سيروا معه »

ثم يقول بعد : « وما دامت الشيوعية اللاحكومية هي نتيجة محتومة للميول القائمة ، فيجب أن نتوجه بخطواتنا نحو هذه الغاية . فاذا لم تفز الثورة القادمة بتحقيق هذه الغاية كلها فان كل ما يحقق في هذا السبيل سيبقى قائماً خالداً ، أما ما يحقق في وجهة مناقضة فسيقضى عليه بالعدم . ومن القواعد العامة أن الثورة العامة

قد يمكن قمعها ، على انها تغدو شعاراً للتطور في القرن الذي يلي . ان الشيوعية اللاحكومية هي خلاصة أجمل وأنقى عناصر التقدم في الانسانية أعني عاطفة العدالة ، وعاطفة الحرية ، والتضامن او وحدة المصلحة ، وهي ضمان بالتطور الحر سواء بالنسبة للفرد او المجتمع . واذاً فلا بد لها من الفوز »

على أن الدعوة اللاحكومية لم تتقدم كثيراً منذ عهد البرنس كروبتكين ، وليس لها اليوم دعاة أقوياء أو كثيرون ، وليست لها أحزاب قوية تؤيدها

خاتمة

الثورة العالمية

ليس لمؤرخ الحركات الهدامة والدعوات الخفية أن يبتسم اليوم لما يسمى « بالثورة العالميـة » وقد كان يبتسم منذ قرن أو بعضه للدعوات الاشتراكية والشيوعية واللاحكومية ، ويسخر من نظريات ماركس ، وباكونين ، وبرودون . أما اليوم وقد حطمت البلشفية دولة القياصرة ، ودست تعاليم ماركس الى كثير من نواحي الحياة الروسية العامة ، وغدت الاشتراكية والشيوعية قوتين سياسيتين عظيمتين في معظم الدول الغربية ، فليس على متلمس آثار الثورة العالمية في المجتمع الحاضر الا أن يستعرض في جد وخطورة كل القرائن والمظاهر التي قد يستشفها من غمار الحوادث السياسية والاجتماعية التي تهز أسس المجتمع الحاضر الى الاعماق ، وتبعث الجزع الى أولئك الذين لا يقنعون بالمظاهر الهادئة ، ويؤمنون بما يهدم النظم الحاضرة من عوامل التقويض والهدم

وكل عوامل التقويض والهدم التي تهدد بالفناء كل المجتمعات والنظم الحاضرة تجتمع في الدعوة الى الثورة العالمية ، فالبلشفية ، والدولية الشيوعية ، والاشتراكية ، واللاحكومية وغيرها من الدعوات والمصادر الثورية كلها قوات هائلة تعمل لغاية واحدة ، وترجع كلها في الاسترشاد والنصح الى وحي واحد

ان الثورة الفرنسية التي هي وثبة من أعظم وثبات الهدم في العصر الحديث ترجع الى نشاط هذه القوات الخفية ومهارتها في استغلال سخط الجماعات أكثر مما ترجع الى الاسباب والحوادث المادية التي ينسب انفجارها اليها عادة . وقد كانت الثورة الفرنسية ثورة عالمية في معنى من المعاني ، ذلك أنها قصدت بالهدم والتجديد كل النظم القديمة من أساسها ، وقصدت الى تغيير الحياة العامة في جميع مظاهرها . وقد رأيت ما كتبناه عن تأثير الدعوات الخفية في اثارة الثورة الفرنسية ، ان اليعقوبيين أعظم دعاة الهدم في الثورة كانوا جميعاً ينتمون الى جمعيات سرية كانت تعمل في الخفاء لسحق الملكية الفرنسية ، واتخاذ المجتمع الفرنسي مسرحاً لانفجار هائل ينفذ ضرامه الى أبعد مدى

وقد قطعت الثورة الفرنسية مرحلة كبيرة في هدم المجتمع القديم ، فابادت نظم الاقطاع ، وحطمت الملكية وأقامت النظم الجمهورية وسحقت سلطان الكنيسة ، وقررت ضروباً شتى من الحريات السياسية والاجتماعية ، وكانت مبعث الوحي لطائفة كبيرة من الثورات السياسية والاجتماعية التي اضطرمت بها معظم الدول الاوربية في القرن الماضي

* * *

هذه الروح الهادمة تجلت باشكال رائعة في الثورة الروسية الاخيرة ، فقد حمل سيل البلشفية كل ما صادره من تعاليم ونظم ، وامعن البلاشفة في الهدم والتدمير فأبادوا معالم المجتمع القديم بامرها، ودكوا كل صروحه السياسية والاجتماعية والدينية . ولم يقصدوا بالمحو والتغيير كل مظاهر الحياة العامة فقط ، بل قصدوا فوق ذلك الى تغيير عقلية الافراد ، والى استبدال التعاليم والتقاليد الاخلاقية القديمة بتعاليم وتقاليد جديدة ، وقد فاز البلاشفة من تلك الناحية أيما فوز وان اخفقوا في تطبيق النظم الاقتصادية الشيوعية ، فشادوا في بضعة أعوام مجتمعاً غريباً في تفكيره ، اباحياً في اعتباراته وتقديراته ، ثورياً في عقليته وغاياته ، وهذا المجتمع هو الذي يبرز اليوم الى الطليعة رافعاً لواء الثورة العالمية

فهل تكون البلشفية والثورة العالمية اسمين لمسمى واحد ؟ ان عبارة « الثورة العالمية » كثيراً ما تجري على لسان أقطاب موسكو وزعماء البلشفية ، بل قلما نسمع لاحدهم حديثاً أو نقرأ له مقالاً يخلو من الاشارة الى الثورة العالمية ، وثورة الكتلة العاملة وغيرهما ، وما زلنا نذكر آخر تصريح لتسينوفيف رئيس الدولية الشيوعية فاه به في مؤتمر الدولية الاخير اذ قال : ان « بوادر الجزع والاضطراب تجتاح العالم من أقصاه الى أقصاه ، وان في الاضطرابات التي تعصف اليوم بالصين والهند وسوريا وفلسطين ومصر وتونس ومراكش لدليل على ان الجماعات المهيضة تقطع مرحلة جديدة في سبيل اضرام نار الثورة العالمية واستخلاص الاكثرية الهائلة لحريتها من قبضة الاقلية الطاغية »

غير ان ما يقوله رئيس الدولية أو غيره من زعماء البلشفية ، وما يقوله على الاخص لنين في كتبه عن ثورة الكتلة العاملة ، لا يعني ان الجمعية السرية التي تقبض على مصائر روسيا تعمل دون وحي يلقى اليها من وراء ستار ، وتسير في جهودها الهادمة مستقلة

دون توجيه ، فما هو هذا المصدر الخفي الذي يغذي جهود البلشفية ؟ وما هي غايته الاخيرة التي يدفع الحركات الثورية المختلفة الى رعايتها والعمل على تحقيقها ؟ ان البناء الحر ، والمالية الدولية ، والجامعة الجرمانية كلها قوات حقيقية لا مرية في وجودها تؤثر في شؤون العالم أيما تأثير ، وفي وسعنا أن نعين منها أسماء الزعماء وطرق العمل ومراكز الوحي والارشاد ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل المثل في مسألة الثورة العالمية ، ومع ذلك فالثورة العالمية حقيقة يشعر العالم بوجودها ويغالب جهودها

أليس مما يلفت النظر أن تختلف الدعوات الشيوعية والاشتراكية واللاحكومية جميعها في براج الانشاء السياسي وتتفق جميعاً في غايات التقويض والهدم ؟ ان ثورة الكتلة العاملة ، وتحريرها من نير البرجوازي ، وتحطيم النظم الرأسمالية واضرابها من العبارات الشيوعية كلها ستار لغاية واحدة ، هي غاية هدم شاملة ، فتحطيم المجتمع الرأسمالي معناه تحطيم المدنية الحاضرة وكل ما احتوت من أديان وتعاليم وتقاليـد . وهدم المدنية غاية عملت لها جميع القوات الخفية والجمعيات السرية خلال القرون ، ولكن الحرص على تنفيذ هذه الغاية والدقة في تنظيم القوى التي تعمل لتحقيقها ، واستعداد المجتمع الحاضر لتلقي تعاليمها كأنها ظواهر جديدة لم تظهر من قبل بمثل ما تظهر به اليوم من جلاء ووضوح . ذلك لان عقلية المجتمع الحاضر قد تأثرت بمؤثرات جديدة عميقة ، وقد بعثت البأساء الطاحنة وآلام الحياة ، ومصاعب العيش في كثير من البيئات روحاً من اليأس والنقمة لم تعرفها من قبل . وهذه الروح هي التي يستغلها دعاة الثورة العالمية ، وهي التي مهدت السبيل لروسيا القيصرية لفوز البلشفية ، وتمهد اليوم سبلا شتى لنشاط الدعوة الشيوعية

اذاً فالدعوات الشيوعية والاشتراكية واللاحكومية نواح من نواحي الثورة العالمية تعمل كلها من سبل مختلفة الى نفس الغاية

يقولون ان الثورة العالمية والخطر اليهودي اسمان لمسمى واحد ، وان دعاة الثورة العالمية هم دعاة السيادة اليهودية العالمية ، وان الفكرة اليهودية القديمة في سحق المدنية الحاضرة هي التي تجثم وراء الثورة العالمية . فأما كون اليهودية تقصد بالهدم والمحو كل النظم الحاضرة ، وتقصد بالاخص الى هدم التعاليم الدينيـة والاخلاقية نصرانية كانت او اسلامية فأمر لا ريب فيه . ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن اليهودية تختفي وراء البلشفية والشيوعية والاشتراكية وما اليهـا من دعوات الهدم ، وكل ما هنالك أن اليهودية تعمل لنفس الغاية . والظاهر أن اليهودية ما هي الا احدى

القوى التي تعمل للهدم الى جانب الحركات الاخرى وانها تدين بعس التعاليم الحرة الهادمه ، وان هذه القوى ترعى جميعاً مثلا واحدة هي الجامعة بينها ، وهي التي توجه نشاطها وتوحد بين غاياتها . واذا كان من المستحيل أن نعين ذلك المصدر أو المصادر الخفية التي تغذي دعوة الثورة العالمية بالنصح والارشاد وتمدها بالدعاة والاموال ، فقد لا نذهب بعيداً اذا قلنا ان البلشفية هي أقوى وأمنع عناصر الثورة العالمية وانها هي التي تبرز من دونها الى الطليعة بالقول والفعل ، وانها واسطة الوحي في تغذية العناصر الاخرى التي تحرص جميعاً على تحقيق غاية موحدة شاملة ، هي هدم المجتمع الحاضر من الاساس ، واستبداله بمجتمع يقوم على مبادىء الشيوع والاباحة ويحقق أعظم ما يستطاع من مثل ماركس ولنين

﴿ تم الكتاب ﴾

فهرس